# غونتر غراس

# في خطو السرطان

قصة



منشورات الجمل

غونتر غراس

# في خطو السرطان

قصة

ترجمة

كاميران حوج

منشورات الجمل

ولد غونتر غراس عام ١٩٢٧ في ضاحية لانغفور التابعة آنذاك إلى دولة دانسغ الحرّة. والتحق عام ١٩٤٤ بالجيش الألماني جنديّاً في سلاح الجوّ ثم في صنف الدروع، وقد جرح ووضع في الأسر الأمريكي. بعد إطلاق سراحه مارس العديد من المهن في الزراعة والمناجم والمقالع قبل أن يبدأ بتعلّم الحفر على الحجر ومن ثم النحت والطبّاعة الفنيّة (الغرافيك) في أكاديمية الفنون بدوسلدورف من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢، وتابع دراسته في كليّة الفنون ببرلين. وفي عام ١٩٥٥ بدأ نشر أولى قصائده، وبعد ذلك بعام واحد رحل إلى باريس، حيث أقام حتى ١٩٦٠ وأنجز كتابة روايته **«الطبل الصفيح»** التي جلبت له شهرة واسعة، لتتبعها أعمال هامة أخرى مثل **«القطّ والفار»** و**«أعوام الكلاب»** التي اصطلح عليها بثلاثية دانسغ. انخرط غراس في العمل السياسيّ لصالح الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وارتبط بعلاقة صداقة مع الزعيم الاشتراكي والمستشار الألماني الأسبق فيلي برانت. ويعتبر غراس من الكتّاب الغزيريّ الإنتاج؛ إذ أصدر حتى الآن سبعة عشر مجلّداً، ضمّت إلى جانب أعماله الروائية والمسرحية والشعرية، الكثير من المعالجات النقدية والفكرية والخطابات السياسية. وحظيت أعماله الإبداعية والفكرية باهتمام الرأي العام الألماني والعالمي منذ عشرات الأعوام، وقد توّجت بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩.

**غونتر غراس: في خطو السرطان، قصة**

**ترجمة: كاميران حوج، الطبعة الأولى ٢٠٠٦**



Günter Grass: Im Krebsgang, Eine Novelle



Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهم معهد غوتة في بعض تكاليف ترجمة هذا الكتاب

# ١

«لماذا الآن تحديداً؟»، من سأل؟ تساءل: هل كنت أنا؟. ألأن الأم أعادت عليّ..؟ ألأني كما في زمن آخر، عندما حطت الصرخة على وجه الماء، أردت الصراخ ولم استطع..! لأن الحقيقة لا تتجاوز أكثر من أسطر ثلاثة..! لأن الآن تحديدا..!

مازالت الكلمات تعاني مني حتى الآن. أحدهم، لا يحب التحجج، يسمّرني إلى مهنتي. منذ شيبوبتي كان عليّ، مرهقاً تحت سفر الكلمات، أن أتمرن لدى إحدى صحف (شبرنغر للنشر)، ثم أمسح (شبرنغر) بالأرض في سطور على صفحات جريدة (تاتس) لاحقاً، أن أكتب ومن ثم باختصار كمرتزق لدى إحدى وكالات الأنباء، وأختزل كلماتي في مقالات كصحفي متفرّغ زمناً طويلاً، وكل ما يتراقص ألماً: الجديد كل يوم. أحدث أخبار الساعة.

لعل وعسى، قلتُ. لكن واحدنا لم يتعلم شيئاً آخر. إذ كان علي أن أنجز الآن ما عليّ إنجازه، فسيكتب كلّ ما فشلت في كتابته عن غرق سفينة. أي لأن... لأن الأم كانت وقتها حاملاً في أيامها الأخيرة، لأني أحيا بصدفة محض.

إلا أني خدوم. عليّ قبل ذلك أن أتنازل عن أناي قليلاً، لأن هذه

الحكاية بدأت قبلي بزمن طويل، بدأت قبل أكثر من مائة عام وتحديداً في عروس مقاطعة مكلنبورغ، مدينة شفيرين، التي تمتد بين البحيرات السبع، شيلفشتات والقصر ذي الأبراج، المصورة على البطاقات البريدية والتي ظلت معافاة ولم تتأثر بمرور الحروب.

كنت أظن بداية أن العش الريفي المبتور عن التاريخ لايجتذب أحداً غير السياح، إلا أن نقطة البدء في قصتي هذه صارت فجأة نقطة ساخنة على الانترنت. فقد نشر أحد المجهولين معلومات بيّنة، مدعّمة بالوقائع، بأسماء الشوارع والشهادات الدراسية، أراد ولابد أن يدلّ تاجرَ تحف مثلي على منطقة حفريات.

منذ أن دخلت هذه الأشياء السوق، اقتنيت جهاز (ماك مع مودم). كانت مهنتي تتطلب هذه المعلومات الشاردة في أنحاء العالم. بشقاء، لكن بسرعة، تعلمت العمل مع حاسوبي وبعد وقت لم تعد كلمات مثل (بروزر وهايبر لينك) غريبة عليّ. اكتسبت معلومات احتاج إليها حيناً وأرميها حيناً في سلة المهملات بضربة واحدة للفأرة وبدأت أتنطنط، مزاجاً أو ملالاً، بين منتدى وآخر وأردّ حتى على أغبى بريد الكتروني. دخلت سراعاً في صفحتين أو ثلاث للبورنو واصطدمت بعد بحث لا طائل منه بمواقع يُفرِّغ فيها، من يسمون بالنازيين الجدد أبناء أول أمس - وأبناء اليوم أيضاً - دخيلتهم الحادة على صفحات الكراهية والحقد. وفجأة، باعطاء اسم إحدى السفن في خانة البحث، كنت قد كتبت العنوان الصحيح www.blutzeuge.de. بحروف غوطية مطبعية كانت (جمعية أصدقاء شفيرين) قد نشرت أحاديث تحفة وكثيراً من الشغلات البالية. تدفع على الضحك أكثر مما على القيء.

مذاك تأكد لي دم مَن سيشهد. لكنني لا أعرف بعد إن كان

يجب، كما تعلمنا، العودة لسيرة الحياة هذه أولاً ثم إلى الأخرى ومن ثم هاته أو تلك، أم الأفضل أن أدخل الزمن بالعرض على نحو السرطان، الذي يمثل الرجوع خلفاً بالخروج الجانبي من الرتل، بينما هو يتقدم نوعاً ما بسرعة. الأكيد أن الطبيعة، بالأحرى بحر الشرق، أنعم وآمن، على كل ما سيذكر هنا، قبل أكثر من نصف قرن.

الدور الأول يأخذه شخص صار قبره خرابة. بعد انهاء المرحلة الدراسية المتوسطة بدأ بالتدرب على العمل في البنوك. أنهى تدريبه بشكل عادي جداً. لا ذكر لهذا في الانترنت. على الصفحة الالكترونية المهداة له، أُحتفظ فقط بالمولود عام ١٨٩٥ في شفيرين، فيلهلم غوستلوف، كشهيد. وأيضاً، لم ترد الإشارة إلى صلعته، ولا إلى مرض الرئة المزمن الذي منعه من إبراز بسالته في الحرب العالمية الأولى. بينما وجب على (هانز غاستروب)، الشاب من الأسرة الهانزية، أن يترك الجبل السحري بناء على أوامر مبتكره، ليسقط على الصفحة ٩٩٤ من الرواية التي تحمل الاسم ذاته صريعاً في (فلاندرن) كمتطوع أو ينجو في اللعبة الأدبية، أرسل بنك التأمين في شفيرين موظفه الكفؤ في العام ١٩١٧ إلى سويسرا، ليستشفى في دافوس من معاناته، حيث تعافى في الهواء الاستثنائي بحيث لن يتمكن الموت من اللحاق به إلا بطريقة أخرى. إلى شفيرين، لا لم يعد راغباً بالعودة عاجلاً.

وجد فيلهلم غوستلوف عملاً ثانوياً في هيئة المنتجع. وحالما تحول المختبر إلى مؤسسة اتحادية، تحول هو إلى سكرتير للهيئة. إلا أنه وجد رغم ذلك الوقت الكافي لطلب رزق إضافي كمسوّق جوال لإحدى شركات التأمين على الأدوات المنزلية، وبذلك تعرّف علاوة على

العمل، على كانتونات سويسرا الواحدة بعد الأخرى. في الوقت ذاته، كانت زوجته هيلدفيغ شاطرة، فقد عملت سكرتيرة لدى محام اسمه موسى زيلبروت، دون أن تُكره نفسها على ما يتعارض وخلقها القومي.

حتى الآن تعطي الوقائع مشهد زوجين من الطبقة الوسطى، لكنه، كما سنرى، متظاهر بالتأقلم مع أخلاقيات السوق السويسرية. ففي البداية استغل سكرتير هيئة المنتجع خفيةً ولاحقا عِلناً ـ حيث تستّر رب العمل على نشاطاته طويلاً ـ وبنجاح فائق قدراته التنظيمية الفطرية: انتسب إلى الحزب وكسب حتى مطلع ستة وثلاثين حوالي خمسة آلاف من ألمان الرايخ والنمساويين الذين يعيشون في سويسرا، جمعهم في فرق محلية في جميع أنحاء البلاد واستحلفهم باسم رجل ارتأته العناية الإلهية زعيماً.

لكن غريغور شتراسر، المسؤول التنظيمي في الحزب، هو من أعلنه رئيسا للجنة المحلية. شتراسر هذا، الذي افترض انه من الجناح اليساري، وبعد أن استقال عام اثنين وثلاثين من جميع مناصبه احتجاجاً على قرب زعيمه من الصناعة الكبيرة، أُعتبر بعد عامين من أنصار انقلاب (روم) وتمت تصفيته على يد رفاق الأمس، أما أخوه (اوتو) فقد تمكن من الهرب إلى الخارج. وهكذا كان على غوستلوف البحث عن قدوة جديد.

يقال أنه جاوب، رداً على تساؤل طرحه موظف في شرطة الأجانب في مجلس مصغر في (غراوبويندن) ليستعلم منه كيف يقدّر منصبه كرئيس للجنة المحلية لحزب العمال الألماني القومي الاشتراكي في الاتحاد السويسري: «أحب أمي وزوجتي أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم. وإذا أمرني زعيمي أن أقتلهم، فسأطيعه».

أُنكر هذا الاقتباس في الانترنت. فقد جاء في منتدى جمعية أصدقاء شفيرين أن اليهودي (اميل لودفيغ) اخترع مثل هذه الادعاءات في عمله. وجاء: بل استمر تأثير غريغور شتراسر على الشهيد. وجاء أن غوستلوف أكد في عقيدته دائماً على الجانب الاشتراكي قبل القومي. وللحال حمي وطيس القتال بين المشاركين في المنتدى. وسقطت الضحايا في مشهد ليلة السكاكين الطويلة المتخيّل.

استذكر جميع مستخدمي الشت المهتمين يوماً مشهوداً، يعتبر علامة على ما اصطفاه القدر. فما حاولتُ تفسيره بالصدفة المجردة، رفع الرفيق غوستلوف إلى مصافي العلاء: في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥، أي بعد مرور ٥٠ عاما باليوم والتاريخ على ولادة الشهيد بدأت السفينة المسماة باسمه بالغرق وبعد اثني عشر عاماً من الاستيلاء على السلطة، ومرة أخرى باليوم والتاريخ، لاحت تباشير الغرق العام.

وكأن هذا التاريخ مكتوب بالأحرف المسمارية على صخور الغرانيت. التاريخ الملعون الذي بدأ كل شيء به، تصاعدت وتيرة الموت فيه، وصلت الذروة وانتهت. لقد سجّل اسمي، بفضل الأم، في يوم المصيبة المستمرة. وعلى العكس، تحيا هي حياتها حسب تأريخ آخر، لا تخوّل الصدفة ولا ما يماثلها بما حدث ولا ما يفسر الأشياء ببساطة.

«لا، لا، ولا»، تصرخ، التي لم أنادها قط «أمي»، بل «أم». «كان بامكان السفينة أن تاخد اسم اي واحد تاني ومع هيك كانت راح تغرق. روح قلبي اعرف شو اللي فكر فيه هالروسي لما اعطى امرو بتوجيه هالتلات شغلات ديريكت النا...».

مازالت تمط بوزها وكأن كثيرا من الوقت لم يفطس مذاك، وكأن

الكثير من الكلمات لم تدهس ولم تلبد الكثير من الجمل في أطنان الغسيل. تسمي البطاطا بطاطس والخاثر لبنة. أصل والدي الأم من منطقة (كوشنايدراي) ومن هنا اسمهم (كوشنافيير). أما هي فقد نشأت في (لانغفور). هي ليست من (دانتسيغ)، إنما من تلك الضاحية الممتدة، المتوسعة أبدا في السهوب والتي كان اسم أحد طرقاتها (شارع الزن)، الذي لابد وأن الطفلة (اورزولا)، المعروفة (تولا)، وجدت فيه العالم مجتمعا. فحالما تتحدث عن، ما تسميه الأم «قبل كتير كتير»، يتعلق الأمر غالباً بالسباحة على شاطئ بحر الشرق القريب أو بالتزحلق على الجليد في الغابات جنوب الضاحية، إلا أنها ترغم المستمعين على الدخول في فناء بيت الأجرة رقم ١٩ في (شارع الزن) والمرور بالكلب المقيد (هاراس) ومن ثم مشغل النجارة، والصخب الذي تثيره المناشير، ماكنة التفريز، الفأرة الآلية والملازم المصمتة. «لما كنت شيطانة صغيرة كان مسموح لي العب بسطل الغرى»، السبب في التصاق رائحة الغراء، الاسطورية، كما يقال، بالطفلة (تولا) أنى وقفتْ، تمددتْ، مشتْ أو قرفصتْ.

لاغرو إذا تعلمت الأم، عندما قدمنا بعد الحرب إلى (شفيرين)، مهنة النجارة في (شيلفشتادت). وسرعان ما حصلت كـ«مهاجرة»، كما يقال في الشرق، على عمل لدى نجار له ورشة في منزله الشعبي المتداعي، ذي أربعْة من مناضد النجارين ووعاء الغراء المبقبق أبداً. وهذا لم يكن بعيداً جداً عن (شارع ليم)، حيث يقينا أنا والأم سقف من الزفت المضغوط. لكن لو أننا لم نحط رحالنا بعد الكارثة في (كولبرغ)، لو أن قارب الطوربيد (لوفه) أخذنا إلى (ترافيموينده) أو (كيل)، أي إلى الغرب، لكانت الأم، كـ«لاجئة من الشرق» كما

يقولون هناك، صارت أيضا صانعة نجار. أقول إنها الصدفة، بينما وجدت هي في محل اقامتنا الاجبارية قدراً لنا.

«ايمتى بالضبط كان عند هالروسي، اللي كان كابتن الغواصة، عيد ميلاد؟ بالعادة بتقول انك بتعرف كل شي بالضبط. . .».

كلا، فكما عند فيلهلم غوستلوف ـ مثلما ورد على الانترنت ـ لا أعرف هذا أيضاً. لم أتمكن إلا من الحصول على عام الميلاد علاوة على بعض الوقائع والتوقعات، مما يطلق عليه الصحفيون مادة خلفية.

ولد الكسندر مارينسكو عام ١٩١٣ في مدينة اوديسا الواقعة على البحر الأسود، والتي لا بد أنها كانت رائعة ذات مرة، كما يظهر في فيلم «المدرعة بوتمكين» بالأبيض والأسود. كانت أمه اوكرانية الأصل. والده رومانياً وتوقيعه يحمل الاسم مارينيسكوو، ذلك قبل أن يحكم عليه بالإعدام للمشاركة في التمرد ويتمكن من الهرب في اللحظة الأخيرة.

ترعرع ابنه الكسندر في المرفأ. ولأن الروس، الاوكرانيين، الرومان، اليونانيين، البلغار، الأتراك والأرمن، الغجر واليهود يعيشون في اوديسا جنباً إلى جنب، كان الكسندر يتحدث خليطاً من اللغات وعلى الأغلب كان مفهوماً من قبل شلته أيام الشباب. رغم الجهد الجهيد الذي بذله لاحقاً للتحدث بالروسية، إلا أنه لم يتمكن أبداً من تطهير اوكرانيته الممزوجة بألمانية اليهود من شتائم أبيه الرومانية. كان الشباب يتندرون على رطانته عندما كان ضابط صف بحار على إحدى السفن التجارية. لكن لابد أن الكثيرين غصوا بالضحك لاحقاً، مهما كانت نبرة أوامر قائد الغواصة.

لنعدّ السنين إلى الوراء. لابد أن الكسندر ذي السبع سنوات رأى

كيف تركت بقايا وحدات البيض وفلول جيوش الغزاة الفرنسية والبريطانية المنهكة (اوديسا) هاربة. ولا بد أنه شاهد على اثرها دخول الحمر بأم عينيه. جرت عمليات التطهير. وبهذا دنت نهاية الحرب الأهلية. وعندما سمح للسفن الأجنبية أن تلقي مراسيها في الميناء بعد سنوات، كان الفتى يغطس طويلاً وبمهارة، بحثاً عن القطع المعدنية التي كان المسافرون المتأنقون يلقونها في المياه المالحة.

لم يكتمل الثلاثي بعد. مازال أحدهم ناقصاً. لقد أثارت جريمته دوامة لم ينته أثرها بعد. فلأنه، شاء أم لم يشأ، جعل من أحد أهالي (شفيرين)، شهيداً للحركة ومن الشاب من اوديسا بطلاً للأسطول الأحمر في البلطيق، فقد حجز لنفسه مكاناً أبدياً على مقاعد الادعاء. قرأت هكذا اتهامات وأمثالها، طامعاً في المزيد، على الموقع المدار دائماً بالطريقة ذاتها: «أطلق أحد اليهود النار...».

أقل وضوحاً، كما أعلم الآن، هي عنونة إحدى الكتابات المتنازع فيها، التي نشرها الرفيق الحزبي وخطيب الرايخ (ديفيرغه) لدى (دار فرانز إهر) في ميونيخ عام ١٩٣٦. إلا أن جمعية أصدقاء شفيرين، حسب المنطق القاطع للعته، تمكنت من نشر أكثر مما ادعى (ديفيرغه) معرفته: «لولا اليهودي ما حدثت أكبر كارثة بحرية على مدى الدهر على الطريق منزوعة الألغام، أعالي (شتولبموينده). قام اليهودي بـ... الذنب كل الذنب على عاتق اليهودي في..».

ورغم خليط السخافات في المنتدى الالكتروني، بالألمانية تارة وتارة بالانكليزية، إلا أنه أمكن قراءة بعض الوقائع. كان أحد المشاركين عليماً بأن (ديفيرغه) كان بعد بداية الحرب مباشرة مديراً لإذاعة الرايخ في (دانتسيغ)، بينما كان لدى آخر، معلومات عن

نشاطاته في فترة مابعد الحرب وزعم أنه تغلغل بين الليبراليين في مقاطعة شمال الراين وستفاليا، بمؤازرة بعض كبار النازيين الآخرين وعضو البرلمان عن حزب الليبراليين الأحرار، (آخنباخ). كما أن خبير الدعاية النازي السابق، كما أكمل ثالث، أدار مؤسسة مغفلة لغسيل أموال التبرعات لصالح الحزب الليبرالي في فترة السبعينات وذلك في مدينة (نويفيد) على الراين. وأخيراً حمي على أطراف المنتدى الصاخب وطيس الاسئلة عن قاتل دافوس وجاءت الأجوبة الواثقة لتضع النقاط على الحروف.

أكبر بأربعة أعوام من مارينسكو وأصغر بأربعة عشر عاماً من غوستلوف، ولد دافيد فرانكفورتر عام ١٩٠٩ في المدينة الصربية (داروفار) ابناً لرابي يهودي. في البيت كانوا يتحدثون العبرية والألمانية وفي المدرسة تعلم دافيد الحديث والكتابة بالصربية، كما استشعر يومياً الحقد الدفين على اليهود. وهنا يرد تخميناً أن الجهود التي بذلها للتعامل مع هذا الحقد خابت، لأن بنيته الجسدية لم تسمح له بالدفاع الصلب عن نفسه ولأنه كان يزدري التأقلم الحذق مع الأمر الواقع.

لم يكن بين دافيد فرانكفورتر وفيلهلم غوستولف إلا شيء واحد مشترك: فكما كان هذا مصاباً بمَرض الرئة كان ذاك يعاني منذ طفولته من تقيّح العظام المزمن. وبينما تمكن غوستلوف من الاستشفاء من معاناته في دافوس ونشط لاحقاً كرفيق حزبي سليم البنية، لم يتمكن الأطباء من مساعدة دافيد في شيء وكان عليه أن يمرّ خمس مرات تحت سكين الجراح دون جدوى، فقد كان حالته ميؤوس منها.

لربما درس الطب لمرضه، وبناءً على وصية الأهل في ألمانيا، حيث كان أبوه وجده قد درسا. ويقال أنه رسب في اختبار اللياقة

البدنية كما رسب في الامتحان اللاحق، لأنه كان يعاني من الاحباط وضعف القدرة على التركيز. إلا أن الرفيق الحزبي ديفيرغه يزعم في الانترنت مخالفاً المؤلف لودفيغ الذي اقتبس منه، ويصر ديفيرغه على تسميته اميل لودفيغ كوهين: لم يكن اليهودي فرانكفورتر طالباً ضعيفاً يضيع الوقت سدى، ويعيش على حساب الأب الرابي فحسب، بل وأيضاً متأنقاً لاطائل منه ومكثراً من التدخين.

ثم بدأت ـ كما احتفل للتو في الانترنت ـ سنة الاستيلاء على السلطة بالتاريخ الملعون ثلاثاً. عايش المكثر من التدخين، دافيد فرانكفورتر في فرانكفورت على الراين، ما عايشه الآخرون. رأى كيف تحرق كتب المؤلفين اليهود. فجأة رسمت نجمة داوود على مقعده الدراسي. شعر بلطمات الحقد المنهالة عليه حيثما ولى وجهه. بدأ الطلاب الذين يحسبون أنفسهم على العرق الآري بشتمه مع آخرين. لم يستطع التعايش مع كل هذا. لم يستطع الصبر عليه. لذا هرب إلى برن وتابع دراسته، في المكان الذي يفترض أن يكون آمناً، ليعود ويرسب في الامتحانات. إلا أنه كتب رسائل مفرحة، بل وايجابية، إلى معيله. لما توفيت أمه في السنة التالية، كف عن الدراسة. وسعياً، ربما، إلى دعم لدى الأقارب، سافر مرة أخرى إلى الرايخ الألماني، حيث رأى في برلين عاجزاً كيف يجرّ شاب في مقتبل العمر عمَه، الذي كان بدوره رابياً، من لحيته الحمراء صارخاً فيه: «يللا، يللا، يا يهود».

ورد مثل هذا الخبر في مؤلف اميل لودفيغ الموسوم «قتل في دافوس» أيضاً، الذي نشره الكاتب الناجح عام ١٩٣٦ لدى دار نشر (كويريدو) في امستردام، دار نشر المهاجرين. لم تتمكن جمعية

أصدقاء شفيرين من سرد المزيد من التفاصيل على صفحتها الالكترونية، لكنها، روت الأحداث بشكل آخر معتمدة مرة أخرى على كلمات الرفيق ديفيرغه، لأن هذا اقتبس في تقريره أقوال الشاهد، الرابي سالومون فرانكفورتر، في تحقيق شرطة برلين: «ليس صحيحاً أن غلاماً قصيراً جرني من ذقني ـ السوداء، وليس الحمراء كما قيل ـ وهو يصرخ في وجهي «يللا، يللا، يا يهود»».

لم أتمكن من التحقق من إن كان التحقيق الذي أجري بعد مرور سنتين على حادثة الشتم، قد تم تحت الاكراه. على كل حال عاد دافيد فرانكفورتر إلى برن ولابد أنه كان يائساً، لعديد من الأسباب. فمن ناحية، بدأت الدراسة، الفاشلة حتى ذلك الحين، ومن ناحية أخرى كان يعاني، وهو المعاني جسدياً من الآلام الحادة، تحت وطأة موت الأم. علاوة على ذلك تفاقمت ضغوط زيارته القصيرة إلى برلين، حالما قرأ في الجرائد المحلية والأجنبية تقارير عن معسكرات الاعتقال في (اورانينبورغ)، في (داخاو) وإلى ما هنالك.

هكذا طرأت عليه فكرة الانتحار في نهاية خمس وثلاثين وعاودت النبش في رأسه أكثر من مرة. لاحقاً، عندما بدأت المحاكمة، جاء في تقرير الخبير النفسي لهيئة الدفاع: «لأسباب نفسية ذاتية توصل السيد فرانكفورتر إلى حالة نفسية لم يتمكن من السيطرة عليها وكان لابد له من ان يحرر نفسه من ضغوطاتها. ولدت حالة القنوط لديه فكرة الانتحار. لكن غريزة البقاء الكامنة في كل فرد حولت الرصاصة عن نفسها إلى ضحية آخرى».

لم تذكر في الانترنت تحليلات دقيقة بهذا الشأن. رغم هذا، ساورتني الشكوك أن خلفية العنوان السري www.blutzeuge.de ليست

مجموعة من حليقي الرأس في جمعية أصدقاء شفيرين، إنما رأس ذكية وحيدة ومعتكفة. أحد الذين يتشممون، مثلي بالعرض، أجود ماركات العطور وأشباهها من استثناءات التاريخ.

طالباً يضيّع الوقت سدى، كنت أنا أيضاً، عندما بدت الآداب الألمانية مملة والصحافة لدى معهد (زوهر) نظرية جدا.

في البداية، عندما غادرت شفيرين، ثم انتقلت بالتراموي من شرق برلين إلى الجانب الغربي منها، أجهدت نفسي، كما أقسمت للأم، واعتكفت على كتبي مثل تلميذ طموح. بلغت ـ قبل سقوط الجدار بقليل ـ السادسة عشر لما بدأت اتنشق الحرية. سكنت لدى الخالة جيني صديقة الأم منذ أيام الدراسة، والمفترض أنهما قضيتا معاً أوقاتاً سعيدة، في (شمارغندورف) قرب (روزنك). كان لي غرفة خاصة، فيها نافذة في السقف. آه، لقد كانت أوقاتاً سعيدة.

كانت شقة الخالة جيني المتواضعة تشبه بيتا للعرائس. كانت عرائس البورسلان تقوم في كل مكان، على المائدة، على الكومودينا. في أغلبها راقصات الباليه في ثيابهن القصيرة وعلى رؤوس الأصابع. بعضهن في موقف جريء والجميع برؤوس صغيرة على رقاب طويلة. لما كانت الخالة جيني صبية حلوة بعد، كانت راقصة باليه مشهورة نوعاً ما، حتى ذلك الوقت الذي شوهت فيه إحدى الغارات الجوية، التي سوت عاصمةِ الرايخ بالأرض، قدميها الاثنين، بحيث أنها كانت تقدم لي المكسرات مع شاي الغداء وهي تضلع بينما تبرهن يدها على حركة رشيقة. ومثل العرائس الهشة في شقتها الطريفة، كانت ابتسامة صغيرة، تبدو متجمدة، ترتسم في رأسها الصغير على رقبة نحيفة. كما أن بدنها غالباً ما كان يرتعش.

أبهجني السكن عندها. كانت تدللني. وعندما كانت تتحدث عن صديقتها من أيام الدراسة ـ «أوصلتني عزيزتي تولا رسالة جديدة بطرق معوجّة. .» ـ، كنت أحاول لدقائق أن أحب الأم، هذه الفاجرة اللدنة الملعونة، لكنها كانت تعاود وتثير أعصابي من جديد. كانت رسائلها السرية المهربة من شفيرين إلى (طريق كارلسباد) مليئة بالانذارات غير المشروطة، التي تضع تحتها الخطوط، لكي «تعذبني» ـ بكلمات الأم ـ: «عليه ان يتعلم، يتعلم، ويتعلم! أرسلت الولد إلى الغرب لكي يصنع شيئاً من نفسه. .».

وهذا يعني، بكلماتها المعششة في أذني: «أنا بس عايشة حتى اشوف ابني حامل شهادة». وكلسان حال لصديقتها كانت الخالة جيني تنذرني بلهجة رقيقة، لكنها تصيب مني مقتلاً. وبهذا لم يبق لي إلا أن انكب على كتبي بجد.

كنت أمضي الوقت آنذاك مع شلة من أترابي الفارين في المدرسة العليا. كان عليّ أن أتعلم الكثير عن دولة القانون والديمقراطية. بالإضافة إلى الانكليزية، صار عليّ أن أتعلم الفرنسية ولكن بالمقابل لم أعد مرغماً على تعلم الروسية. كما بدأت أفهم كيف تسير الرأسمالية على أحسن ما يرام بفضل ترشيد البطالة. لم أكن بين الطلاب المتفوقين لكني تمكنت أن آتي للأم بما تريده، الثانوية العامة.

كما كنت جيداً في الأشياء الأخرى أيضاً، كالبنات، ولم أكن قط معوزاً. فقد دست الأم في جيبي عنواناً آخر، عندما تحولت بمباركتها إلى مواقع العدو الطبقي: «اظن ان هادا ابوك. هو من اقاربي. وهو نفخني قبل ما يروح عالجيش. على كل حال، هو بيصدق هالشي. ازا صرت هنيك، اكتب له عن احوالك. . .».

لا يجب أن نشبه أشياء بأخرى. لكن من الناحية المالية، أصبحت أوضاعي تشبه أوضاع دافيد فرانكفورتر في برن، الذي كان أبوه يحول له مبلغاً شهرياً على رصيد في أحد المصارف السويسرية. كان اسم قريب الأم، يرحمه الله، هاري ليبناو، وكان ابن النجار في شارع الزن المذكور سالفاً. كان يعمل ليلاً محرراً أدبياً لدى **إذاعة جنوب غرب**: الشعر في منتصف الليل، عندما تكون أشجار الصنوبر في (شفارتزفالد) وحدها تصغي إليه!

لأني لم أكن أريد أن أعيش دائماً على حساب صديقة الأم، كتبت في رسالة لطيفة، بعد التحيات والسلام، ملاحظة «ابنك المجهول» ورقم الحساب في البنك بخط واضح. ولأنه على ما يبدو كان يحيا حياة زوجية سعيدة، لم يرد على رسالتي إلا أنه كان يرسل إلي مطلع كل شهر أكثر من الحد الأدنى للنفقة، مائتي مارك بالتمام والكمال، وهو مبلغ محترم لذلك الوقت. لم تكن الخالة جيني تعرف شيئاً من ذلك، لكنها تزعم أنها عرفت قريب الأم هذا وإن سطحياً، كما اعترفت لي، مع حمرة خفيفة علت وجهها الذي يشبه وجه العرائس، أكثر مما ذكرت.

مطلع سبعة وستين، عندما ركنت إلى طريق كارلسباد منتقلا إلى (كرويتزبرغ)، ثم رميت الكتب الدراسية وبدأت متدرباً لدى جريدة «بريد الصباح» التابعة لدار شبرنغر، توقفت بركة النقود عن التدفق. بعدها لم أكتب إلى أبي بالدفع. ربما بطاقة بريدية في أعياد الميلاد، لا أكثر. كانت الأم قد أفهمتني في أحد رسائلها المهربة: «ليس عليك أن تقرّ له بالكثير من الحمد والشكر. فهو يعرف لماذا عليه أن يفتح خزينته...».

لم تكن تقدر آنذاك أن تسهب في الشروحات، لأنها كانت تدير كتيبة من النجارين في مشغل عام، يصنع أثاث غرف النوم للسوفييت. كرفيقة، لم يسمح لها بإقامة علاقات مع الغرب، وبشكل خاص مع ابنها الفار، الذي كتب مقالات، قصيرة في البداية ثم طويلة، ضد شيوعية الجدار والأسلاك الشائكة في الصحافة الرأسمالية، ما أنزل على رأسها كفاية من المشاكل.

حسبت أن قريب الأم لا يريد أن يدفع بعد لأني، وبدلاً من أن أدرس، كتبت مقالات غاضبة في جرائد شبرنغر الحاقدة. بشكل ما كان لديه الحق على طريقته الليبرالية الخرائية. ثم إني، بعد الاعتداء على (رودي دوتشكه)، تركت العمل لدى شبرنغر. وصرت مذذاك يسارياً بشكل من الأشكال. كتبت، بسبب الأحداث المتعاقبة آنذاك، لعدد من الصحف التقدمية وعشت حياة هنيئة نوعاً ما، رغم عدم تجاوز الإيرادات مبلغ الحد الأدني من النفقات بكثير. على كل حال لم يكن السيد ليبناو والدي. هي الأم ادعته أباً لي. فمنها عرفت أن المحرر في البرنامج الليلي توفي بنهاية السبعينات لمرض في القلب، هذا قبل أن أتزوج. كان من سن الأم، في الخمسينات.

ومنها حصلت تعويضاً عنه على أسماء رجال آخرين يحتمل أن يكونوا أبي، حسب ما تزعم. أحدهم، ممن اختفوا، كان يطلق عليه اسم يواخيم أو يوخن وآخر، أكبر سناً ويفترض انه سمم الكلب هاراس، كان اسمه فالتر.

كلا ولا، لم يكن لدي أب قط، كل ما لدي كانت صوراً غامضة فقط. وهنا، كان الأبطال الثلاثة، الذين يهمني أمرهم الآن، أفضل حالاً. في جميع الأحوال، لم تكن الأم ذاتها تعلم من حبلها، عندما

قبلت مع أهلها برقم سبعة آلاف وكذا وكذا على ظهر السفينة في مرفأ (غوتنهافن ـ اوكسهوفت) في صباح ٣٠ كانون الثاني خمسة وأربعين. كان لذاك الذي عمدت السفينة باسمه أن يبرهن أن التاجر هرمان غوستلوف أباه. وذاك الذي تمكن من إغراق السفينة المحملة بالركاب يعيش في اوديسا، لأنه كان ينتمي في شيبوبته إلى عصابة سرقة اسمها (بلانتي)، لأن الأب مارينسكو كان يذيقه العذاب الأليم، وهي إحدى علامات حنان الأب. ودافيد فرانكفورتر، الذي عمل بسفره من برن إلى دافوس على أن يطلق اسم أحد الشهداء على السفينة، كان أبوه رابياً حقيقياً. لكني انا أيضاً، من لا أب له، صرت أخيراً أباً.

ما نوع السكائر التي كان يدخنها؟ سكائر يونو المدورة؟ أم سكائر اوزينت المسطحة؟ وربما، حسب الموضة الدارجة في ذلك الوقت، السكائر بالعقب الذهبي؟ لاتتوافر صور عنه وهو يدخن، عدا نسخة متأخرة في الجريدة، تصوره بنهاية الستينات، عندما سمح له أخيرا بدخول سويسرا، مع سيجارة وهو سيد هرم يريد أن يلقي عنه أخيراً هموم الوظيفة. على كل حال فقد كان، مثلي، يدخن دون توقف ولهذا اتخذ مكاناً له في قسم المدخنين في القطار السويسري.

سافر الاثنان بالقطار. في الوقت الذي سافر فيه دافيد فرانكفورتر من برن إلى دافوس، كان فيلهلم غوستلوف في مسيرة تنظيمية. في أثنائها زار الكثير مِّن الفرق المحلية لفرع الخارج في الحزب النازي وأسس قواعد جديدة لمنظمة شباب هتلر ورابطة الصبايا الألمانيات. ولأن رحلته أخذت مسارها بنهاية كانون الثاني، فقد ألقى بمناسبة الذكرى الثالثة للاستيلاء على السلطة خطابات جارفة في برن وزيوريخ، غلاروس وتسوغ أمام ألمان الرايخ والنمساويين. ولأنه كان

أقيل من عمله في هيئة المنتجع في العام الفائت، لإلحاح النواب الاشتراكيين الديمقراطيين، فقد كان مطلق اليد في وقته، يصرفه كما يشاء. ورغم الاحتجاجات في سويسرا على نشاطاته التحريضية ـ كانت الصحف اليسارية تطلق عليه لقب «دكتاتور دافوس» وطالب المجلس الوطني في (برينغدورف) بابعاده ـ إلا أنه وجد في كانتون غراوبويندن، كما في جميع أنحاء الاتحاد، العدد الكافي من السياسيين والموظفين، الذي لم يكتفوا بمؤازرته مالياً فقط. كانت إدارة المنتجع في دافوس تعلمه دوريا بقوائم أسماء المنتجعين الجدد، حيث لم يكتف فقط بدعوة المان الرايخ منهم، طالما هم في المنتجع، إلى الحفلات الحزبية بل وطالبهم بحضورها. كانت العلامة الحمراء توضع جانب أسماء الغياب بدون تبرير وترسل إلى الجهات المعنية في الرايخ.

في الوقت الذي سافر فيه الطالب المدخن، الذي حجز في برن تذكرة عادية، ليس تذكرة ذهاب وإياب، وبينما كان الشهيد لاحقاً في خدمة الحزب، كان الضابط صف البحار، الكسندر مارينسكو، قد بدل موقعه من البحرية التجارية إلى الاسطول الأحمر في البحر الأسود، مشاركاً ضمن كتيبة التأهيل في دورة ملاحة، ليتم تدريبه بعدها على قيادة الغواصات. كان في الآن ذاته عضواً في منظمة الشباب الكومسمول وبرهن على أنه سكير لا يبزه أحد، خارج أوقات العمل، فهو لم يحمل معه زجاجة الشراب إلى سطح السفينة قط. للحال فرز مارينسكو كضابط ملاح على الغواصة sch ٣٠٦ وهذه الوحدة البحرية، التي وضعت قبل فترة وجيزة في الخدمة، ارتطمت قبل انطلاقة الحرب، عندما كان مارينسكو ضابطاً على غواصة أخرى، بلغم وغرقت بكامل طاقمها.

من برن إلى زيوريخ، مرورا بعديد من البحيرات. لم يطنب الرفيق ديفيرغه في مؤلفه، الذي يرسم درب طالب الطب المسافر، في الكلام عن الريف الجميل. ولابد أن المدخن، الطالب في الفصل الثالث عشر لم يبال إلا قليلاً بالجبال الخلابة والأفق الهاربين على طريق سفره ولا بالبيوت، أو بالأشجار والجبال المغطاة بالثلوج وتحولات الضوء في النفق الذي اجتازه القطار.

سافر دافيد فرانكفورتر في ٣١ كانون الثاني ١٩٣٦. قرأ الصحف اليومية ودخن. في الجريدة التي كان يطالعها قرأ تحت العنوان العريض «متفرقات» عن نشاطات رئيس اللجنة المحلية غوستلوف. «حدث في مثل هذا اليوم» كتبت «دي نويه زيوريخه» و«بازلر ناسيونال تزايتونغ» وأشارت إلى كل ماحدث في آن واحد، وما قد يحدث. في مطلع السنة، التي كتب لها ان تدخل التاريخ على انها عام اولمبياد برلين، لم تكن ايطاليا الفاشية قد تمكنت بعد من الانتصار على امبراطورية النجاشي البعيدة، الحبشة، وبدأت علامات الحرب تومئ براسها في اسبانيا. كانت الخطوط الحديدية تتقدم بخطوات سريعة في الرايخ وبلغت الأم ثمانية اعوام في لانغفور. قبل صيفين كان أخوها كونراد، الأصم الأبكم ذو الجدائل الذهبية، قد توفي وهو يستحم في بحر الشرق. كان أخاها المفضل. ولهذا وجب على ابني ان يعمد باسمه بعد ستة واربعين عاماً. لكن الجميع سيناديه كوني وستكتب صديقته اسمه جوني.

جاء لدى ديفيرغه أن رئيس اللجنة المحلية رجع في ٣ شباط متعبا من مسيرته الناجحة عبر كانتونات الاتحاد. كان فرانكفورتر يعرف أنه سيصل في الثالث منه إلى دافوس. علاوة على الجرائد اليومية، قرأ

نشرة «ألماني الرايخ» التي يصدرها غوستلوف دورياً وفيها يثبت كل مواعيده. كان دافيد يعرف كل شيء تقريباً عن هدفه. كان قد تشربه تشرباً. لكن هل كان يعرف أيضاً أن الزوجين غوستلوف بنيا مما ادخراه منزلاً صغيراً في شفيرين في العام الفائت وأنهما أثثاه بعناية استعداداً للعودة إلى الرايخ؟ وانهما يتمنيان انجاب ولد؟

عندما وصل طالب الطب إلى دافوس، كانت ثلوج جديدة قد تساقطت. أشرقت الشمس على الثلج وكان المنتجع ناصعاً كما في صوره على البطاقات البريدية. لم يكن يحمل أمتعة، لكنه سافر لغاية محددة. كان قد قطع صورة لغوستلوف في البزة العسكرية من جريدة «بازلر ناسيونال تسايتونغ»: رجل فارع، يحدق بقوة، ساعده تساقط الشعر على اكتساب جبين عال.

اتخذ فرانكفورتر مقراً له في فندق «لوفه». لم يكن عليه إلا أن ينتظر حتى الثلاثاء، ٤ شباط. يسمي اليهود هذا اليوم «كايتو» وهو يوم سعد لديهم، هذه المعلومة حصلت عليها من الانترنت. وعلى المواقع الالكترونية الخاصة يتم اليوم الاحتفاء بذكرى الشهيد بهذا التاريخ.

مدخناً وهو يسير فوق الثلج الخشن تحت الشمس الساطعة. كل خطوة تصر صريراً. متجولاً في المدينة يوم الاثنين. متمشياً في متنزه المنتجع ذهاباً واياباً عدة مرات. متفرجاً بين المتفرجين على مباراة هوكي الجليد. متحدثاً طواعية مع نزلاء المنتجع. الزفير يتجمد في الهواء البارد. المهم ألا تثار الشكوك. لا عجلة. كل شيء معد. كان قد تدرب مع مسدس اشتراه على الرماية في ساحة التدريب (اوسترمونديغن) قرب برن، الأمر المسموح به. وبرهنت يده، رغم اعتلال صحته، على أنها هادئة.

يوم الثلاثاء، قريباً من مراده، ساعدته لوحة كتب عليها «فيلهلم غوستلوف ح.ع.ا.ق.ا»، على الاستدلال، كان شارع (ام كوربارك) يتشعب من متنزه المنتجع ويقود إلى الدار رقم ثلاثة. بناء مسطح بلون أزرق تتعلق ضفائر الجليد بمزاريبه. القليل من المصابيح صامدة في وجه العتمة. الثلج لا يتساقط.

هذا فيما يتعلق بالمشهد الخارجي. والتفاصيل الأخرى ظلت بلا أهمية. لن يتمكن أحد من الادلاء بأقوال عن مجريات الجريمة، إلا القاتل والأرمل. تمكنت من الاطلاع على ذلك الجزء من المسكن على الموقع الالكتروني المشار إليه من خلال الصورة المبثوثة في النص لتزيينه. من الواضح أن الصورة أخذت بعد ارتكاب الجريمة، لأن ثلاث باقات أزهار جديدة على الطاولة والكومودينة بالإضافة إلى الأصيص كانت تعطي المكان مشهد الغرفة التذكارية.

فتحت الباب هدفيغ غوستلوف إثر الرنين. رجا الشاب، ستذكر في أقوالها اللاحقة عنه بأن عينيه كانتا طيبتين، التحدث إلى رئيس اللجنة المحلية. كان هذا واقفاً في الممر ويتحدث في التلفون مع الرفيق د. هابرمان في مقر تون. ادعى فرانكفورتر أنه سمع شتيمة «اليهود الخنازير» عندما مر به، الأمر الذي أنكرته السيدة غوستلوف: كانت هذه الكلمات غريبة على قرينها رغم رؤيته في ضرورة إيجاد حل سريع للمسألة اليهودية.

قادت الضيف إلى مكتب زوجها ورجته الجلوس. لا شكوك. غالبا ما كان المستدعون يأتون فجأة، وبينهم الأنصار المحتاجون.

من مقعده رأى طالب الطب، الذي اتخذ مجلسه مرتدياً معطفه وواضعاً القبعة على ركبتيه، طاولة المكتب وعليها الساعة في الإطار

الخشبي الانسيابي، فوقها خنجر الشرف من الاس.آ. كانت صور الزعيم ومستشار الرايخ تعلو الخنجر وتجانبه، بالأبيض والأسود أو ملونة. لا صورة للمرشد المقتول قبل عامين غريغور شتراسر. إلى الجانب صورة إحدى السفن الشراعية، ربما غورخ فوك.

علاوة عليه كان للضيف المنتظر، الذي لم يبح لنفسه التدخين، أن يرى على الكومودينة القائمة جانب الطاولة جهاز الراديو، وبجانبه التمثال النصفي للزعيم من البرونز أو الجص مصبوغاً بلون يضفي عليه لمعان البرونز. قد تكون الأزهار المقطوفة ملأت المزهرية قبل وقت الجريمة ونسقتها السيدة غوستلوف للترحيب بالرجل بعد رحلة متعبة، ثم كهدية بعيد ميلاده القريب.

على الطاولة كثير من القرطاسية المبعثرة وكثير من الأوراق المرتبة باهمال: ربما تقارير اللجان الفرعية من الكانتونات وبالتأكيد مراسلات مع الجهات المسؤولة في الرايخ، ويحتمل رسائل التهديد التي كثرت في الفترة الأخيرة. إلا أن غوستلوف رفض رغم ذلك حماية الشرطة.

دخل المكتب دون زوجته منتصب القامة ومعافى، لأنه تجاوز مرض التدرن الرؤي منذ سنوات. اتجه في ثياب مدنية نحو الضيف، الذي لم ينهض من مقعده بل أطلق الرصاص وهو جالس حالما استل المسدس من جيب المعطف الشتوي. حفرت الطلقات الموجهة إلى الصدر، إلى العنق والرأس أربع حفيرات في جسد رئيس اللجنة المحلية. خر هذا أمام صور زعيمه دون أن يصرخ. على إثرها وقفت زوجته في الغرفة، أبصرت أولاً المسدس المصوب ثم زوجها المتساقط، الذي بدأ الدم ينزف من جميع جروحه وهي تنحني عليه.

وضع دافيد فرانكفورتر، المسافر الذي لم يحجز تذكرة العودة،

القبعة على رأسه وغادر، دون أن يمنعه قاطنو البيت المبلبلون، مكآن الجريمة. تجول بعض الوقت في الثلج حيث سقط عدة مرات. كان يحفظ رقم الطوارئ في رأسه. في أحد أكشاك التلفون بلّغ بارتكابه الجريمة ووجد أخيراً أقرب مخفر وسلم نفسه لشرطة الكانتون.

قال الجملة التالية أولاً في المحضر الذي فتحه الخفير وكررها أمام المحكمة دون أن يبدل فيها حرفاً: «أطلقت النار لأني يهودي. أملك كامل قواي العقلية وأنا غير نادم على فعلتي بأي شكل من الأشكال».

بعدها طبعت أكوام من الورق. ما سماه فولفغانغ ديفيرغه «جريمة قتل جبانة»، سرده الروائي اميل لودفيغ على أنه «صراع داوود مع جوليات». وبقي الأمر على هذا التقييم المتناقض حتى عصرنا المتشابك بالديجيتال. وللحال ترك ما حدث بعدها، المحاكمة ضمناً، القاتل والضحية خلفه واتخذ معناه الخاص. وجها لوجه وقف شهيد الحركة القومية الاشتراكية أمام البطل التوراتي، الذي أراد بفعلته المبررة ببساطة أن يدعو شعبه المعذب إلى المقاومة. سيتخذ الاثنان مكانة كبيرة في كتاب التاريخ. لكن القاتل سرعان ما نسي وحتى الأم، عندما كانت طفلة ينادونها تولا، لم تسمع شيئاً عن جريمة قتل وقاتل، إنما شيئ خرافي عن سفينة تتلألأ بياضاً وقامت برحلات بحرية قصيرة وطويلة، وهي محملة بالركاب السعيدين، من أجل جمعية اسمها «القوة من المسرة».

# ٢

لما كنت طالباً تأتيه النفقات، حضرت في الجامعة التقنية في برلين محاضرات البروفسور (هولارار) الذي يستقطب اهتمام القاعة الملآنة على آخرها بصوته الحاد كأصوات الطيور. كانت المحاضرة بعنوان (بين الكلاسيك والحداثة) تدور حول فرار العباقرة من أمثال كلايست، غرابه، وبويشنر.

أعجبت بنفسي بين الكتاب الشباب وصاحبات المكتبات الأكثر شباباً في حانة (فايتزكلر)، حيث يقرؤون أعمالهم غير الجاهزة ويتباحثون فيها. بل وشاركت في حلقة دراسية على النموذج الأمريكي creativ writing في (شارع كارما). كان بين المواظبين عليها عشرات من الموهوبين الواعدين. ويبدو أنني لم أوفق، كما أكد لي أحد المحاضرين، أراد أن يضعنا، نحن المبتدئين، أمام تحديات مشروع ملحمي من نمط «الرعاية الدينية تلفونياً». وادعى أن مواهبي تكفي في اقصاها لكتابة السير والمغازي. لكنه، فجأة، أنقذني من الغرق: يشكل أصل وجودي الملخبط حدثاً نادراً، نموذجياً، وهو لهذا جدير بالسرد.

توفي بعض موهوبي ذلك الزمان وتمكن اثنان أو ثلاثة من أن يصنعوا لهم أسماء. وعلى العكس، يبدو أن مدرسي السابق أفرغ من

محتواه وإلا لما كان طلب عوني لـ gastwriter؟ لكني لا أريد أن أمشي مشية السرطان بعد. تتعثر، أقول له، والحكاية لا تستحق الجهد المبذول فيها. فهما متفذلكان ليس إلا. أحدهما كالآخر. هه، من قال أنه ضحى بنفسه ليقدم لشعبه مثالاً على المقاومة الباسلة. لم تتحسن أحوال اليهود بعد القتل ولا قليلاً. بل العكس، أصبح الإرهاب قانوناً. وعندما أطلق اليهودي (هرشل غروينشبان) النار في باريس بعد سنتين ونصف على الدبوماسي الألماني (إرنست فون رات)، كان الرد ليلة الكريستال. ثم ما الذي استفاده النازيون من شهيد؟ أتساءل. ليكن أن عمدت باسمه سفينة.

وها أنا أتعقب الأثر ثانية. ليس لأن العجوز يصرّ علي، بل لأن الأم لم تخفف ضغطها أبداً. حتى في عهود شفيرين، حيث كان علي التقافز بقميص أزرق وفولار أحمر كلما دشّن شيء ما، كانت تثقب أذني: «كان البحر متل التلج وكيف كانوا هالاولاد غرقانين ورؤوسهن تحت المية. لازم تكتب هالشي. هادا حقنا عليك، انت اللي نجيت. في يوم من الايام راح احكي لك كل التفاصيل وانت راح تكتب..».

لكني لم أكن أريد. لم يرغب أحد أن يسمع عنها شيئاً، ليس هنا في الغرب وليس في الشرق بحال من الأحوال. كانت السفينة غوستلوف وحكايتها اللعينة من المحرمات طوال الوقت. لنقل في عموم أنحاء ألمانيا. إلا أن الأم لم تتوقف عن تذكيري بها في مكاتيبها المهربة. عندما رميت الكتب الدراسية وبدأت بالكتابة لأجل شبرنغر، ضالعاً بعض الشيء نحو اليمين، قرأت: «إنه يعيد المبارزة. يكتب في سبيلنا نحن المهجرين. لا بد أنه سيكتب في حلقات ولأسابيع طويلة..».

ثم لما هوت «تاتس» وغيرها من المسامير اليسارية على أعصابي، قدمت لي الخالة جيني، حالما تمكنت من وضعي إلى مائدة الطعام في (روزنك)، وجبة من إنذارات الأم: «مازالت صديقتي العزيزة تولا تتوقع منك الكثير. وتقول لك أن واجبك تجاه أمك يدعوك لتخبر كل العالم..».

لكنني اختفيت متهرباً. لم أستسلم إلى الضغوطات. في كل تلك الأعوام التي قدمت فيها مقالات مطولة للمجلات العلمية، عن الزراعة البيوديناميكية للخضار مثلاً أو شهادات اعتراف مثل «لئلا تظهر اوشفيتز من جديد»، خلال عملي كصحفي متفرغ، تمكنت من ادخار ظروف مولدي، حتى دخلت مصادفة إلى الموقع الالكتروني للجبهة اليمينية المتطرفة وارتطمت ببعض ما يتعلق بالسفينة غوستلوف وبعدها بالصفحة www.blutzeuge.de، التي ترعاها جمعية أصدقاء شفيرين.

دونت ملاحظات أولية. استغربتُ. اندهشتُ. أردتُ أن أعرف لماذا يتمكن هذا الجلال الريفي من اجتذاب المجذفين في الشبكة العالمية ابتداءً بالطلقات الأربعة في دافوس. والموقع الالكتروني مفتوح ببراعة. صورة مركبة لشفيرين، بينها أسئلة مرنة: هل تريدون المزيد عن شهيدنا؟ هل نزودكم بتفاصيل قصته؟

من قال نحن! من قال جمعية! أقطع يدي إن لم يكن ثمة فرد واحد يسبح بين أمواج الانترنت. أنه رأس واحد يضع نفسه كحوض من الروث في خدمة هذه الغلة الرمادية بلون البراز. ما وضعه هذا العجي حول (القوة من المسرة) في الشبكة، كان حسنا ولم يك قط أحمق. صوراً لركاب السفينة الضاحكين. سعادة الاستحمام على سواحل جزيرة (رويغن).

لم تكن الأم تعرف عن هذا إلا قليلاً. كان اسم (القوة من المسرة) لديها (قه.ميم.ميم). كانت قد شهدت في العاشرة من عمرها من خلال ألعاب الضوء الفنية في لانغفور، في النشرة الأسبوعية التلفزيونية هذا وذاك وأيضاً: «سفينتنا قه ميم ميم» بمناسبة رحلة التدشين. علاوة عليه، كان الأب والأم بوكريفكه، هو بصفته عاملاً ورفيقاً في الحزب وهي بصفتها عضواً في رابطة النساء النازيات، على متن السفينة غوستلوف صيف تسع وثلاثين. سمح لمجموعة صغيرة من دانتسيغ، التي كانت آنذاك دولة حرة، بالسفر بموجب ترخيص خاص بألمان الخارج في آخر ثانية، كما يقال. كان هدف الرحلة في أواخر آب الألسنة البحرية في النرويج. كان الوقت متأخراً على شمس منتصف الليل.

عندما كنت طفلاً أكدت لي الأم بحمية، حالما كانت حكاية الغرق الابدية تصير موضوع حديث يوم الأحد، كيف حكى لها والدها بحماسة عن فرقة شعبية نرويجية والرقصات التي قدمتها على ظهر السفينة ق.م.م: «وامي ما كان فيا توقف عن الحكي عالمسبح اللي حيطانه من مرمر عليه صور وهي هايمة. هالمسبح اللي اشتغلو فيه البنات المساعدات من البحرية لحتى قطع الروسي هالصغار بطوربيده التاني شقفة شقفة..».

لكن قاع السفينة غوستلوف لم يصنع بعد، فما بالك بالحديث عن تدشينها. علاوة على ذلك، عليّ العودة إلى الوراء. لأن القضاة المسؤولين في كانتون غراوبوندن، هيئة الادعاء ومحامي الدفاع، بدأوا بعد اطلاق العيارات النارية القاتلة بالإعداد لملف دافيد فرانكفورتر. كان المفترض أن تجري المحاكمة في الضاحية كور. ولأن القاتل

اعترف بالجريمة، كان المفترض أن تكون المحاكمة قصيرة. أما في شفيرين فقد بدأت الاستعدادات للاحتفالات، التي جاءت الأوامر باقامتها من أعلى المراكز، لتبدأ مباشرة بعد استلام الجثمان وتبقى خالدة في ذاكرة الجماهير.

يا لكل ما أثارته الطلقات الأربع: مسيرات طوابير الأس.آ، صفوف التكريم على الشوارع، حاملي الأكاليل والرايات، عسكريون يحملون المشاعل. على أصوات الطبول المفخمة سار الجيش مشية الحداد وانتصب شعب شفيرين في إجلال، أو لمجرد الفرجة.

قبلها كان الرفيق المغمور من مكلنبورغ أحد كثيرين من رؤساء اللجان المحلية لـ ح.ع.ا.ق.ا ـ فرع الخارج. إلا أن فيلهلم غوستلوف الميت رُفع إلى منزلة أحبطت بعض الخطباء، فإنهم لما نقبوا عن عظمة تناسب عظمته، لم يجدوا إلا الشهيد الأكبر، الذي صار اسمه عنواناً لنشيد يعزف وينشد بعد النشيد الوطني الألماني في المناسبات الرسمية ـ وهي كانت كثيرة ـ: «الراية عاليا».

أقيمت الاحتفالات في دافوس بطبعة مصغرة. أعطت كنيسة الطائفة الانجيلية المقاس. وضع التابوت أمام المذبح وعليه راية الصليب المعقوف. وضع عليه خنجر الشرف، ربطة الذراع وقبعة الأس.آ منظومة في سكينة. حضر حوالي مائتا رفيق من جميع الكانتونات. كما عبر المواطنون السويسريون عن مشاعرهم داخل الكنيسة وخارجها. والجبال تحيط بهم.

نقلت الإذاعة الالمانية العامة مقاطع من مراسيم التشييع البسيطة في المنتجع المشهور عالمياً وكانت جميع إذاعات الرايخ مربوطة إليها. كان الخطباء يحبسون أنفاس المستمعين. لكن دافيد فرانكفورتر لم

يجد ذكراً له، لا في التعليقات ولا في الكثير من الخطب التي ألقيت لاحقاً في كل مكان. كان ذكره دائماً وأبداً «اليهودي الغادر». استنكر الوطنيون السويسريون بألمانية مسرحية محاولات الطرف الآخر في نفخ طالب الطب المعتل بطلاً، إذ أنه نصب بسبب أصوله الصربية على أنه «اليوغوسلافي فيلهلم تل». ، لكنها دعت إلى الإلحاح في السؤال عن خلفيات الشاب الذي أطلق الرصاص. وللحال أعلن أن المنظمات اليهودية هي العقول المدبرة. وقيل أن صاحب رسالة «جريمة القتل الجبانة» ليس إلا اليهودية العالمية المنظمة.

في هذه الأثناء كان القطار الخاص لنقل التابوت جاهزاً في دافوس. دقت النواقيس عند انطلاق القطار الذي سار بالجثمان صبيحة يوم الأحد ليصل هدفه يوم الاثنين. وتوقف لأول مرة على أراضي الرايخ في مدينة (زينغن) ومرّ، بغية الاحتفاء، قصيراً بشتوتغارت، فويتزبورغ، ارفورت، هاله، ماغدبورغ وفيتنبرغ، حيث «أزجى» المدير الاقليمي المسؤول وكتيبة التشريفات في كل محطة تحية الوداع لجثمان الرفيق المسجى في تابوته.

اكتشفت هذه الكلمة المقتبسة من كتيب معاني وايقاع ألفاظ الجلالة والأبهة في الانترنت. لم تشر كلمات التقارير الملقمة في الصفحة الالكترونية ببساطة إلى الطريقة المأخوذة عن الفاشيين الإيطاليين في أداء التحية برفع اليد اليمين، بل إلى أن الناس تجمعوا على أرصفة المحطات وفي التظاهرات لـ«تزجية» التحية الأخيرة. ولهذا لم يحتفل على Www.blutzeuge.de بذكرى المغدور باقتباسات من كلمة الزعيم وتوصيف حفل التشييع في شفيرين فقط، بل و«أزجيت» له التحية

الألمانية في أحدث أبعادها، المسمى cyberspace. بعدها فقط كانت «ايرويكا» بيتهوفن جديرة بالذكر لدى جمعية أصدقاء شفيرين.

على كل حال، جاءت رنة ثانوية ناقدة وسط السخافات المنشورة عالمياً. صحح أحد المشاركين خبر تحية الشرف التي أدتها إحدى وحدات الجيش للمقاتل على الجبهة الوارد في جريدة «المراقب الشعبي» آنذاك، مشيراً إلى أن ذا الجلال والإكرام لم يشارك في الحرب العالمية الأولى بسبب مرضه الرئوي، لم يبرهن على جسارته على الجبهة ولم ينل وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى، ولا من الثانية حتى.

يبدو أنه كان أحد المبالغين في الدقة وأفسد الاحتفالات المتخيلة للمصارع الأوحد على الجبهة الالكترونية. علاوة عليه أُفتقد، عن حق هذه المرة، في خطاب المدير الاقليمي في مكلنبورغ، هيلدبرانت، الإشارة إلى ما يسمى «التأثير القومي ـ البلشفي» لغريغور شتراسر على الشهيد. وبالمحصلة كان للمرء أن ينتظر من العامل الزراعي سابقاً، الذي كره ملاك الاراضي الكبار منذ أيام الطفولة وتمنى تقسيماً حاداً لأراضي الفرسان بعد مجيء الزعيم إلى السلطة، أن ينقذ شرف المغدور شتراسر ولو أشار اليه مَجرد إشارة. هكذا كانت المشاكسات. ثلة من الأدعياء يتشاجرون في المنتدى الالكتروني.

دون ان يأبه بنهايته، تابع قطار الموت الذي بعثته الصور، حركته على الموقع الالكتروني. في طقس متقلب سار من صاله الاحتفالات عبر طريق غوتنبرغ، طريق فيسمار، فوق توتندام، وعبر شارع «فال» إلى المحرقة. أربعة كيلومترات بين صفوف الشرف على الجانبين، محمولاً على عربة مدفع حتى أنزل على دوي الطبول لإحراقه وبعد أن

باركه أحد رجال الدين أدلي إلى التنور. نُكِّست الرايات على جانبي التابوت حسب الأوامر. حددت طوابير المسيرة إيقاع نشيد الرفيق الميت وأزجت له آخر تحية بيمناها المرفوعة. بالإضافة إلى ذلك أطلقت وحدة الجيش نيران بنادقها على شرف الجندي الذي، كما تكشف قبل الآن، لم يجرب قط خندقاً ووفر على نفسه النيران الحامية أو «صليل السيوف»، كما ورد لدى يونغر. آه لو أنه شارك في المعركة قرب فردان وتشظى مثل قنبلة يدوية.

لأني نشأت في المدينة بين البحيرات السبع، أعرف تحت أي أساس دفن وعاء الرماد على شاطئ بحيرة شفيرين. أقيم عليه جدار من الغرانيت بعلو أربعة أمتار، أنطقته نقوش محفورة على شكل الكتابة المسمارية. وشكل مع الشواهد الأخرى نصباً حول قاعة الشرف. أنا لا أتذكر، لكن الأم تعرف بالضبط، متى أزيل في العام الأول بعد الحرب كل ما قد يذكر أهالي المدينة بالشهيد، وليس فقط بناءً على أوامر القوات السوفييتية المحتلة. لكن بالنسبة إلى نظيري المتشابك معي، كانت الحاجة تدعو إلى إعادة بناء نصب تذكاري في المكان ذاته، فقد كان يطلق على شفيرين دون كلال أو ملال اسم مدينة فيلهلم غوستلوف.

مضى كل شيء. أخذته الريح. من يعرف الآن ما كان اسم مدير جبهة العمل الألمانية؟ عندما يذكر هتلر اليوم، تستذكر أسماء كبار النازيين مثل غوبلز، غورينغ وهس. إذا طرح في مسابقة تلفزيونية سؤال حول هيملر أو آيشمان، فقد تأتي بعض الإجابات الصحيحة، لكن كثير من الإجابات المحتارة والبعيدة عن التاريخ. وستأتي مقدم البرنامج خفيف الروح الفرصة السانحة ليصفي ضياع كذا وكذا ألف مارك بابتسامة صغيرة.

لكن من يعرف في يومنا هذا، عدا المتسابق في الشبكة العالمية، من هو روبرت لاي؟ مع أنه كان الذي حل جميع النقابات بعد الاستيلاء على السلطة، أفرغ خزاناتها، احتل بيوتها بحكم المحكمة ونظم أعضاءها ـ كانوا ملايينا ـ في جبهة العمل الألمانية رغماً عنهم. هو، ذو الوجه الهلالي والغرة على الجبين، من فكر أن يأمر موظفي الدولة، ثم المدرسين والطلاب وأخيراً العاملين في جميع الشركات، بأن يؤدوا التحية اليومية بيد مرفوعة ونداء «هايل هتلر». وهو من خطرت في دماغه فكرة تنظيم عطلات العمال والموظفين وأن يمكنهم، تحت شعار (القوة من المسرة)، من القيام برحلات رخيصة في جبال الألب في بافاريا ومنطقة ارتزغبيرغه وقضاء العطلة على سواحل بحر الشرق والطمي، وأخيراً وليس آخراً أن يقوموا برحلات بحرية قصيرة وطويلة.

رجل كفاءات عالية. فقد أخذت الأمور مجراها دون وقوف أو توقف، بينما كان أمر آخر يحدث في الآن ذاته وامتلأت معسكرات الاعتقال فوجاً فوجاً. استكرى (لاي) مطلع أربع وأربعين سفينة الركاب الآلية (مونت اوليفيا) والسفينة البخارية ٤ ألاف طن (درسدن) لأسطول (قمم) الذي ينوي بناءه. كانت السفينتان معاً تستوعبان حوالي ثلاثة آلاف راكب. لكن وخلال الرحلة البحرية الثامنة لـ(قمم)، حيث كان على جمال الألسنة البحرية النرويجية أن يمتع الأبصار، شقت كتلة غرانيت تحت مائية في كارمزوند جدار السفينة درسدن شقا بلغ ثلاثين مترا، بحيث بدأت تغرق ورغم أنه أمكن انقاذ جميع الركاب، عدا سيدتين ماتتا لتوقف قلبهما عن الخفقان، إلا أن فكرة (قمم) كادت أن تنفق. لكن ليس مع لاي!

بعد أسبوع واحد استكرى اربع سفن ركاب وصار تحت تصرفه أسطول سيحمل في مجرى السنة التالية مائة وخمس وثلاثين الف مصطاف في رحلات إلى النرويج عادة، لكن سرعان ما امتدت الرحلات عبر الاطلنطي، بغية المصيف الجميل ماديرا. كان ثمن المسرة من خلال القوة أربعين مارك رايخ بالإضافة إلى عشرة ماركات ثمناً لتذكرة السفر الخاصة بالقطار حتى مرفأ هامبورغ.

باعتباري صحفياً تساءلت لدى الاطلاع على المادة المتوافرة لي، كيف تمكنت الدولة القائمة على نهب السلطة وحزبها الوحيد المتبقي في مثل هذه الفترة القصيرة، من سوق العمال والمستخدمين المنظمين رغماً عنهم في جبهة العمل ليس فقط إلى السكوت بل والى المشاركة ومن ثم إلى التهليل الجماهيري في المناسبات الرسمية؟ جزء من الجواب ينتج من نشاطات التنظيم النازي (القوة من المسرة)، الذي ماتزال البقية الباقية تحلم به سراً والأم علناً: «تغير كل شي عن قبل. أبي اللي كان عامل عادي في المنجرة اللي عنا واللي ما عاد آمن بشي، صار يحلف على اسم قه ميم ميم. لأنه صار بامكانه لأول مرة في حياته يسافر مع امي..».

عليّ أن أقرأ الآن، أن الأم قالت الكثير بصوت عال وفي المكان الخاطئ. قد تهذر دون مناسبة أو تصمت صمتاً مطبقاً. في آذار ثلاث وخمسين ـ كان عمري ثمانية أعوام وكنت طريح الفراش، مصاباً بالتهاب اللوزتين والحصبة أو الاحمرار ـ في يوم الاعلان عن وفاة ستالين، نصبت شموعاً في المطبخ وبكت بكاءً حقيقياً. لم أرها بعدها تبكي مثل ذلك البكاء. عندما اختفى (اولبريشت) من الشاشة بعد عدة سنوات، قالت عن خليفته أنه «بناء عادي». لكنها وهي المعادية عن

قناعة للفاشية، ولولت على النصب التذكاري لفيلهلم غوستلوف عندما ردم في الخمسينات وشتمت «الانتهاك الخسيس لحرمة القبور». لاحقاً، عندما جرت عندنا في الغرب الحوادث الإرهابية، قرأت في إحدى رسائلها السحرية أن (بادرماينهوف) الذي كانت تتصوره شخصاً، سقط في المعركة ضد الفاشية. لم أستطع أبداً أن أعرف تماماً مع من هي أو ضد من. إلا أن صديقتها جيني، عندما كانت تسمع بأحاديث الأم، كانت تكتفي بالابتسام: «هكذا كانت تولا دائماً. تقول ما لا يريد الآخرون أن يسمعوه. وأحياناً تبالغ قليلاً..». مثلا، فقد ادعت في اجتماع لجمعية العمال أمام الرفاق المجتمعين أنها «آخر الوفيات لستالين» وبدأت الجملة التالية بمديح جمعية قمم اللاطبقية كمثال عال للمجتمع الشيوعي.

عندما رسا قرار بناء سفينة آلية لصالح جبهة العمل الألمانية ومنظمتها الفرعية (القوة من المسرة) بكلفة تقديرية تبلغ ٢٥ مليون مارك رايخ على ترسانة بناء السفن في هامبورغ (بلوم وفوس)، لم يسأل أحد: من أين كل هذا المال؟ كانت الأرقام الأولية تشير فقط إلى ٢٥٤٨٤ طن اجمالي، طول ٢٠٨ متر، عمق بين ٦ ـ ٧ أمتار، أقصى سرعة ١٥،٥ عقدة. بالإضافة إلى ٤١٧ فردا من أعضاء الطاقم، كان على السفينة أن تأخذ على متنها ١٤٦٣ مسافراً. كانت هذه الأرقام عادية في مفاهيم ذلك الزمان لتشييد السفن. لكن وبخلاف سفن الركاب الأخرى، كان أمام الهيكل الجديد رفع كافة الفوارق الطبقية مؤقتاً بأن لا يحتوي إلا درجة واحدة للركاب، الأمر الذي عليه أن يشكل قدوة للمجتمع الألماني المرجو، حسب إرشادات روبرت لاي.

وتقرر تعميد المفخرة الجديدة لدى تدشينها باسم الزعيم. إلا أن مستشار الرايخ، مشاركاً في حفل تأبين الرفيق المغدور في سويسرا، وهو يقف جانب أرملة المفقود، توصل إلى إطلاق اسم آخر شهداء الحركة على سفينة قمم المقرر بناؤها. وعليه اتخذ اسمه بعد احراق الجثمان مكاناً له في الساحات العامة، في الطرق والمدارس في مختلف أنحاء الرايخ. بل وغيّر اسم مصنع للأسلحة ومعدات حربية أخرى ـ مصانع سيمسون في سول ـ بعد جرمنته، لعل مصانع فيلهلم غوستلوف توضع في خدمة التصنيع العسكري وأدارت منذ اثنين وأربعين فرعاً في معسكر الاعتقال في بوخنفالد.

لا أريد الآن أن أحصي كل ما سُميّ باسمه ـ على كل حال جسر غوستلوف في نورنبرغ وبيت غوستلوف للمستوطنات الألمانية في قرطبة البرازيلية ـ، بل أطرح السؤال، وأطعمت الانترنت به: «ما الذي كان سيحدث لو أن السفينة الملقاة على قاعها في هامبورغ في ٤ آب ستة وثلاثين عمدت لدى تدشينها باسم الزعيم؟»

سراعاً ما جاء الرد: «لما تمكن أحد من إغراق السفينة أدولف هتلر، لأن العناية الإلهية..»، الخ، الخ. وعليه جاءتني الخاطرة التالية: لما كان علي بالمحصلة أن أسعى في الارض كناج من كارثة نسيها العالم أجمع! لأني لو رسوت بشكل طبيعي في (فلنسبورغ) لتقطع صلتي بأمي هناك، لما كنت حالة نموذجية ولما وجدت اليوم المناسبة لالتقاط الكلمات.

«صغيري باول شي خاص جداً»، كثيراً ما سمعت طفلاً جملة الأم النموذجية هذه. لكن الأمر بدا مخجلاً عندما بدأت تنشر استثنائيتي

أمام الجيران، بل وأمام الجمعية الحزبية بلهجتها اللانغفورية: «من يوم يومه عرفت انه الصبي راح يصير شخصية مشهورة».

يا للسخرية! أنا أعرف أفقي. أنا صحفي من الدرجة المتوسطة، يقطع المسافات القصيرة بزمن معقول. ربما كنت سابقاً عظيماً في وضع المخططات ـ كتاب لم يكتب أبداً، كان عنوانه سيكون (بين شبرنغر ودويتشكه) ـ، إلا أن الحكاية لم تتجاوز التخطيط عادة. وعندما تخلت (غابي) عن تناول حبوب منع الحمل سراً وظهرت عليها علامات الحمل وجرتني خلفها إلى مكتب الزواج، تبين لي بوضوح الشمس، حالما جاء الجعور وذهبت مربية المستقبل لتتابع الدراسة: لن يطلع مني شيء بعد الآن. لن تستطيع الآن من اثبات وجودك إلا كرب منزل يبدل الأقمطة ويمسح الغبار. اكتفينا من الأماني العظام. لا أمل في من يسمح في الخامسة والثلاثين وبداية تساقط الشعر بالانخداع بطفل. الحب؟ ما هو الحب؟ الحب لا يأتي إلا في السبعين، في الوقت الذي لا يجري فيه شيء بعد.

لم تكن غابريلله، التي يسميها الجميع غابي، جميلة إلا أنها مثيرة. كانت تملك قوة جارفة وتصورت في البداية أنها ستأخذ بيدي في مشيتي المتلكئة وتعلمني مشية أغزو بها الفضاء. «حاول مرة مع قضية اجتماعية جدية، تجرأ على التسليح وحركة السلام». وأنا بدوري كرعت موعظة ملائمة، ووجد تقرير نشرته عن (موتلانغن)، صواريخ بيرشينغ ٢ والمظاهرات السلمية تجاوباً في بعض الأوساط اليسارية. لكن نفسي انقطع بعدها.

لا بد وأنها يئست مني ذات مرة. لكن ليس غابي وحدها يئست مني، بل ورأت فيّ الأم أيضاً نموذج الخائب. بعد ولادة ابننا مباشرة

وبعد أن أملت علينا الاسم برقياً: «لازم تسموه كونراد»، كتبت لصديقتها جيني رسالة لا لبس فيها عبرت فيها عن ضغينتها: «أي حمار هذا. هل ولى إلى الغرب لهذا؟ كي يخيبني؟ هل هذا كل ما يقدر عليه؟».

كان لها كل الحق فيما قالت. ظلت زوجتي التي تصغرني حوالي عشرة أعوام تجد في مسعاها، نجحت في جميع امتحاناتها، درّست في الثانوية وعينت موظفة. وأنا! بقيت ما كنت. لم يدم المرح المتشنج طويلاً، فقبل مرور سبعة أعوام انتهى ما كان بيني وبين غابي. تخلت لي عن شقة كرويتزبرغ، بالمدفأة الفحم والعطن البرليني الذي لا يتزعزع، انتقلت مع الصغير كونراد إلى غرب ألمانيا، إلى حيث كان لها أقرباء في مولن وقبلت حالا في هيئة التدريس.

مدينة صغيرة تستحم ناعمة في البحيرة وتعطي مثالاً عن الهدوء على أطراف المدن. بعز وفخار ترفع البقعة الريفية لائحة «دوقية لاونبورغ». الحياة هناك تجري على نمط الآباء والأجداد. تذكر مولن في دليل السياح بلقب (مدينة مرايا البوم). ولأن غابي أمضت طفولتها هناك، فقد شعرت للحال وكأنها في البيت.

أما أنا فقد تعثرت أكثر فأكثر. لم أستطع التحرّر من برلين. ودبرت رزقي ككاتب لوكالات الأنباء. تمكنت من نشر تحقيقات على غرار (ما هو الأخضر في الأسبوع الأخضر؟) أو (الأتراك في كرويتزبرغ) في صحيفة الأحد الانجيلية. ثم ماذا؟ بعض من حكايا الإناث المثيرة للأعصاب وعدة مخالفات سير. بعد عام من رحيل غابي جاء الطلاق.

كنت أرى ابني كونراد في الزيارات، أي نادراً وبشكل غير دوري.

شاب سريع النمو، كما رأيت، يسير في تعليمه، برأي أمه، بخطى واثقة ويعتبر ذي موهبة رفيعة وحساساً جداً. لكن عندما سقط الجدار في برلين وفتحت كوة في الحدود قرب موستين، خلف راتزبورغ بقليل، المدينة المجاورة لمولن على الطرف الآخر للحدود، أصرّ كوني على زوجتي سابقاً أن تأخذه إلى شفيرين ـ على مسافة ساعة بالسيارة ـ ليزور جدته تولا هناك.

هكذا كان يسميها، بناءً على رغبتها كما أظن. لم يتوقف الأمر عند زيارة واحدة، للأسف، كما أقول اليوم. تفاهم الاثنان من النظرة الأولى. حتى في ذلك الأوان، عندما كان كوني يبلغ العاشرة، كان يحكي كلام الحكماء. أنا واثق من أن الأم دوخت رأسه بحكاياتها، التي لم تكن ساحتها باحة النجار في شارع الزن في لانغفور فقط. لا بد أنها لفظت كل شيء، حتى مغامراتها وهي جابية للتراموا‌ي في سنة الحرب الأخيرة. ولا بد أن الولد امتص نقيقها كما الاسفنج. وطبعا أطعمته بقصة السفينة الغارقة أبداً. مذاك غدا كوني، أو «صغيري كونراد» كما تسميه الأم، أملها العظيم.

في تلك الفترة كانت تأتي كثيراً إلى برلين، بدت مستمتعة بسفرها في عربتها (ترابي) وهي متقاعدة. لكنها كانت تتنقل فقط لترى صديقتها جيني، أنا كنت مسألة جانبية. هل كان هذا موعداً جديداً؟ سواء في كوخ العرائس الذي تقطنه الخالة جيني أو في شقتي البالية في كرويتزبرغ، كانت تتحدث فقط عن صغيرها كونراد وفرحها المتأخر. يا لفرحتها لأنها تستطيع الآن أن تعنى به أكثر وأكثر بعد أن حلت المنجرة التعاونية. طبعاً بمساعدتها، ما يجدر ذكره. كانت تقول أنها تقدم العون طواعية كي تمضي الحياة نحو الأمام. هناك من يحتاج مشورتها. أما فيما يتعلق بحفيدها، فلديها الكثير من الخطط.

لم يتبق لدى الخالة جيني ما تعارض به هذه الطاقة الفائضة إلا ابتسامتها المتجمدة. أسمعتني: «صغيري كونرد راح يصير شغلة كبيرة. مو واحد خيبان متل حكايتك». قلت: «معك حق يا أم. لم يطلع مني شيء ولن يطلع أيضاً. لكن كما تشاهدين، فانا أتطور ـ إذا كان هذا تطورا ـ لأشعل سيكارة من سيكارة».

مثل اليهودي فرانكفورتر، أضيف اليوم إلى مقالي، الذي كان يشعل السيكارة من عقب الأخرى وعلي أن أكتب عنه الآن لأن الطلقات أصابت هدفها، لأن الهيكل الجديد الملقى على قاعه ارتفع في هامبورغ، لأن الضابط الملاح مارينسكو كان يخدم في غواصة في البحر الأسود تفيد في مياه السواحل.؟ ولأن قاتل ألماني الرايخ فيلهلم غوستلوف ذي الأصول اليوغوسلافية مثل أمام محكمة الكانتون السويسري في ٩ كانون الأول ستة وثلاثين.

في محكمة كور انتصب ثلاثة خفراء في ثياب مدنية بين منصة القاضي ومقعد المدعى عليه الذي كان جالساً في حيز ضيق بين شرطيين. كانوا يراقبون الحضور والصحفيين المحليين والأجانب، حسب أوامر شرطة الكانتون، خشية وقوع اعتداء من قبل جهة من الجهات.

اضطرت السلطات إلى نقل المحاكمة من قاعة محكمة الكانتون إلى صالة مجلس غراوبويندن الصغيرة، لاحتشاد الألمان القادمين من الرايخ. حمل سيد طاعن في السن بذقن مدببة، المحامي (اوجين كورتي)، مسائل الدفع على عاتقه. كان ممثل الدعوة العارضة، أرمل القتيل، البروفسور الشهير (فريدريش غريم)، الذي لفت إليه الانظار بعد الحرب مباشرة بمعجمه (القضاء السياسي، مرض عصرنا). لهذا

لم استغرب عندما وجدت طبعة جديدة للكتاب سوقها ارنست تسويندل، المتطرف اليميني الكندي ألماني الأصل، لا بد أن رسالة الكفاح هذه اختفت الآن من الأسواق. لكنني رغم ذلك واثق أن أستاذ الشبكة العالمية من شفيرين ضمن لنفسه نسخة منه في الوقت المناسب، فإن صفحاته كانت منقوشة باقتباسات عن (غريم) وردوده المتحاملة على مرافعة محامي الدفاع (كورتي) المملة ـ أقرّ بذلك. وكأن المحاكمة ستجرى من جديد، لكن هذه المرة على مسرح عالمي متخيل، ممتلئ على آخره.

كشفت لي أبحاثي اللاحقة أن المكافح الأوحد استغل جريدة (المراقب الشعبي). فأغلب الظن أن الخبر العارض: إن الحاضرين من ألمان الرايخ، بعض السويسريين المتعاطفين والصحفيين القادمين من الرايخ أزجوا للسيدة هيدفيغ غوستلوف، عندما دخلت قاعة المحكمة في اليوم الثاني في ثياب الحداد، التحية الهتلرية وقوفاً، من (صحيفة الحركة القومية الاشتراكية الألمانية). أبدت صحيفة المراقب الشعبي حضورها، ليس فقط أثناء أيام المحاكمة الأربعة، التي يجوز تسميتها التاريخية، بل وأيضاً في الانترنت، فمقاطع رسالة الأب الصارم إلى ابنه الضائع المنشورة في الشبكة، اقتطعت أيضاً من صحيفة الكفاح ذاتها، لأن هيئة الادعاء اقتبست رسالة الأب الرابي: «لم يعد لي فيك أمل. أنت لا تكتب إلينا. والآن لم تعد هناك الحاجة لأن تكتب بعد. .» أمام الهيئة القضائية شهادة على قسوة قلب المدعى عليه، الذي لا بد وأن أجيز له، هو المدخن الفظيع، أن يدخن سيكارة أو أكثر في الاستراحات.

بينما كان ضابط الغواصة مارينسكو إما في أعالي البحار أو مجازاً

في مرفأ البحر الأسود، سفاستوبول، ولهذا سكرانَ طوال ثلاثة أيام، اتخذ البناء الجديد المنصوب على قاعه في هامبورغ هيكله، هنا كانت الأزاميل تعزف موسيقاها ليلاً نهاراً، وكان المدعى عليه دافيد فرانكفورتر يجلس أو يقف بين شرطيي الكانتون. اعترفَ بطلاقةٍ وبهذا قطع الحبل على عنصر التشويق. كان يصغي قاعداً ويتكلم واقفاً: قررت، اشتريت، تمرنت، سافرت، انتظرت، وجدت، دخلت، جلست، أطلقت النار خمس مرات. قدم اعترافاته متحدياً ومتلعثماً أحياناً. تقبل الحكم، لكن جاء في الانترنت «معولا».

لأن عقوبة الاعدام في كانتون غراوبويندن كانت ممنوعة، فقد طالب البروفسور غريم متحسراً بإنزال أقصى العقوبات: السجن المؤبد. كانت معلومات الاونلاين الواردة حتى النطق بالحكم - ثماني عشرة سنة متبوعة بالطرد من البلاد - متحيزة كلياً لصالح الشهيد، لكن في هذه اللحظة انشق استاذ الشبكة العالمية عن جمعية أصدقاء شفيرين. أم جاءه فجأة ضيوف؟ هل اقتحم ذلك النقاق المدعي الساحة من جديد؟ على كل حال ظهرت أدوار المشاجرة.

مثل تلك المناظرة، القائمة بين الحين والآخر من بين الأموات، شخصان، أحدهما عرض نفسه باسم فيلهلم رئيس اللجنة المحلية والآخر باسم دافيد المعوق عن الانتحار.

وكأن هذه المشاجرة تجري في العالم الآخر، لكنها اتخذت مع الضربات الموجعة طابعاً أرضياً بحتاً. اجترت الجريمة ودوافعها بين الديكين المتناحرين، القاتل والقتيل، وبينما كان أحدهما ينشر دعايته ويعلن أن أعداد العاطلين عن العمل في الرايخ انخفضت بمقدار ٨٠٠ ألف عن السنة الفائتة إبان المحاكمة ويتحمس لهتافاته: «الفضل في

كل هذا يعود إلى الزعيم»، كان الآخر يحصي مدعياً عدد الأطباء والمرضى الذين طردوا من المشافي والمنتجعات ويقول إن النظام النازي دعا منذ ١ نيسان ثلاث وثلاثين إلى مقاطعة اليهود وعليه عُلّمت واجهات المحلات اليهودية بالشعار التحريضي: «ليفطس اليهود». هكذا سارت الأمور. وإذ يلقي فيلهلم اقتباسات من كتاب الزعيم «كفاحي» في الشبكة ليدعم نظريته حول ضرورة الحفاظ على نقاء العرق الآري والدم الألماني، كان دافيد يرد بمقتطفات من «جنود المستنقع»، التقرير الذي نشره أحد المعتقلين السابقين في معسكرات الاعتقال لدى دار نشر المهاجرين.

كان الشجار مريراً، حاداً ودموياً. إلا أن الوطيس برد فجأة وبدأ الاثنان يتحاوران. وإذ سأل فيلهلم: «قل لي لماذا أطلقت النار علي خمس مرات»، كان جواب دافيد: «آسف، كانت الرصاصة الأولى خلبية. ثقبتك أربع مرات فقط». فيلهلم: «صحيح، لكن من أعطاك المسدس؟»، دافيد: «اشتريته. بثمن بخس. عشرة فرنكات». فيلهلم: «سعر رخيص جداً لسلاح الواحد مستعد يدفع فيه خمسين فرنك». «فهمت. تقصد أن أحدهم أهداني إياه، صحيح؟». «بل انا متأكد أنك كلفت باطلاق النار». «ها ها بأمر من اليهودية العالمية!». هكذا جرى الحوار الالكتروني في الأيام التالية أيضاً. ما إن يرهق أحدهما الآخر، حتى تبدأ الفكاهة، وكأنهما صديقان يتمازحان. وقبل أن يتركا المنتدى كانا يتوادعان: «باي أيها الخنزير النازي المستنسخ» و«سلام يا يهودي». وكلما حاول أحد ما من أقصى جزر الباليرأو أوسلو أن يتدخل في حوارهما الثنائي، كانا ينهرانه: «انقلع» أو «تعال لاحقا».

يبدو أنهما كانا لاعبي كرة الطاولة، فقد أبديا إعجاباً مشتركاً ببطل

البينغ بونغ الألماني (يورغ روسكوبف) الذي، كما كتب دافيد، تغلب على أحد أبطال الصين. كان الاثنان يزعمان أنهما مع fairplay. وبرهنا على أنهما عالمان يمدح أحدهما علوم الآخر: «عظيم، من أين حصلت على هذا المقطع من غريغور شتراسر» أو «ألم أقل لك يا دافيد أن هيلدبراندت تم تسريحه من قبل الزعيم بسبب بعض الميول اليسارية، ثم تم تعيينه مرة أخرى نزولاً عند رغبة أهالي مكلنبورغ الشجعان؟».

ربما كان للمرء أن يتصورهما صديقين في مساعيهما للخلاص من حقدهما المتبادل كإثم. رد دافيد بسرعة على سؤال فيلهلم في المنتدى: «هل ستطلق علي النار مرة أخرى إذا أعادني الزعيم إلى الحياة؟»، بـ«لا هذه المرة يحق لك أن تبخشني».

وكأن شيئاً ما انكشف لي فجأة، وللحال تخليت عن تصوراتي بأنه استاذ وحيد ماهر في لعب العديد من الأدوار. قلت هما مهرجان يلعبان لعبة دموية جادة.

لاحقاً عندما تظاهر جميع المتورطين في القضية بالبراءة وادعوا اندهاشهم، قلت للأم: «كان عندي احساس غامض. منذ البداية سألت نفسي عن سبب جنون شباب اليوم بغوستلوف وكل ما يتعلق به. منذ البداية كان واضحاً لي أن هؤلاء ليسوا مخرفين يقضون الوقت في الانترنت، دعيني أقول أبناء البارحة الأبديين مثلك..».

لم ترد عليّ الأم بشيء. اصطنعت، كما تفعل دائماً كلما شعرت بشيء يداهمها، سحنة «ماني هون»، هذا يعني أنها تزيغ مقلتيها إلى اقصى الحدود. في كل الأحوال كانت متأكدة من أن هكذا شيء حدث فقط لأن المرء ظل طوال عقود «ما كان مسموح له يحكي عن

كوستلوف. عنا في الشرق هيك وهيك. وعندك في الغرب، إذا حكوا عن قبل، كانوا بيحكوا عن شغلات فظيعة تانيه، عن اوشفيتز وهيك شغلات. يا ربي! قديش انزعجوا عنا في الجمعية الحزبية لما قلت شي ايجابي عن سفن قه ميم ميم وقلت ان كوستلوف سفينة ما كان فيها طبقات..».

وللحال أمسكت بتلابيب ماما وبابا في طريقهما إلى النرويج: «امي ما قدرت تحصّل شي لأن كل الركاب صارو بين بعضهن في صالة الأكل عمال عاديين متل أبي بس كمان موظفين ورفاق حزبيين كبار. تقريبا متل عنا في الشرقية بس على أحلى..».

كانت السفينة اللاطبقية سبقاً حقيقياً. ولأجل هذا، كما أعتقد، هلل عمال الترسانة عندما انزل الهيكل الجديد، بارتفاع ثمانية طبقات، في ٥ أيار سبع وثلاثين إلى الماء. لم يكن ينقصها إلا المدخنة وغطاء قمرة القبطان ومقود الربان. هامبورغ بأجمعها كانت مهتاجة، مئات الآلاف من البشر. لكن عدد المدعوين لتعميد السفينة لم يتجاوز العشرة آلاف من الذين دعاهم لاي شخصياً.

وصل قطار هتلر الخاص إلى محطة (دام تور) في الساعة العاشرة صباحاً. ثم انطلق في عربة مرسيدس مفتوحة بذراع ممدوة حيناً وملتفة حيناً آخر. عبر شوارع هامبورغ وعبر تمجيد الجماهير طبعاً. نقلته طرادة من جسور الرصيف إلى الترسانة. كانت جميع السفن في المرفأ، والأجنبية بينها، ترفع الرايات. كان اسطول قمم المؤلف من سفن مستأجرة، ابتداءً ب(سيرا كوردوبا) وانتهاءً ب(سانت لويس)، مهيأة أمام المرساة بأعلام على السواري.

لا أريد أن أحصي هنا كم من الطوابير سارت في المسيرات

الشعبية، كم من الرجال فرقع بعقبيه تحية وترحيباً. عندما صعد الزعيم السلم، كان عمال الترسانة يتزاحمون أسفل منبر التعميد. كان أغلبهم قد اعطى صوته في الانتخابات الأخيرة قبل أربعة أعوام للاشتراكيين؟ والشيوعيين. الآن لا يوجد غير الحزب الواحد الأوحد والزعيم حاضر بلحمه وشحمه.

التقى الأرمل لأول مرة على منبر التعميد. كان يعرف هيدفيغ غوستلوف منذ أيام النضال الأولى. فقد كانت سكرتيرته قبل فشل الهجوم الدامي على (فيلد هرن هاله) في ميونيخ عام ثلاث وعشرين. لاحقاً، عندما كان سجين حصن (لاندسبرغ)، كانت هي تبحث عن عمل في سويسرا ووجدت زوج المستقبل.

من صعد أيضاً إلى المنبر؟ مدير الترسانة، مستشار الدولة (بلوم) ورئيس خلايا العمل (باولي). طبعاً بجواره كان روبرت لاي، لكن وكبار الحزبيين أيضاً. كالمدير الاقليمي لهامبورغ، (كاوفمان) كما وشرف آل هيلدبراندت من شفيرين ـ مكلنبورغ الحضور. مثّل القوات البحرية الادميرال (ريدر) ولم يجزع رئيس اللجنة المحلية لـ ح.ع.أ.ق.ا من تكلف مشقة السفر من دافوس.

ألقيت الخطابات، أما هو فقد كبح جماح نفسه. بعد كاوفمان، تحدث مدير ترسانة (بلوم وفوس): «في حضوركم أعلن سيادة الزعيم، باسم الترسانة: سفينة الاصطياف، رقم ٥١١، جاهزة للتدشين».

جرة قلم على كل شيء آخر. لكن ربما وجب أن أنتقي بعض الفقرات من خطاب (روبرت لاي). كانت مقدمة الخطبة «الإنسان الألماني». ثم مجد فكرته العظيمة (القوة من المسرة) ليأتي في النهاية

على ذكر ملهمها: «أمرني الزعيم آنئذ [اعمل على أن يحصل العامل الألماني على عطلته، كي يحافظ على أعصابه. سواء ما أمسكت وأهملت، فلا خير فيه إن لم يحافظ الشعب الألماني على هدوء أعصابه. المهم المهم أن تكون الجماهير الألمانية، أن يكون العامل الألماني قوياً بما فيه الكفاية ليدرك ما أقول]».

عندما أنهت الأرمل التعميد بكلماتها: «أعمدك باسم فيلهلم غوستلوف»، علت هلاهيل الجماهير المالكة أعصابها رنين تشظي زجاجة الشامبانيا على مقدم السفينة. أنشد النشيدان بينما ينفك الهيكل الجديد من المرساة. لكن غرق السفينة المعمدة في طقس أيار الجميل وباخرة العباب يغبش أمام عيني، أنا الناجي من كارثة غوستلوف، كلما حضرت تشييداً كصحفي أو شاهدته في التلفاز.

في نفس الوقت تقريباً، عندما كان دافيد فرانكفورتر يقضي يومه سجينا في سجن (زنهوف) في (كور) وتشظت زجاجة الشامبانيا، كان الكسندر مارينسكو إما في لينينغراد أو في (كرونشتادت) حسب التعليمات. وفي كل الأحوال تم نقله إدارياً من البحر الأسود إلى الناحية الشرقية لبحر الشرق. ففي الصيف وأثناء عمليات التطهير التي أمر بها ستالين ولم تعف أدميرالية أسطول البلطيق، أصبح قائداً لإحدى الغواصات.

تنتمي M96 إلى طراز قديم، مخصص للتنقلات والقتال في مياه السواحل. ومن المعلومات التي حصلت عليها أقرأ أن M96، بإزاحة مائتين وخمسين طنا وطول خمس وأربعين متراً، كانت أقرب إلى القارب الصغير يبلغ تعداد طاقمه ثمانية عشرة رجلاً. طويلاً ظل مارينسكو قائداً لهذه الوحدة البحرية العاملة حتى خليج فنلندا والمزينة

باسطوانتي طوربيد فقط. أظن أنه كان يقضي الوقت متدرباً على الهجوم السطحي والغطس السريع.

# ٣

بينما عمليات البناء الداخلية تجري على قدم وساق، ابتداءً من الطابق الأدنى حتى السطح، المدخنة، قمرة القبطان وبرج الإشارة، وبينما كانت التدريبات على الغطس تجري بمحاذاة الساحل البلطيقي، كان أحد عشر شهراً قد مضت على السجن. في هذا الوقت فقط تمكنت السفينة من رفع مراسيها وأبحرت باتجاه جزيرة البا في رحلة تجريبية صوب بحر الشمال. إذاً سانتظر حتى يمشي الزمن الروائي بعد تضييع ثواني الحاضر. أم علي أن أخاطر بنزاع مع من لا يمكن تجاهل نقّه؟

إنه يطالب بذكريات واضحة. يريد أن يعرف مثلاً، كيف كانت مشاعري تجاه الأم بعد الثالثة من عمري، كيف كنت أراها، أشمها، أتلمسها. يقول: «تحدد الانطباعات الأولى الحياة التالية». أقول: «ليس هناك ما أتذكره. عندما كنت في الثالثة، كانت قد انهت تعلم صنعة النجار للتو. حسناً، مازالت النشارة وقطع الخشب التي تجلبها لي من الورشة تمثل أمام عيني وهي تتكوم في أبراج وتنهار. نعم كانت ألعابي شظايا وقرمات. ثم ماذا؟ كانت الأم تفوح برائحة الغراء. حيثما وقفت، جلست، أكلت، استلقت - إلهي، يا لسريرها! - تشبثت تلك الرائحة. ولعدم وجود مذود، فقد ألقيت بدءاً لدى إحدى

الجارات، ثم في روضة أطفال. هكذا كانت حال الأمهات العاملات في دولة العمال والفلاحين كلها، وليس فقط في شفيرين. أستطيع تذكر السمينات والنحيفات من الإناث اللواتي كن يوجهننا، وكذلك عصيدة الجريش التي تقف فيها الملعقة وقوفاً».

لكن شذرات الذكريات هذه لا تشفي غليل العجوز، فلا يتراخى في الضغط علي: «كان لتولا بوكريفكه ابنة العاشرة في زمني ذاك سحنات صفحة مليئة بعلامات الترقيم، لكن كيف كانت تبدو عندما كانت شابة ونجارة، منذ العام خمسين مثلاً، عندما كانت في الثالثة والعشرين من عمرها؟ هل كانت تضع مساحيق التجميل؟ هل كانت تضع غطاء الرأس أم تقبع على غرار الأمهات تحت قبعة عريضة؟ هل كان شعرها مرسلاً، أم أنها كانت تجعده؟ هل كانت تسير بلفافات الشعر في أمسيات عطلة نهاية الأسبوع؟».

لا أعرف ما إذا كانت معلوماتي ستريح باله! صورة الأم عندما كانت شابة تتراءى لي في منتهى الوضوح، لكنها معتكرة في الآن ذاته. لا أعرفها إلا بيضاء الشعر. منذ البداية كانت بيضاء الشعر. لم يكن شعرها فضياً، إنما ببساطة أبيض. وإن سأل أحدهم الأم عن السبب، كان يسمع الجواب: «صار هالشي لما ولد ابني. وبالتحديد على الطوربيد اللي انقزنا..»، وأما من كان مهيأً لسماع المزيد، كان سيعلم أنها كانت في كذا وكذا في كولنبرغ عندما ترك الناجيان، الأم ورضيعها، قارب الطوربيد لوفه، بيضاء ناصعة. وقتها كان شعرها متوسط الطول. لكن سابقاً، عندما لم يكن شعرها قد ابيض بعد «كأنه بأمر من أعلى المراكز»، كان أقرب إلى الشقرة، مائلاً إلى الحمرة ويصل كتفيها.

ورداً على أسئلة أخرى - عزيمته لا تثبط أبداً - أوكد لرب عملي أني لا أملك إلا صوراً قليلة للأم من الخمسينات. ففي إحداها يرى المرء كيف قصرت شعرها الأبيض بطول أعواد الثقاب. كان يخشخش كلما مسدته، الأمر الذي تسمح لي به بين حين وآخر. ومازالت هكذا حتى في هرمها. كنت للتو بلغت السابعة عشر عندما ابيضت. «هراء لم تصبغ الأم شعرها قط، لا ولا سمحت أن يصبغ. لم يرها أحد أترابها بشعر أزرق كالح أو أحمر غامق».

«وماذا بعد؟ ما هي الذكريات الأخرى؟ عن الرجال مثلاً؟ هل كان هناك رجال في حياتها؟». المقصود أولئك الذين قضوا ليلهم معها. لأن تولا بوكريفكه كانت كامرأة مربوعة مجنونة بالرجال. كان الشبان يحيطون بها في كل مكان. سواء في مسابح (بروزن) أو عندما كانت تؤدي وظيفتها جابية للتراماوي بين دانتسيغ، لانغفور واوليفيا. لكن كان هناك رجال حقيقيون أيضاً، جنود مجازين من الجبهة مثلاً. «هل ظهرت نزوتها الرجالية لاحقاً، عندما صارت بشعر أبيض؟».

كيف يفكر هذا العجوز؟ هل يعتقد أن الأم، لمجرد أن الصدمة بيضت شعرها، عاشت حياة الراهبات؟ كان هناك كفاية من الرجال دائماً. كان أحدهم عامل بناء لطيفاً جداً. كان يأتي معه بكل ما ندر في السوق: سجق الكبد مثلاً. كنت في العاشرة عندما كان يجلس عندنا في الباحة الخلفية، شارع ليم ٧، في المطبخ ويطقطق بحمالات بنطاله. كان اسمه يوخن ويحلف إلا أن يرقصني على ركبتيه. كانت الأم تسميه «يوخن اتنين»، لأنها، هي المربوعة، كانت قد عرفت تلميذاً في المدرسة العليا اسمه أيضا يواخيم ويلقب بيوخن: «بس هو ما كان بدو مني شي. ما لمسني حتى ولو لمسه..».

ستكون الأم طردت يوخن الثاني ذات مرة، لا أعرف لماذا. وعندما كنت في حوالي الثالثة عشر، كان أحد رجال الشرطة الشعبية يأتي بنهاية الخدمة وأحياناً في الآحاد أيضاً. كان مساعداً وساكسونياً. كان يأتي معه بمعجون الأسنان الغربي، كولجاته، وأشياء أخرى مصادرة. وهو الآخر كان يسمى يوخن، ما دعا الأم إلى أن تقول: «بكرا راح يجي رقم تلاتى. خليك لطيف معو إذا اجا ها..». سدت الأم الباب بوجه يوخن الثالث أيضاً، لأنه كما قالت «العياز بالله، كان بدو يتجوز..».

لم تبغ أزواجاً. «انت بتكفيني وزياده..»، قالت عندما كنت في الخامسة عشرة وقرفت من كل شيء. ليس من المدرسة، حيث كنت، عدا في الروسية جيداً جداً. لكن كل شيء آخر كان يقززني: النطنطة لدى منظمة الشبيبة الألمانية الحرة، قطف المحاصيل، أسبوع العمل الطوعي، أناشيد البناء الأبدية وحتى الأم كانت تقززني. لم أعد قادراً على الانصات عندما كانت، خاصة أيام الآحاد، تبسط حكاياتها عن السفينة غوستلوف مع الكفتة والبطاطا المهروسة: «فجأة انقلب كل شي. هيك شي الواحد ما بينساه. ما بيوقف. انا ما عم بحلم بس، لما خلص كل شي، كيف طلعت صيحة وحيدة وغطت المية. ويا ويلي كل هالصغار بين قطع الجليد..».

أحيانا كانت الأم، جالسة إلى مائدة المطبخ مع دلة القهوة، تقول: «في الحقيقة كانت سفينه حلوه» ولا تلفظ بعدها حرفا. لكن سحنة «ماني هون» كانت تقول الكثير الكثير.

يجوز. كانت السفينة غوستلوف من مقدمها إلى مؤخرتها، عندما سارت في فخامتها البيضاء أولى رحلاتها، حدثا يسبح. حتى أولئك

الذين لعبوا بعد الحرب دور المعادين للفاشية منذ البدء، كانوا يقولون مثل ذلك. أما الذين سمح لهم بركوب متنها، فقد كانوا ينزلون منها وكأنما أوحي بهم.

وحتى أثناء رحلتها التجريبية التي دامت يومين، في جو عاصف، أخذت على ظهرها عمال ومستخدمي شركة بلوم وفوس وعلاوة عليهم البائعات في الجمعية الاستهلاكية في هامبورغ. إلا أن السفينة عندما مخرت عباب البحر في رحلة دامت ثلاثة أيام في ٢٤ آذار ثمانية وثلاثين، كان على متنها ألف نمساوي من الذين غربلهم الحزب، ففي بحر أسبوعين كان على شعب الحدود الشرقية أن يدلي بصوته فيما سبق للجيش أن أنجزه بتدخله السريع: ضم النمسا. في الوقت ذاته جاءت ثلاثمائة فتاة من هامبورغ ـ عضوات رابطة الصبايا الألمانيات ـ وأكثر من مائة صحفي على متن السفينة.

من باب التسلية ولأختبر نفسي، أحاول أن أتصور الآن كيف كان شخصي المتواضع تصرف كصحفي، عندما أعلن عن استقبال الصحفيين في ردهة الاحتفالات والسينما على السفينة. رغم أنني، كما تقول الأم وتعرف غابي، لا أعد من الأبطال، إلا أنني ربما كنت مرحاً وتساءلت عن تمويل الهيكل الجديد وثروة جبهة العمل الألمانية. فلكان لي على غرار الصحفيين الآخرين أن أعرف أن لاي، ذلك الوغّاد المتوقد، تمكن من تلك القفزات السريعة فقط بمساعدة أرصدة جميع النقابات الممنوعة المستولى عليها.

هل هي محاولة متأخرة لعرض العضلات؟ نبست، كما أعرف نفسي، بالسؤال المتشابه عن رأس المال الباقي ولكان الدليل السياحي على ظهر قمم، الذي لا يغالط أبداً، أجابني سراعاً: جبهة العمل

الألمانية، كما ترون، تسبح في النقود. خلال أيام قليلة فقط سيتم تدشين سفينة آلية كهربية وتُعمّد باسم روبرت لاي، كما يمكن للمرء أن يتوقع منذ الآن.

ثم بدأ استعراض السفينة أمام قطيع الصحفيين المصطفى. ولكنت حتى أنا أيضاً، الذي لم يكشف في حياته كلها عن فضيحة، لم يعثر على جثة في قبو ولم يكتشف تبرعات مشبوهة ولا وزراء مرتشين، سددت فمي كصحفي متراجع. لكان علينا فقط أن نبدي اعجابنا متنقلين من طابق لطابق، إلا بالحجرات الخاصة بهتلر ولاي التي لم يسمح باستعراضها. ولو أني أعرف التفاصيل من خلال الصور والمادة المتوافرة لدي، إلا أنه يبدو لي أني كنت سأرافق الآخرين بدهشة وعرقي يسيل جبناً في الآن ذاته.

شاهدت السطح الواسع، المجرد من بقايا مواد البناء. شاهدت أكشاك الاستحمام والمرافق الصحية. شاهدت ودونت بهمة. تمكنا لاحقاً من أن نمتع أبصارنا بالجدران اللماعة النقية وموائد شجر الجوز في غرف الشركة في طابق التنزه. باستغراب شاهدنا صالة الاحتفالات والرواق الفخم، رواق ألمانيا والموسيقى. في جميع الردهات كانت صور الزعيم تزين الجدران، هو المتطلع من فوق رؤوسنا، لكن بحزم إلى المستقبل. في بعض الردهات كانت صور صغيرة لروبرت لاي. لكن الزركشة الأعظم كانت في أغلبها من رسوم الريف الزيتية على نمط القرون الوسطى. سألنا عن أسماء الفنانين المعاصرين ودوّنا ملاحظاتنا.

عندما دعينا بين الحين والآخر إلى كأس من البيرة المنعشة، تعلمت أن أتفادى الكلمة المنحطة «بار» وكتبت لاحقاً، حسب

القاموس الالماني القديم، عن «الحانات السبع المريحة» على متن سفينة قمم.

ثم جاء دور الأرقام. ولأذكر: بامكان أحدث مكائن التنظيف جلي ٣٥٠٠٠ صحن جلاءً ناصعاً في الطابق الأول. علمنا أن احتياطي الماء في كل رحلة يبلغ ٣٤٠٠ طناً من مياه الشرب التي تحفظ في خزان خاص داخل المدخنة. عندما استطلعنا الطابق الأدني، حيث فرشت بنات رابطة الصبايا الألمانيات من هامبورغ، أسرة «بيت الشباب» كما يسمى، بشراشف بيضاء، شاهدنا المسبح الذي يسع حوضه لستين طناً من الماء في الطابق ذاته. وكثير من مادة الأرقام ما لم أدونه. سرّ بعضنا بأن وفر عليه ذكر أعداد البلاطات وجزيئات الموزاييك، المسكونة بحوريات البحر وحيواناته الخرافية الأخرى.

فقط لأني أعرف منذ طفولتي التي قدرتها الأم أن الطوربيد الثاني حوّل المسبح وبلاطاته وموزاييكه إلى نثار نثير، لربما خطر في بالي عطفاً على حوض السباحة، الذي كان سرب لحمي من الفتيات يستجم فيه، السؤال عن عمق المسبح تحت سطح الماء. ولربما وجدت قوارب النجاة الاثنينِ والعشرين على السطح الأعلى غير كافية. لكني لم أتعقب السؤال، لم اعزم الكارثة، لم أتنبأ بما حدث في سبع سنين تالية في ليلة صقيعية من ليالي الحرب، عندما لم يكن على ظهر السفينة، كما هو مقدر، حوالي ١٥٠٠ راكب مستريح من أعباء الهم اليومي، إنما حوالي عشرة آلاف نفس تشعر بنهايتها القريبة ولم ينج منها إلا ما يعد ويحصى، بل صفرت، سواء كصحفي لدى «المراقب الشعبي» أو كمراسل لـ(فرانكفورتر تسايتونغ) المستقيمة، نغمات نشيد خافت على شرف قوارب النجاة الملقاة كزينة، وكأنها

أغنية إضافية قدمتها منظمة القوة من المسرة. بعد قليل من الزمن سينزل أحد القوارب إلى الماء. ثم قارب آخر. ليس من باب التمرين.

خلال رحلتها الثانية، صوب طريق (دوفر) هذه المرة، دخلت غوستلوف اعصاراً شمالياً غربياً واستقبلت بينما هي تمخر بكل قواها في البحر المضطرب، استغاثة النجدة من السفينة التجارية الانكليزية pageway، التي حطمت فتحة الشحن فيها وتكسرت دفتها. وللحال أمر القبطان (لوبيه)، الذي توفي بسكتة قلبية في انطلاقة الرحلة التالية، التي كان هدفها جزر ماديرا الاسبانية، بادارة الدفة باتجاه مكان الحادث. وبعد ساعتين كشفت الكشافات الضوئية عن السفينة المنخسفة pageway. في الصباح الباكر فقط تمكن البحارة من إنزال أحد قوارب النجدة الاثنين والعشرين إلى الماء رغم شدة الاعصار، لكن زوبعة صدمته بجدار قاع السفينة وألحقت به أفدح الأضرار. فوراً أمر القبطان باطلاق زورق كهربي، تمكن بعد عديد من المحاولات من انقاذ تسعة عشر بحاراً إلى بر الأمان في العاصفة التي هدأت في هذه الأثناء. وبالنهاية أمكن أيضاً رؤية قارب التجذيف المعطل وانقاذ طاقمه الضائع.

كتب عن ذلك الكثير. قرّضت الصحف المحلية والأجنبية عملية الانقاذ. لكن (هاينز شون) هو الوحيد الذي قام بهذا تفصيلياً ومن وجهة نظر موضوعية. قام هو، كما أفعل أنا الآن، بتقييم أكوام التقارير الصحفية من ذلك العهد. سيرته مرتبطة مثل سيرتي بسفينة التعاسة هذه. قبل سنة واحدة تقريباً على نهاية الحرب، جاء للعمل مساعداً لرئيس الصرافين على السفينة غوستلوف. كان يريد أصلاً

الالتحاق بالأسطول الحربي بعد نجاحه الساحق لدى بحرية شبيبة هتلر، لكنه فرز لضعف نظره على رصيد الأسطول التجاري. ولأنه نجا من غرق سفينة الركاب، ثم سفينة نقل الجرحى، ثم السفينة الثكنة وأخيراً سفينة نقل الفارين، فقد بدأ بعد الحرب بجمع جميع المعلومات المتعلقة بالسفينة غوستلوف في أوقات السعد والنحس وتسجيلها. لم يكن يعرف إلا هذه الموضوعة، أو أن هذه كانت الموضوعة الوحيدة التي سلبت لبه.

لهذا فأنا واثق أن الأم كانت ستجد فرحة في هاينز شون منذ البداية. لكن كتبه التي وجدت من ينشرها في الغرب لم تكن مرغوبة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. دهش كل من قرأ تقاريره. لكن معلومات شون لم تجد اهتماماً، لا هنا ولا هناك.

حتى فيلم «الليل يهبط على غوتنهافن» الذي صُوّر بنهاية الخمسينات اعتماداً على مشورته، لم يُحدث دوياً في الأوساط الجماهيرية. ورغم ظهور تقرير وثائقي في التلفزيون في الفترة الأخيرة، إلا أن الأمور بقيت وكأن أثر التيتانيك يتجاوز كل أثر، وكأن السفينة غوستلوف لم تُوجد أبداً، وكأنما يجوز استعادة ذكرى أولئك الموتى وأما ذكرى هؤلاء فلا تجوز.

لكنني أنا أيضاً دهشت، أمسكت عن الكلام، وفرت على نفسي المتاعب وانتظرت الإرغام. إن كنت أشعر بنفسي الآن كناجٍ قريباً بعض الشيء من هاينز شون، فذلك لأني استطيع الانتفاع بشغفه. فقد أدرج كل شيء في جداول: عدد الكابينات، كميات المؤن الهائلة، سعة السطح الأعلى بالكيلومترات المربعة، أعداد قوارب النجاة اللازمة والمتوافرة بالمحصلة على السفينة وأخيراً أعداد الموتى والناجين

المتصاعدة من طبعة لأخرى. ظل جهده التجميعي لفترة طويلة في الظل، لكن هاينز شون الأكبر سناً من الأم بسنة واحدة والذي أتمناه أبا لي ـ لأرح ضميري ـ يُقتبس الآن أكثر فأكثر على صفحات الانترنت.

هناك جرت من فترة قريبة جداً أحاديث، كأغنية لاستثارة العواطف، عن الفيلم الذي خرج طازجاً من أفران هوليود، غرق التيتانيك، والذي سوق كأكبر كارثة سفن على مدى الدهر. كانت أرقام هاينز شون المقتبسة أعلاه تكذب هذا الهذيان. وطبعاً كان للفيلم صداه، فمنذ بدأت غوستلوف تسبح في بحار cyberspace وتجر خلفها أمواجا متخيلة، ظهر الوسط اليميني على الاونلاين بصفحات الكراهية والحقد. افتتح حفل مطاردة اليهود. وكأن جريمة القتل في دافوس حدثت أمس، يطالب اليمينيون المتطرفون على صفحاتهم بـ«الثأر لفيلهلم غوستلوف». تأتي أحد أقوى الأصوات ـ طائفة تسويندل ـ من أمريكا وكندا. لكن أيضا في الانترنت المتحدث بالألمانية تتكاثر المواقع الالكترونية التي تترك العنان للضغينة في الشبكة العالمية من أمثال «المقاومة الوطنية و توله. الأولى بينها، ولو أقل تطرفاً، www.blutzeuge.de . فقد شهدت اقبال المزيد من مستخدمي الانترنت مع اكتشاف إحدى السفن، التي غدت اسطورة ليس لأنها فقط غرقت، بل ولأنها أزيحت عن الذاكرة. هكذا أعلن المكافح الوحيد، الذي تزود في هذه الاثناء بعدو مصطنع وصديق في الرياضة اسمه دافيد، عن انقاذ أفراد السفينة الانكليزية عبر غوستلوف بفخار مستظرف للعالم المرتبط بالشبكة أجمع. وكأن بعض المقالات المعنية خرجت للتو من المطبعة، اقتبس كلمات المديح لعملية الانقاذ في الصحافة

البريطانية محتفياً بها مثل حدث جديد. ثم اراد أن يعرف من مبارزه، إن كان القاتل اليهودي السجين في كور، فرانكفورتر، سمع بعملية الانقاذ البطولية. ورد دافيد: «كان المرء يقرفص في سجن زينهوف طوال اليوم أمام جعجعة النول ولم يكن يملك الوقت لمطالعة الجرائد..».

في الحقيقة كان يجدر بدافيد أن يعرف، إن كان ضابط الغواصة المتنقل في مياه سواحل البلطيق باسم مارينسكو قد أخذ علماً بانقاذ أفراد السفينة pageway من قبل بحارة السفينة غوستلوف وإن كان قد تمكن بذلك، ولأول مرة، من تهجئة حروف اسم هدفه المقدر عليه. لكن هذا السؤال لم يطرح. بل احتفل استاذ الشبكة العالمية فيلهلم بعملية سفينة قمم المؤرخة بعد ذلك بقليل امام الساحل البريطاني كـ«مركز اقتراع يسبح»، للمرة الثانية مثل حدث جديد. وكأن هذه الوسيلة الدعائية كانت بالأمس، ولم تقطف ثمارها قبل ستين عاماً.

مسألة الاستفتاء العام على ضم النمسا، الأمر الذي سبق للجيش الألماني أن أنجزه، إلى الرايخ الألماني الكبير. ادعى منح الألمان والنمساويين المقيمين في انكلترا فرصة التصويت. صعد الناخبون إلى السفينة عبر جسور الرسو في tilbury وجرت الانتخابات خارج منطقة الثلاثة أميال. بهذه المناسبة الجليلة خطر على بال الثنائي دافيد وفيلهلم شجار سياسي. وكما يجري عادة في كرة الطاولة، جرت اللعبة حول مجرى الانتخابات. أصر فيلهلم على سرية الانتخابات في كابينات الاقتراع. سخر منه دافيد لأن الأعداد تشير إلى رفض أربعة فقط مسألة الضم من بين ألفي ناخب تقريباً: «نعرف كلنا هذه النتيجة، ٩٩،٩٪». مشيراً إلى صحيفة «ديلي تلغراف» في عددها الصادر في

١٢ نيسان ثمانية وثلاثين، عارضه فيلهلم: «لم يجبر أحد أحدا على شيء. وهذا ما كتبه الانكليز يا عزيزي دافيد، وهم الذين يريدون دائماً أن ينقصوا قدرنا، حيثما استطاعوا..».

كنت أتسلى بمناوشات المنتدى الغريبة هذه وفجأة اشتبهت بإحدى رميات فيلهلم الجانبية. لقد سمعت مثل هذا الكلام من قبل! كي يخفف من أثر سخرية دافيد، بالغ في زعمه: «فقط مصالح البلوتوقراط واليهودية العالمية هي التي تحدد انتخاباتك الديمقراطية التي تمدحها كل هذا المديح. كلها مجرد خزعبلات».

قبل فترة وجيزة عرض علي ابني مثل هذه الادعاءات. كنت أرى كوني فقط في زيارات وعندما ذكرت له تقريري عن الانتخابات القادمة في مقاطعة شليسفيغ ـ هولشتاين محاولاً الدخول معه في حديث أبوي، سمعت منه: «كلها خزعبلات. في وول ستريت أو هنا. البلوتوقراط يتحكمون في كل مكان. المال يحكم العالم».

بقيادة القبطان هاينريش بدأت رحلات الاصطياف إلى النرويج بعد رحلة ماديرا الأولى، حيث توفي القبطان لويبه وقام بمهام بقية المشوار القبطان بيترسون. بلغت بمجموعها إحدى عشرة ودامت الواحدة منها خمسة أيام وحجزت تذاكر الرحلات المرغوب فيها على آخرها. وكان على برنامج قمم المزيد منها في السنة التالية. وكان والدا الأم ضمن إحدى الرحلات الإخيرة في الألسنة البحرية النرويجية، أعتقد أنها كانت قبل الأخيرة بأواسط آب.

أصلاً كانت قيادة حلقة الحزب في لانغفور انتقت النجار ليبناو وزوجته للسفر إلى النرويج. هذا لأن معلم النجار كان يملك كلباً من كلاب الرعاة، تمكن في حظيرة شرطة الآداب العامة من اعتلاء كلبة،

كان من ثمارها كلب الزعيم المفضل (برينتز)، الذي أهدته إياه قيادة الإقليم، ما دعا إلى ذكر الكلب صاحب الصون والعفاف في صحيفة (دانتسيغر بوستن) عدداً من المرات. سردت الأم على أسماعي هذه الخرافة منذ الطفولة وكانت قصتها الكلبية بما فيه شجرة العائلة بطول رواية كاملة مكملة. كلما جرى الحديث عن الكلب، جرى الحديث عن الطفلة تولا أيضاً. مثلا تدعي الأم أنها، لما كانت في السابعة ولما غرق أخوها كونراد في بحر الشرق، انجحرت أسبوعا كاملا في كوخ كلب النجار. أنها لم تنبس ببنت شفة طوال أيام: «كنت أعلف من تنكته. أحشاء. يعني كل ما بيحصله كلب. هادا كان اسبوعي في كوخ الكلاب، ما نطقت ولا بكلمة. لهالدرجه وجعني كونراد. المسكين كان من يوم يومه أصم أبكم..».

لكن مالك الكلب ليبناو، الذي كان ابنه هاري قريب الأم، تنازل متأسفاً عن الترحال إلى النرويج على ظهر السفينة قمم عندما عرض عليه ذلك، لأن بضاعته، البراكات قرب المطار، شهدت رواجاً عالياً. واقترح على رئيس الحلقة الحزبية اسم صانعه، الرفيق الحزبي المخلص اوغوست بوكريفكه وزوجته ارنا، ووعد أن يصفي تكاليف الأسرة وثمن تذاكر السفر المرخصة إلى هامبورغ ذهاباً وإياباً من خزينة الورشة. «لو ان الصور اللي اخدوها على كوستلوف موجوده، كنت فرجيتك كل اللي شافوه في كم يوم..». وتدعي أن أم تولا كانت تحلم دائما بصالون الأزياء الشعبية، بفخامة الأروقة، حديقة الشتاء، الأغاني الجماعية في الصباح وجوقة السفينة، التي تعزف موسيقاها مساء. للأسف لم يسمح للركاب بالنزول إلى البر النرويجي، ربما بسبب ندرة العملة الصعبة داخل الرايخ. لكن على إحدى الصور،

التي فقدت جميعاً بما فيها الألبوم «لما اجت نهاية السفينة»، كان للمرء أن يرى اوغوست بوكريفكه وسط فرقة شعبية نرويجية، سمح لها بصعود السفينة في زيارة، ضاحكاً راقصاً. «كان ابي اللي كان اصلاً يحب المزح، لما رجع من النرويج فرحان من الصبح للمسا. وصار واثق ميتين بالمية. مشان هيك صار بدو ياني التحق بالصبايا الالمانيات وصير عضو عندهن. بس انا ما كان بدي. وحتى بعدين ما كان بدي لما رجعنا للرايخ وصار واجب على كل البنات يلتحقو بالمنظمه..».

وهي صادقة هنا. فلم تتقبل تنظيماً قط. كانت كل شؤون حياتها طواعية. لكن حتى عندما كانت عضواً في الحزب الاشتراكي الألماني الموحد ومديرة ناجحة نوعاً ما لمشغل نجارة ينتج أطناناً من أثاث غرف النوم للروس، ثم أثبتت مهاراتها لاحقاً في البناء الداخلي لمشروع حي (غروسه دريش)، اكتسبت يمينها مصاعب جمة، لأنها كانت تجد المحيطين بها من الاصلاحيين وأشباههم من الأعداء الطبقيين.. لكن الأمر لم يعجبها أيضاً عندما التحقت بمطلق الحرية بمنظمة الشبيبة الألمانية الحرة: «ما بيكفي ازا كنت انا عم اتعب حالي في هالشغلة».

من الواضح أن ابني أخذ الكثير عن الأم. إنها الجينات، كما تعتقد زوجتي سابقاً. على كل حال لم يرغب كوني أن يصبح عضواً في أي مجال ولا حتى في نادي التجذيف في (راتزبورغر) أو ـ كما أشارت عليه غابي ـ في الكشافة. ومنها سمعت: «إنه نموذج الانعزالي. من الصعب أن يندمج في المجتمع. يقول بعض زملائي المدرسين أن أفكار كوني بالمحصلة قديمة، رغم اهتمامه الظاهري بالتقنيات الجديدة، مثل الكومبيوتر ووسائل الاتصال الحديثة».

نعم الأم هي من أهدى ابني كومبيوتر ماك وكل ملحقاته مباشرة بعد الاحتفال السنوي للناجين في منتجع (دامب) على بحر الشرق. لم يكن بلغ الخامسة عشرة عندما صنعت منه مدمناً. الذنب ذنبها هي فقط في تطرف الولد. على كل حال فإنني وغابي متفقان على الأقل في أن النحس بدأ حالما حصل كوني على الكومبيوتر.

كنت أرتاب دائماً في من يحدق في نقطة واحدة حتى تستوي، تدخن، تحترق. غوستلوف مثلاً، الذي كانت وحدها إرادة الزعيم تحدد هدفه، أو مارينسكو، الذي كان يتمرن في زمن السلم على شيء واحد فقط: إغراق السفن أو دافيد فرانكفورتر الذي أراد اصلاً اطلاق النار على نفسه، لكنه عدل عن رأيه وثقب لحم الآخرين بأربع طلقات.

عنه، هو الواجم، أخرج المخرج (رولف ليسي) فيلما بنهاية الستينات. تفرجت على شريط فيديو عنه على شاشتي المنزلية المموهة، فالفيلم الأبيض والأسود لايعرض على شاشة السينما منذ زمن بعيد. يقدم ليسي الوقائع بمنتهى الدقة. يشاهد المتفرج طالب الطب الذي يضع على رأسه في بداية الفيلم سدارة ومن ثم قبعة، يدخن ويتجرع حبات الأدوية. يبلغ ثمن علبتي طلقات، عندما يشتري المسدس في برن القديمة، ٣،٧٠ فرنكا. قبل أن يدخل غوستلوف المكتب في ثيابه المدنية يضع فرانكفورتر، بخلاف تصوري للمشهد، القبعة على رأسه، ينتقل من الأريكة إلى كرسي ويطلق النار من ثم مرتدياً القبعة. بعد أن سلم نفسه لمخفر الشرطة في دافوس وألقى اعترافه، كأنشودة مدرسية حفظها عن ظهر قلب، جامد السحنات، يضع المسدس دليلاً على الطاولة.

لا يقول الفيلم جديداً، لكن المهم فيه هي تلك التقارير الأخبارية المصورة، التي تظهر التابوت المغطى بأعلام الصليب المعقوف في الثلج. شفيرين مغطاة بالثلج على آخرها، فيما تأخذ مسيرة الحداد طريقها. وبخلاف الأخبار يؤدي القليل من المدنيين التحية بالذراع المرفوعة. يبدو الممثل الذي مثل دور القاتل فرانكفورتر في المحكمة قصيراً بين شرطيي الكانتون. يقول: «كان غوستلوف هو الوحيد الذي تمكنت منه»، ويقول: «اردت قتل الجرثومة وليس الشخص».

ثم أن الفيلم يعرض كيف يعمل السجين فرانكفورتر على نوله بين السجناء الآخرين يوما إثر يوم. الوقت يمضي. وهكذا يتضح أنه وخلال السنوات الأولى التي قضاها في سجن زينهوف في كور، بينما في الآن ذاته وكأنما في فيلم آخر، يتدرب قائد الغواصة الكسندر مارينسكو على الغطس السريع بعد هجوم سطحي في مياه سواحل بحر الشرق الشرقي وبينما تعبر السفينة غوستلوف الألسنة البحرية في النرويج مرة تلو الأخرى نحو شمس منتصف الليل، شفي من مرض العظام الذي ألم به، فهو يبدو على قدر كاف من التغذية، مكتنز الوجه ومنقطعاً عن التدخين.

طبعاً لا تشاهد في فيلم ليسي لا السفينة غوستلوف ولا القارب السوفييتي تحت المائي، وحدها مشاهد الأنوال، التي تظهر أكثر من مرة، تدل عبر زعيق الأنوال على أن الزمن يمضي بالزيادة الساذجة على كمية المنسوج. ويعاود طبيب السجن ليثبت لفرانكفورتر أن بقاءه في بيت الاصلاح يشفيه شيئاً فشيئا. رغم أن الفيلم يريد القول أن القاتل كفر عن ذنبه بالحبس، إلا إني أصر على رأيي: غريب، مرتاب فيه كل من نصب أمام عينيه هدفاً واحداً فقط. ابني مثلاً.

هي حقنته به. ولهذا، وأيضا لأنك ولدتني عندما مالت السفينة للغرق، أكرهك يا أم. كما أن نجاتي صارت مع الزمن جديرة بالكره. فلو أنك، كالآلاف عندما حان وقت «لينقذ نفسه من يستطيع»، حاملاً في أيامك الأخيرة، زلت قدمك عن متن السفينة وتجمدت في الماء المتجلد رغم طوق النجاة حول بطنك، أو لو ابتلعتك الدوامة التي أحدثتها السفينة الغارقة من مقدمها بما فيك من كينونتي غير المولودة إلى الأعماق، لو أن...

لكن لا. لا يجوز لي، لا يجوز الآن أن أعود إلى عقدة وجودي بالصدفة، فما زال أمام السفينة رحلات سلمية تنظمها قمم. دارت حول البوط الإيطالي عشر مرات، بما فيها سيسيليا مع السماح بالنزول في نابولي وباليرمو، فقد كانت إيطاليا المنسقة على النمط الفاشي كقدوة، دولة صديقة، فهنا كما هناك كانت التحية تؤدى برفع الذراع اليمنى.

بعد السفر الليلي كان الركاب المنتقون بعناية يحملون على ظهر السفينة في جنوا. وبعد التجوال كانت رحلة العودة بالقطار تنطلق أيضاً من جنوا. يوما بعد يوم تكاثرت أعداد الثيران الكبيرة من ال حزب والحياة الاقتصادية، ما أدى إلى رجحان المجتمع اللاطبقي على متن سفينة القوة من المسرة. أثناء إحدى الجولات دعي مثلاً مخترع سيارات فولكس فاغن الشهيرة ـ التي اطلق عليها في البداية اسم سيارات قمم ـ. أبدى البروفسور بورشه اهتماماً استثنائياً بالمعدات الآلية المتطورة في السفينة.

بعد ان قضت الشتاء في جنوا، رست غوستلوف بأوائل آذار تسعة وثلاثين في هامبورغ. عندما وضعت السفينة روبرت لاي بعد أيام في

الخدمة أصبح عدد سفن أسطول قمم ثلاث عشرة، إلا أن متعة العمال والمستخدمين بالسفر في رحلات الاصطياف توقفت آجلاً. اتخذت سبع سفن من الاسطول، بينها غوستلوف وروبرت لاي، وجهة البا دون هدف معلوم ودون ركاب، فقط في أعالي برونسبويتلكوغ فتح مظروف فيه الأمر الذي عين الغاية من الرحلة: المرفأ الاسباني فيغو.

للمرة الأولى أخذت السفن دور شاحنات الوحدات العسكرية. وحيث أن الحرب الاهلية انتهت وانتصر الجنرال فرانكو والفالانغ، صار بامكان المقاتلين الالمان المتطوعين، كتيبة كوندور، لصالح فرانكو منذ ستة وثلاثين العودة إلى الوطن.

طبعا كانت الفرقة المقاتلة تحت هذا الاسم، علفاً عثر عليه الانترنت الذي يجتر كل شيء. أول ما اعلنت عنه www.bkutzeuge.de كان نقل اللواء الجوي المضاد للطائرات رقم ٨٨. كان الخبر ابن يومه وكأنهم انتصروا أمس على الحمر. عاد المقاتلون إلى الوطن على متن غوستلوف. كان استاذ الشبكة العالمية يعطي تقارير فردية، سد المنتدى بوجه الآخرين، لم يسمح بالمبارزة بين داوود وجليات التي كانت ستتخذ من حكاية قصف المدينة الباسكية غرنيكا، التي قصفتها مقاتلاتنا الباسلة من ماركة يونكر وهاينكل، مجالاً لها، رغم أن طائرات هذا الطراز طرزت صفحات احتفالات النصر.

في البداية كان المتحدث باسم جمعية أصدقاء شفيرين على مسافة من الحدث كمؤرخ عسكري وأشار إلى أن الحرب الأهلية الاسبانية قدمت الفرصة لاختبار أسلحة جديدة، مثلما منحت حرب الخليج الأمريكان حظهم لتجريب نظام صواريخهم الجديد قبل عدة أعوام. لكنه عاد واستذكر امجاد كتيبة كوندور. من الواضح أنه استفاد من

المعلومات بالغة الدقة التي وردت في كتاب هاينز شون، فقد أعلن بحماسة، مثله، عن عودة السفينة إلى أرض الوطن واستقبال المقاتلين العائدين. وأيضاً وعلى مثال مؤرخ السفينة غوستلوف، الذي يقتبسه دائماً، لعب دور شاهد العيان: «كان المزاج مدويا على متن السفينة» وأعلن عن «التصفيق الهادر» عندما رحب الفيلدمارشال غورينغ بأفراد الكتيبة. بل وأنه وضع قرع خطوات فرقة المشاة البروسية، الذي دوى لدى ربط السفينتين غوستلوف ولاي إلى الجسر البحري في هامبورغ، بكل طرقعتها، كنوتة موسيقية على صفحته الالكترونية.

بينما استخدمت السفينة غوستلوف للمرة الأولى للنقل العسكري وبينما كان دافيد فرانكفورتر يقضي سنته الثالثة سجيناً في زينهوف وصحته تتابع تحسنها، تابع الكسندر مارينسكو تدريباته في مياه السواحل دون كلل وملل. اكتشف في أرشيف بحرية الاسطول الأحمر في بحر البلطيق ملف حول الغواصة M96 يستعلم منه أن القائد درب طاقمه على الهجوم السطحي بحيث تمكن أخيراً من الغطس في الزمن القياسي ١٩،٥ ثانية، بينما كان متوسط زمن القوارب تحت المائية الأخرى لا يتعدى ٢٨ ثانية. كانت M96 ممتحنة لحالة الحرب، معدة. من الصفحة الالكترونية لجمعية أصدقاء شفيرين اتضح، رغم أن أنهم لم يمتحنوا على وقع المقطوعة «ذات مرة سيأتي يوم الثأر» ـ يوم الثأر؟ ـ على شيء معين، إلا أنهم مستعدون له.

غير أني لم أتمكن من استبعاد فكرتي أنه ليس أحد أبناء قبل أمس، كالأم، يجذف أحاديث مهترئة، يحرك الحساء الرمادي بلا كلل ولا ملل ويحتفل بانتصار رايخ الألف عام مثل اسطوانة موسيقية مخدشة، إنما شاب، ربما أحد حليقي الرؤوس من الصنف الذكي أو

طالب في الثانوية عنيد، ينتشر بسفسطته في الشبكة. لكني لم أتتبع شعوري المبهم، لم أرغب أن أؤكد لنفسي أن صيغاً معينة من الصياغات الرقمية المبلغ بها، مثلا كذلك التقييم العادي «كانت غوستلوف سفينة جميلة»، تفوح برائحة اعرفها. لم يكن هذا صوت الأم الأصلي، لكن. . .

لم يبق إلا اليقين الموقوت، رغم تزعزعه أكثر من مرة. قد يكون، لا، إنه ابني منذ شهور وشهور من. . إنه كونراد الذي. . كوني يربض خلف. . .

علّمت جملي طويلاً بإشارات الاستفهام: أيكون لحمك هذا ودمك؟ هل يمكن لمن ربي تربية يسارية نوعاً ما أن ينزلق إلى هذه الدرجة نحو اليمين؟ لا بد أن غابي كانت ستلاحظ هكذا شيء، وإلا؟!

لكن استاذ الشبكة العالمية، الذي تمنيته مجهولاً مني، سرد لي خرافة أعرفها كل المعرفة: «كان ياما كان، كان هناك ولد صغير أصم أبكم غرق أثناء السباحة. لكن أخته التي تحبه بجنون والتي أرادت النجاة بعد زمن، بعد زمن طويل جداً، من أهوال الحرب على سفينة عظيمة، لم تغرق عندما أصابت ثلاثة طوربيدات معادية السفينة الملآنة بالهاربين وغرقت في المياه المتجمدة. . ».

الآن وثقت. إنه هو. ابني هو من يروي للعالم الخرافات على صفحته المزينة بدمى ظريفة. كأنه يحكي للأسرة، يغدو أكثر مباشرة ولا يعتمد التلويح بعد: «أخت كونراد التي ناحت طوال ثلاثة أيام على وفاة أخيها ذي الخصل الذهبية، ثم صمتت طوال أسبوع، هي جدتي العزيزة، التي أقسمت لها بشعرها المبيض باسم جمعية أصدقاء شفيرين

أن أشهد على الحقيقة، الحقيقة ولا غير الحقيقة: اليهودية العالمية هي من يسعى ليشد النير إلى رقابنا نحن الألمان إلى أبد الدهر وأزله. . ».

وهكذا وهكذا. اتصلت بالأم فبهدلتني: «الك عين تحكي كمان. صار لك سنين وسنين ما اهتميت بكونراد الصغير وفجأة عم تتشطر وتلعب البابا القلقان على ابنه. . ». ثم هاتفت غابي وسافرت في عطلة نهاية الأسبوع إلى مولن، ذلك العش الراقد في السبات، بل وأخذت معي أزهاراً. أعلمتني أن كوني في زيارة جدته في شفيرين. عندما حللت أمام زوجتي سابقاً صرة همومي، لم تنصت إلي ولا دقيقة: «ممنوع عليك تحكي مثل هذا الكلام في بيتي وتتهم ابني كونراد بعلاقات مع اليمين المتطرف. . ».

بذلت جهدي لأبقى هادئاً وذكرتها بأن بيتين يسكنهما الأتراك أحرقا تحديداً في مولن، هذه البلدة المثالية، قبل ثلاثة أعوام ونصف. جن آنذاك جنون الصحف بحثاً عن التقارير الخاصة. كما أن شخصي المتواضع خربش أخباراً قصيرة لوكالات الأنباء. بل وأعربت الدول الأجنبية عن قلقها لأن ألمانيا عادت. . . في أهون الشر، احترق ثلاثة أشخاص. ورغم القاء القبض على ثلة من الغلمان ورمي اثنين من المجرمين في السجن لمدى طويل، إلا أنه يمكن أن تكون تنظيمات لاحقة، أو المتطرفين المتهورين، اتصلوا بابننا كوني. هنا في مولن أو في شفيرين.

ضحكت في وجهي: «هل يمكن أن تتصور كونراد بين هؤلاء الصياحين المغرورين! خلك جاداً. منعزل مثله في قطيع؟ ما تفكر فيه يثير الضحك. لكن طبعاً، فهكذا شكوك نموذجية لذلك النمط من الصحافة الذي تمارسه، سواء لأجل من كان».

لم توفر علي غابي شيئا. لم تكف عن تذكيري بالتفاصيل المملة، بعملي قبل ثلاثين عاماً لدى صحافة شبرنغر، بـ«مقالاتك البارانوية المحرضة ضد اليسار» وأضافت: «للذكرى. إذا كان أحدهم يميل في السر نحو اليمين، فهو أنت. فأنت. . .».

نعم وألف نعم. أنا أعي حضيضي تماما. أعرف مدى صعوبة التستر عليه. لكنني أبذل مجهودي، مازلت أرغب أن أشكل شيئاً ما. عادة ما أدعو إلى الحياد. فعندما أحصل على تكليف ما، سيان ممن، أذكر المعلومات، أخبر، لكني لا أدع الامور تأخذ مجراها.

لهذا، ولأني أردت ان أعرف، ومن فم كوني مباشرة، حجزت غرفة مطلة على البحيرة في فندق قريب من مسكن سابقتي. طرقت باب غابي عدة مرات. أردت التحدث إلى ابني. أخيراً عاد مساء الأحد. سافر بالباص من شفيرين. لم يكن يرتدي حذاءً عالياً، بل بوطاً طويلاً مع بنطال جينز وكنزة نرويجية ملونة. لطيفاً كان الفتى ولم يكن حلق شعره الأجعد. كان منظره بالنظارة يدل على ذكاء لامع. تجاهلني، أصلاً لم يكن يكثر الكلام، تبادل بعض الكلمات مع أمه. كانت وجبة العشاء تتألف من السلطة وشطائر علاوة على عصير التفاح.

لكن قبل أن يختفي كوني إلى غرفته بعد العشاء المشترك أمسكته في الممر. طرحت عليه أسئلة عابرة: كيف هي الأحوال في المدرسة، هل لديه أصدقاء وربما صديقة، ما هي رياضته المفضلة، ماذا تعني له هدية الأم بعيد الميلاد والتي أقدر ثمنها تقديراً، هل يفتح بالكومبيوتر وامكانات الاتصال الحديثة، الانترنت مثلاً، المجال أمام

معارف جديدة، ما الذي يعنيه بالدرجة الأولى في الانترنت إن كان يدخل فيه؟

بدا عليه وكأنه ينصت إلى موعظتي المملة. وأعتقد أني لاحظت ابتسامة على فمه الصغير بشكل ملحوظ. نعم، كان يبتسم! ثم رفع نظارته، عاد ليضعها وتخللتني نظراته كما كانت على مائدة العشاء. جاء جوابه بصوت منخفض: «منذ متى تهتم بما أفعله؟». وأتبعه بعد استراحة، وفيما هو واقف في باب غرفته، بوجبة إضافية: «أقوم بدراسات تاريخية. هل هذه المعلومات كفاية لك؟».

وأقفل الباب. كان علي أن أصرخ خلفه: أنا أيضاً، كوني، أنا أيضاً لدي حكايات مغرقة في القدم. عن سفينة جاءت في أيار تسعة وثلاثين بحوالي ألف متطوع من كتيبة كوندور المنتصرة إلى الوطن. لكن من يولي بالاً إلى هكذا شيء اليوم؟ هل تهتم أنت له، كوني؟

# ٤

في إحدى اللقاءات التي دبرها معي، مما يسميها لقاءات عمل، ألقى على سمعي: في الحقيقة يجب أن تكون كل خيوط الحدث التي ترتبط بمدينة دانتسيغ أو تتعلق بها من شأنه ولهذا كان عليه هو، وليس غيره، أن يكتب عن ما يدور ويلف حول السفينة، سبب تسميتها بهذا الاسم والغايات المرجوة منها بعد انطلاقة الحرب. وأن يروي، طويلاً أو قصيراً، عن النهاية في أعالي شتولبه بانك. على عاتقه هو، حمّل عبء هذا الكم من المواد مباشرة بعد ظهور المجلد «سنوات الكلاب». كان عليه هو ـ طبعاً ومن غيره؟ ـ أن يوفي الدين طباقاً طباقا. فلم يكن هناك نقص في الاشارات إلى عائلة بوكريفكه، وأولهم تولا. كان من المتوقع أن تكون بقية العائلة على الأقل، فقد سقط أخوا تولا في الحرب، بين الآلاف والآلاف من الفارين الذين وجدوا مكاناً في اللحظة الأخيرة على سطح السفينة المحملة على آخرها، بما فيهم تولا الحامل.

للأسف، يقول، لم تتسرب هكذا فرصة من بين أصابعه. كان هذا تقصيره وأسفاه، بل وأكثر: خيبته. إلا أنه لا يبحث عن ذرائع، يريد أن يقر فقط بأنه ملّ في أواسط الستينات من الماضي كلياً، أن الحاضر الذي يبلغ كل شيء، والذي يقول دائماً الآن الآن الآن، منعه من أن يدوّن على حوالي مائتي صفحة من الورق. . .

ها فات الوقت عليه. وتعويضاً، ورغم أنه لم يخترعني، إلا، أنه بعد بحث طويل في قوائم الناجين، اكتشفني كشيء مفقود. ورغم شخصيتي غير المتكاملة، إلا أنني مُقدّر منذ البدء، فقد ولدت والسفينة تغرق.

ثم قال أيضاً أنه يأسف لحكاية ابني، إلا أنه لم يستطع أن يعرف حفيد تولا يقبع خلف الموقع الالكتروني المريب www.blutzeuge.de ولو أن أحداً لن يفاجأ إذا سمع أن تولا بوكريفكه أنجبت نسلاً من هذا النمط. فقد كانت دائماً جذرية وعلاوة عليه، كما يرى المرء، لا تخضع لأحد. والآن، قال مشجعاً معاونه، جاء دوري مرة أخرى، علي أن أكتب كيف تابعت حكاية السفينة سيرها. بعد أن نقلت قسما من كتيبة كوندور سيئة الصيت من أحد المرافئ الاسبانية إلى هامبورغ.

إذا أردنا الاختصار يمكن القول: ثم بدأت الحرب. لكن هذا لايجوز الآن. تمكنت قمم قبل ذلك من أن تأخذ في طريقها المعتاد نصف دزينة من الرحلات إلى النرويج طوال الصيف الجميل. ودائماً دون النزول إلى البر. كان أغلب المسافرين من العمال والمستخدمين من منطقة الروهر وبرلين من هانوفر وبريمن. بالإضافة إلى مجموعات صغيرة من ألمان الخارج. جرت السفينة في اللسان بحري (باي) ومنحت المصطافين فرصة القاء نظرة على مدينة (برغن). وكان على البرنامج اللسان بّحري (هاردانغار) وأخيرا اللسان البحري (سوغنيف) وهنا التقطت الكثير من الصور التذكارية. كما تمكن المصطافون من الاستمتاع بشمس منتصف الليل حتى تموز وتخزينها من ثم كذكرى لا تنسى. بلغ ثمن الرحلة الخمسية، مرتفعاً قليلاً في هذه الفترة، خمسة وأربعين مارك رايخ.

ثم لم تبدأ الحرب بعد. بل وضعت السفينة غوستلوف في خدمة التربية البدنية. جرت في استوكهولم ألعاب سلمية، دورة (اللينغاده) سمية أحد آباء الجمباز السويديين (يان) كما اعتقد. اصبحت السفينة مسكنا للمتسابقين والمتسابقات، بينهن فتيات من الخدمة العسكرية والفريق الوطني لرياضة العُقلة، لكن وأيضاً سادة هرمون، مازالوا يمارسون الجمباز وكذلك فرق الجمباز من جمعية (الإيمان والجمال) وكثير من الأطفال المدربين على مختلف أنواع الجمباز في الملعب.

منع القبطان برترام من الرسو في المرفأ، لكنه أنزل المرساة في مجال رؤية المدينة. كان المتسابقون والمتسابقات ينقلون ذهاباً وإياباً في قوارب النجاة الآلية وبهذا ظل المدربون بدنيا تحت المراقبة. لم تجر حوادث تؤخذ بعين الاعتبار. يؤخذ من أوراقي أن هذه العملية الخاصة وضعت بنجاح فائق في خدمة الصداقة الألمانية ـ السويدية. منحت أوسمة تذكارية خاصة أصدرها ملك السويد إلى جميع المدربين. رست السفينة غوستلوف في ٦ آب ١٩٣٩ في مرفأ هامبورغ. وللحال دخل برنامج قمم حيز التنفيذ من جديد.

وثم بدأت الحرب فعلاً. هذا يعني، بينما كانت السفينة، وللمرة الأخيرة في زمن السلم، تتوجه نحو الساحل النرويجي، سلمت إلى القبطان برقية في ليلة ٢٤ على ٢٥ آب، يطالبه فحوى نصها المشفر بفتح رسالة سرية مختومة في قمرة الربان. وعليه أعطى القبطان برترام أوامره، حسب القرار الإداري QWA7، بقطع الرحلة و ـ دون اقلاق راحة الركاب بالتفسيرات ـ اتخاذ وجهة مرفأ الوطن. بعد أربعة أيام من رسو السفينة بدأت الحرب العالمية الثانية.

انتهت أيام «القوة من المسرة». انتهت رحلات الاصطياف البحرية.

انتهت أيام الصور التذكارية والثرثرة على طابق التشمس. انتهت أيام المرح وانتهت أيام مجتمع المصطافين اللاطبقي. تخصصت المنظمة المتفرعة عن جبهة العمل الألمانية بالترويح عن كافة أصناف السلاح وأعداد الجرحى المتصاعدة ببطء. هذا في البداية. على أطلال مسارح قمم، قامت مسارح الجيش. وضعت سفن أسطول قمم تحت إمرة البحرية العسكرية، بما فيها غوستلوف، التي حولت إلى مشفى عسكري عائم بسعة خمسمائة سرير. عوض قسم من طاقم أيام السلم بالخدمات الصحية. ومنح الخط الأخضر والصلبان الحمراء على جانبي المدخنة السفينة مظهراً جديداً.

عليها إشارات معروفة في المعاهدات الدولية، أخذت غوستلوف في ٢٧ أيلول وجهة بحر الشرق، مرى بجزيرتي (زيلاند) و(بورنهولم) وألقت مراسيها بعد رحلة آمنة في مياه دانتسيغ ـ نويفارت قبالة جزيرة (فيستربلاته)، التي دارت عليها الحروب قبل برهة. وللحال استقبلت مئات من الجرحى البولونيين علاوة على عشرة جرحى من طاقم قارب التنقيب عن الألغام الألماني M85، الذي اصطدم في خليج دانتسيغ بلغم بحري بولوني وغرق. لم يجرح على الجبهة الوطنية المزيد. هذا في البداية.

وكيف عايش السجين على الأراضي السويسرية المحايدة دافيد فرانكفورتر، الذي مهد دون طواعية بأربع طلقات لإطلاق اسم معين على السفينة التي غدت الآن مشفى عسكرياً، انطلاقة الحرب؟ يحتمل أنه لم تحدث في مجرى الأول من أيلول حوادث استثنائية في سجن زينهوف، لكن المؤكد أن سلوك السجناء فيه، أألصق به العار أم ذاع صيته آجلاً، كان يتغير بتغير موازين القوى على الجبهة. لا بد وأن

نصيب المعادين للسامية داخل السجن، كان يعكس المجريات خارج الأسوار، أي العلاقة المتوازنة، كما في سائر أنحاء الاتحاد السويسري.

وما الذي كان يفعله القبطان مارينسكو عندما دخل الجنود الألمان بدءاً، ومن ثم الروس بناءً على حلف هتلر وستالين، الأراضي البولونية؟ كان قائداً للغواصة مائتين وخمسين طنا M96 ومازال يتدرب، حيث لم تعلن حالة الحرب بعد، مع طاقمه المؤلف من ثمانية عشر رجلاً على الغطس السريع في بحر الشرق الشرقي. مازال السكير على البر متعطشاً كما كان. أثار بعض الأقاصيص مع النساء. لكنه لم يكن قد نال عقوبة، ويجوز أنه كان يحلم بغواصة أكبر لها أكثر من قاذفتي طوربيد.

خبر بفلوس، يصبح غداً مجاناً، كما يقال. أما الآن فأعرف أن ابني كان على علاقة سطحية مع الزعر. تواجد عدد من هذا الصنف في مولن، حولوا زعيقهم إلى مكان آخر، إلى (فيسمار) أو تجمعات. اكبر في بوابة براندنبورغ، بعدما اصبحوا تحت المراقبة إثر حوادث البلدة ووفاة الأتراك. لابد أن كوني بقي على مسافة معينة منهم في مولن، لكن في شفيرين، حيث لم يقض فقط عطلة نهاية الأسبوع وحدها بل وبعض عطلته المدرسية أيضاً لدى جدته، ألقى محاضرة أمام جمع من حليقي الرأس تعد من مجموعات مكلنبورغ، طويلة على ما يبدو، فقد وجب عليه ان يختصرها رغم أن تفاصيله المدونة كانت مهداة إلى الشهيد وابن المدينة العظيم.

على كل حال، لا بد وأن كوني تمكن من كسب بعض النازيين الشباب القاطنين هناك و ـ كما العادة ـ المجمعين على شعارات الحقد

والتحريض على الأجانب، فلبرهة طويلة أطلق هذا التجمع على نفسه اسم «جمعية فيلهلم غوستلوف». كما علمنا لاحقاً، عقد الاجتماع في الغرفة الخلفية لإحدى الحانات في طريق شفيرين. كان بين الحاضرين الخمسين أعضاء إحدى الأحزاب اليمينية المتطرفة ومواطنون مهتمون من الطبقة الوسطى. لم تحضر الأم.

أحاول أن أتصور كيف كان ابني، النحيل الطويل، يتحرك بنظارته وشعره الأجعد في كنزته النرويجية، بين الصلعان. هو، من يشرب العصير، محاطاً بجبال اللحم المسلحة بزجاجات البيرة. هو، بصوته الطفولي الرنان، تغطي عليه الوعود الطنانة. هو، الانعزالي، يوقره العطن متشربا برائحة العرق.

كلا، لم يتأقلم، ظل جسماً غريباً في وسط يطرح عادة كل أجنبي. كلا، لم يكن يكره الأتراك، لم يكن يضرب الزنوج تضييعاً للوقت ولم يكن يشتم الكاناك عموما. وكذلك لم تحتوي محاضرته دعوة إلى العنف. رغم أنه تحدث أثناء وصف جريمة القتل في دافوس، التي حلل كل تفاصيلها باحثاً عن الدوافع كعالم الجريمة، عن الخلفيات المشبوهة للقاتل كما فعل على صفحته الالكترونية، عن «اليهودية العالمية» وعن «البلوتوقراطيين المتهودين»، إلا أن شتائم على غرار «اليهود الخنازير» أو «ليفطس اليهود» لم ترد في مخطوط خطابه. بل وحتى مطالبته بإعادة بناء النصب التذكاري على الشاطئ الجنوبي لبحيرة شفيرين «هناك، حيث وقف الغرانيت العالي لتكريم الشهيد منذ ١٩٣٧»، جاء بصيغة عريضة تراعي الأصول الديمقراطية. لكنه عندما اقترح على المستمعين تقديمه كالتماس إلى برلمان مقاطعة مكلنبورغ، علت قهقهات السخرية جواباً على سؤاله. واأسفاه، لم تكن الأم حاضرة.

ابتلع كوني هذا وبدأ حالاً بالحديث عن السفينة منذ تدشينها. إلا أنه أخطأ، إذ جاء مطولاً على ذكر معنى وهدف منظمة القوة من المسرة في محاضرته. وعلى العكس فقد لقي تقريره عن مهام سفينة الجرحى العزلاء أثناء احتلال الجيش والبحرية الحربية للنرويج والدانمارك بعض الآذان الصاغية في حلقة شاربي البيرة. خاصة وإن عدداً من «أبطال ميناء نرويك» كانوا في عداد الجرحى على متن السفينة. إلا أنه ولأن «عملية أسد البحر»، أي احتلال انكلترا وبالتالي استخدام غوستلوف كسفينة لنقل الوحدات العسكرية، لم تنفذ بعد غزو فرنسا، ولأن الحديث جاء على فترة الرقاد المملة في غوتنهافن، فقد تسلل الملل إلى الجمهور أيضا.

لم يتمكن ابني من إلقاء محاضرته حتى نهايتها. منعته صيحات مثل «وقّف» و«ما هذه الرسائل الفارغة» وكذلك الضجة الناتجة عن فرقعة زجاجات البيرة، من أن يسرد بقية قدر السفينة، سيرتها حتى الغرق، وبالكاد واصل محاضرته حتى زمن رميها بالطوربيدات. لا بد أن كوني تحمل ذلك بكبرياء. الحمد لله، لم تكن الأم حاضرة. قد يكون من لم يبلغ السادسة عشرة بعد واسى نفسه، فدرب الانترنت مفتوح أمامه بالمحصلة. لاتوجد أدلة أخرى على تعامله مع الزعر.

لم يكن يناسب الصلعان. بعدها مباشرة بدأ كوني يعد محاضرة أراد إلقاءها في مدرسيه وزملائه في المدرسة الثانوية في مولن. حتى يأتي ذلك الأوان ويمنع عليه لقاء الجمهور، سأبقى ألاحق الأثر وأروي حكاية غوستلوف أثناء الحرب: حدث حجز في إمدادها كسفينة لنقل الجرحى ولهذا تعين إعادة ترتيبها.

أخرجت أحشاء السفينة. احتفت أجهزة التصوير بنهاية تشرين الثاني

أربعين. فككت غرف العمليات وحدث الأمر ذاته مع غرف الاسعاف. لم يعد يعمل على سطح السفينة ممرضات، لم تعد هناك أسرة مرضى مرتبة في صفوف. مع القسم الأعظم من الطاقم المدني سرح الأطباء وعمال الصحة أو فرزوا على سفن أخرى. لم يبق من الميكانيكيين إلا عمال صيانة غرفة المحركات. منذ هذه اللحظة أصبحت الكلمة العليا للرائد البحري بدل رئيس الأطباء، وباعتباره قائدا لكتيبة تدريب الغواصات ٢ صار هو من يحدد وظيفة سفينة السكن والتأهيل، الراسية كـ«ثكنة تسبح». ظل القبطان برترام على متن السفينة، لكن لم تكن له وجهة يقود السفينة إليها. ورغم أنه يشاهد على الصور المتوافرة لدي مهيب الطلعة، إلا أنه كان قبطاناً تحت الطلب، قبطاناً من الدرجة الثانية. كان الملاح الخبير يستصعب الالتزام بالتعليمات العسكرية، لا سيما وأن الحياة على ظهر السفينة تبدلت كليا. عوض صور لاي ظهرت على الجدران صور الادميرال الأول. تحولت قاعة التدخين في طابق التنزه السفلي إلى مقر لعقد اجتماعات الضباط. صار واجب صالات الطعام الرحبة أن تعلف صف الضباط والسرايا. أثثت حجرات الإطعام والإقامة في مقدم السفينة لأجل البقية الباقية من الطاقم المدني. لم تعد فيلهلم غوستلوف الراسية على أحد أرصفة الميناء البولوني غدينيا، المسمى منذ بداية الحرب غوتنهافن، سفينة لاطبقية. وهناك رسخت سنين وسنين.

*

كانت خمس سرايا من كتيبة التأهيل تسكن على متنها. تؤكد الأوراق الملقاة أمامي، والتي وضعت في الانترنت حرفياً ونشرت عليه مزودة بالصور. كان ابني ينهل من منبع، استولي عليه الآن. أصدر الرائد البحري الخبير في قيادة الغواصات اوامره بإجراء تدريبات صارمة

للمتطوعين. كان البحارة الذين كانت أعمارهم تصغر يوماً بعد يوم - قبل النهاية بقليل قبلوا من تبلغ أعمارهم السابعة عشرة - يبقون على السفينة ربع سنة. بذلك كانوا يضمنون المنية، سواء في الأطلسي أو في البحر الأبيض المتوسط ولاحقاً أثناء الرحلات الهجومية على أقصى الطرق الشمالية نحو (مونمارسك)، التي كانت الجرارات الأمريكية، محملة بالأسلحة للسوفييت، تأخذ طريقها فيها.

ومرت السنون ألف وتسعمائة وأربعين، واحد وأربعين، اثنان وأربعين، منتجة انتصارات جديرة بالأخبار العاجلة. عدا التدريب المستمر لمرشحي الموت وعدا خدمة الجبهة المريحة وغير الخطرة، التي كان المدربون وبقية الطاقم يؤدونها - كانت أفلام الشركة العالمية لانتاج الأفلام UFA تعرض على شاشة سينما السفينة، بقديمها وجديدها - لم يحدث شيء، في زمن جرت فيه معارك الحصار في الشرق وغزا لواء افريقيا طبرق في الصحراء الليبية، اللهم إلا إذا اعتبرنا ظهور الادميرال أول (دونيتش) في زيارة خاطفة لرصيف غوتنهافن - اوكسهوفت حدثاً لم تؤخذ له إلا صور رسمية.

حدث هذا في آذار ثلاثة وأربعين. كانت ستالينينغراد قد سقطت. وهنا بدأت خطوط الجبهة تتحرك نحو الوراء. ولأن السيادة الجوية فوق الرايخ كانت بيد الأعداء، فقد دنت الحرب منه أيضا. إلا أن هدف قنابل الفرقة الثامنة للأسطول الجوي الأمريكي لم يكن مدينة دانتسيغ القريبة، بل غوتنهافن. احترقت سفينة نقل الجرحى شتوتغارت على آخرها. أغرقت سفينة مرافقة الغواصات (اويبن). غرقت الكثير من الجرارات، غرقت سفينة بخارية فنلندية وأخرى سويدية بإصابات بليغة. الحقت الأضرار بسفينة شحن في الحوض. أما غوستلوف فقد

نفذت بشق في الجدار الخارجي لطابق التوجيه. أدت قنبلة انفجرت في مياه المرفأ القريبة إلى هذا الضرر ووجب إدخال السفينة إلى الحوض. بعدها برهنت «الثكنة العائمة»، خلال رحلة تجريبية في خليج دانتسيغ على أنها مازالت جديرة بالإبحار.

في هذه الاثناء لم يكن اسم آمر السفينة (برترام)، إنما (بترسون) كما في زمن قمم. لم تعد هناك انتصارت، بل انسحابات على جميع خطوط الجبهة الشرقية، كما وجب إخلاء الصحراء الليبية أيضاً. ارتفع عدد السفن التي لا تعود من رحلات الهجوم. انهدمت مدن ومدن تحت القصف الشامل، إلا أن دانتسيغ ظلت صامدة بكل جملوناتها وأبراجها. استمر انتاج النوافذ والأبواب في ورشة النجارة في الضاحية لانغفور لأجل معسكرات البراكات دون منغصات. في هذا الوقت، عندما لم تصبح الأخبار العاجلة وحدها نادرة، لا بل والزبدة، اللحم، البيض وحتى البقول، دخلت تولا بوكريفكه الخدمة كجاب للترامواي. لأول مرة في حياتها سارت حاملاً، إلا أنها فقدت بطنها الضئيل عندما قفزت متعمدة من الترامواي أثناء السفر بين لانغفور واوليفيا مراراً وتكراراً، ما حدثتني عنه الأم وكأنها تحكي عن تمرين رياضي.

وحدث شيء أخر في هذه الأثناء. نقل دافيد فرانكفورتر، عندما صارت سويسرا تخاف أن يحتلها الجار الذي مازال يحتفظ بقوته، من السجن في كور إلى سجن في (فلشلاند)، حرصاً عليه كما قيل. وفي خدمة قائد القارب مائتين وخمسين طنا M96، الكسندر مارينسكو، وضع قارب جديد لأنه رفع إلى رتبة قبطان من الدرجة الثالثة. كان قد تمكن قبل سنتين من إغراق سفينة نقل سبعة آلاف طن بزعمه، إلا أن معطيات قيادة الأسطول السوفييتي تقول أنها كانت الف وثمانمائة طن فقط.

كانت الغواصة الجديدة S13، التي حلم بها مارينسكو يقظانا وسكرانا، من طراز (ستالينتز). ربما كان القدر، بل الصدفة، لا بل شروط معاهدة فرساي الصارمة جعلت منها سفينة معدة بأحدث المعدات. لأن بناء الغواصات منع على الرايخ الألماني بعد الحرب العالمية الأولى، كلفت ترسانة (كروب ـ جرمانيا) في (كيل) والشركة المساهمة لبناء معدات السفن في (بريمن) مؤسسة Ingenieurs Kantoor Voor sheepsbouw في دنهاغ بتصميم قارب لأعالي البحار بأحدث المستويات التقنية. في إطار التعاون الالماني السوفييتي دشن الهيكل الجديد، مثله مثل قوارب (ستالنيتز) الأخرى، في الاتحاد السوفييتي واعتبرت، قبل الهجوم الالماني على روسيا بقليل، وحدة من وحدات الأسطول الأحمر في بحر البلطيق. حين تركت الغواصة S13 مقرها في سمولني في المرفأ الفنلندي (توركو)، كانت تحمل على متنها عشرة طوربيدات. على صفحته الالكترونية الخبيرة بشؤون السفن، كان رأي ابني أن الغواصة المصممة في هولندا كانت «صناعة ألمانية قيمة». ربما، فكل ما تمكن منه القبطان مارينسكو في البداية كان مجرد إغراق جرارة اسمها (زيغفريد) بنيران مدفعيته، بعد ان فشلت الطوربيدات ثلاث مرات في تحقيق هدفِها. وبعد أن طفت مباشرة جاء دور درع مقدم السفينة بسماكة عشرة سنتيمترات.

فلأترك السفينة حيث هي راسية في أمان قلق، عدا عن القصف الجوي ولأعد بمشية السرطان إلى تعاستي الخاصة. لم يكن الأمر وكأنه اتضح منذ البداية إلى أين ينزلق كوني. بتقديري كانت الحكاية كلها مجرد لعب أطفال، يلعبه بطريقة cyberspace، مثلا عندما كانت دعايته تقارن أسعار قمم المرخصة بما تعرضه شركات السياحة اليوم

من أسعار للرحلات المدارية في البحر الكاريبي على متن ما يسمى «سفن الأحلام» أو بعروض شركة (توي)، وطبعاً دائماً لصالح غوستلوف «اللاطبقية» المتوجهة أبداً نحو النرويج، وغيرها من سفن جبهة العمل الألمانية. وهلل على صفحته مدعياً أن تلك كانت الاشتراكية الحقيقية وأن الشيوعيين فشلوا في محاولتهم التشبه بها في جمهورية ألمانيا الشرقية. للأسف، جاء عنده، لم تنجح هذه المحاولات. فحتى مجمع قمم (برورا) على جزيرة (رويغن) المخصص لعشرين ألف مصطاف في زمن السلم لم يكتمل بناؤه بعد نهاية الحرب.

طالبَ، «يجب وضع اطلال قمم في برنامج حماية الآثار» وتشاجر من ثم بأسلوب طلاب المدارس الثانوية، مع محاوره دافيد، الذي اخترعه لنفسه كما كنت اتوقع طويلا، حول مصير المجتمع البشري، ليس فقط القومي بل والاشتراكي أيضاً. كان يقتبس من غريغور شتراسر، ومن روبرت لاي أيضاً، الذي منح أفكاره علامة «جيد جدا». كان يتحدث عن «جسم الشعب السليم»، حيث أنذره دافيد من «التسوية الاشتراكية» وسمى لاي بـ«المدعي السكير».

اطلعت على الشت المسلي بطريقة أو بأخرى وتوصلت إلى أنه كلما ازدادت حماسة ابني لإبراز معجزة «القوة من المسرة» كهدف مستقبلي وكلما ازداد مديحاً لجهود دولة العمال والفلاحين في محاولاتها اليائسة لتمهيد الصراط إلى الجنة الاشتراكية، كلما صدر عنه صوت الأم المخجل. حالما دخلت منتدى كوني الالكتروني، كنت أسمع نقّ أبناء الامس الأبديين.

هكذا كانت الأم حرضتني، أنا وغيري. كم سمعتها في الزمن

السابق لانتقالي إلى الغرب، تطلق كآخر الوفيات لستالين خطباً رنانة في مطبخنا: «أأكد لكن يا رفاقي الأعزاء، متل ما بدأ فالتر اولبريشت صانع نجار صغير. هيك بلشت أنا كمان في ورشة نجارة وشميت ريحة الغرى..».

بعد غروب شمس السكرتير الأول جاءها المزيد من المصاعب. ليس فقط لأني هربت من الجمهورية، بل بالدرجة الاولى لأنها شتمت خليفة اولبريشت بـ«البنا الطماع» واستشعرت الاصلاحيين من حولها. ويقال أنها جاءت في اجتماع للجنة الحزبية على ذكر شخص فيلهلم غوستلوف كضحية للصهيونية: «ابن مدينتنا الحلوة شفيرين انقتل بهالبشاعة».

إلا أن الام تمكنت من الاحتفاظ بمواقعها. كان الجميع يحبها ويخشاها في آن. منحت بصفتها ناشطة حزبية كثيراً من الأوسمة وظلت ناجحة في مسعاها في تحقيق خطتها الالزامية وقادت مشغل النجارة العامة في شارع غويستروفر حتى النهاية. لكنها كانت أيضا من رفع من حصة النساء بين المتدربين إلى عشرين بالمائة.

عندما غربت شمس دولة العمال والفلاحين وافتتح الانتداب البرليني ـ باعتباره مسؤولاً عن المدينة والمقاطعة ـ فرعاً له في شفيرين، لا بد وأن الأم دست اصبعها في تصفية وخصخصة الملكية العامة لمصانع الكابلات واللدائن وغيرها من كبريات المؤسسات، مثل مصانع كليمنت ـ غوتفالد لمعدات السفن وحتى معمل الأثاث الذي كانت تعمل فيه. على أية حال، فمن المتوقع أنها خرجت من الصفقة، عندما بدأت عملية التنظيف الشامل للشرق، دون اضرار. فلم تكن الأم تعتمد في معاشها على راتب التقاعد وحده، حالما

جاءت العملة الجديدة. ولن تكون يدها ضاقت عندما اشترت الكومبيوتر وملحقاته لابني. أعيد كرمها المبالغ فيه ـ فقد كانت مقترة في حقي ـ إلى حادثة لم تجد لها صدى في الصحافة الألمانية الاتحادية، إلا أنها كانت حاسمة في حياة كوني.

عليّ قبل أن آتي على ذكر لقاء الناجين أن أطوّع حادثة محرجة في مجرى كلامي، يصرّ من رسم لنفسه صورة لا شائبة فيها للأم أن يستخرجها من أعماقي. في ٣٠ كانون الثاني تسعين، عندما بدا وكأن هذا التاريخ الملعون ذهب أدراج الرياح، ولأن الجميع كانوا يتراقصون على أنغام النشيد الوطني الألماني وجميع الشرقيين مهووسين بالمارك الألماني، نشطت الأم على طريقتها الخاصة.

كان أحد بيوتات الشباب الجردونية يرقد مشخراً على الضفة الجنوبية لبحيرة شفيرين. بُني في مطلع الخمسينات وأُطلق عليه اسم كورت بويرغر، أحد قدماء الستالينيين، عاد من موسكو بعد الحرب مباشرة كعدو عتيد للفاشية وكسب الكثير من المناقب بفضل إجراءاته التعسفية. وخلف بيت الشباب كورت بويرغر وضعت الأم باقة ورود حمقاء، هناك حيث كانت كتلة الغرانيت تنتصب ذات مرة على شرف الشهيد. فعلت هذا في الظلام، في تماما الساعة العاشرة وثماني عشرة دقيقة. وفي كل الأحوال، فقد روت لي ولصديقتها جيني عن عمليتها هذه مع معطيات دقيقة عن زمن حدوثها. قالت أنها كانت وحدها وأنها بحثت عن الموقع المعين خلف بيت الشباب الفارغ شتاءً مستنيرة بكشاف، وقالت أنها لم تتأكد تماماً إلا أنها قررت في ضياء السماء الصافية ورذاذ المطر: هنا كان النصب. «بس أنا ما وديت الورود مشان كوستلوف. هادا كان واحد من كل النازيين اللي اندبحوا.

حطيت زهراتي البيضا في الساعة عشرة وتمانتعش بالضبط كرمى للسفينة والصغار اللي غرقوا وقتها في البحر المتلج. وبكيت حتى بعد خمس واربعين سنة..».

لن تعود الأم إلى هذا المكان وحيدة بعد خمسة عشر عاما. دعا إلى ذلك اللقاء السيد شون وإدارة منتجع بحر الشرق (دامب) وكذلك السادة من هيئة جمعية «الانقاذ في أعالي البحار». قبل عشرة أعوام كان الناجون قد اجتمعوا في المكان ذاته. آنذاك كان الجدار والأسلاك الشائكة قائمة ولم يسمح لأحدٍ من الدولة الشرق ألمانية أن يحضره. أما هذه المرة فقد جاء أيضاً أولئك الذين وجدوا أنفسهم مرغمين على السكوت عن غرق السفينة طوال الوقت لأسباب تمس أمن الدولة. فلا غرو إذاً أن تم الترحيب بالضيوف من المقاطعات الألمانية الجديدة ترحيباً حاراً، فهنا بين الناجين وجب رفع كل الميزات الفارقة بين الشرقيين والغربيين.

رفعت لافتة على مسرح صالة الأعياد في المنتجع، كتب عليها بحروف مختلفة الحجوم بين سطر وآخر: «الذكرى الخمسون لغرق [فيلهلم غوستلوف] في حمام بحر الشرق (دامب) من ٢٨ حتى ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٥». لم يتطرق أحد علنا إلى المصادفة التاريخية التي تذكر بتاريخ الاستيلاء على السلطة سنة ثلاثة وثلاثين وفي الآن ذاته بذكرى عيد ميلاد ذاك الرجل الذي أطلق عليه دافيد فرانكفورتر الرصاص كي يكون علامة لشعب اليهود، لكنها وردت همساً في أحاديث المجتمعين هنا وهناك، أكان ذلك أثناء شرب القهوة أو خلال الاستراحات.

أرغمتني الأم على الحضور. متذرعة بذريعة لا تدحض: «انت

كمان راح تصير عن قريب خمسين. .». دعت ابننا كونراد، ولأن غابي لم تعارض فقد نهبته نهباً. قادت عربتها (ترابانت) بلون الرمل أمامي، وكانت هذه تحفة أثرية بين السيارات الفارهة من مرسيدس واوبل في دامب. تجاهلت رجائي الحار بأن تكتفي بي وتترك كوني بعيداً عن غفوات الماضي. لم يكن لي أي اعتبار. سواء كوالد أو كأي شيء آخر، فقد كانت زوجتي سابقاً والأم متفقتين تماماً، وهما اللتان لا تتفقان في أمر، في تقديرهما لي، فبالنسبة للأم كنت كما تقول دائماً: «واحد فاشل» وفي كل مناسبة سانحة كنت أسمع من غابي أنني خائب. فلا غرو إذا أن الفترة التي قضيتها في دامب، يومان ونصف، كانت محرجة بالنسبة لي. كنت كالأطرش في عرس وأدخن كمدخنة. وكان لي كصحفي أن أكتب تقريراً مصوراً، أو تقريراً قصيراً على الأقل. أغلب الظن أن السادة في هيئة المنتجع توقعوا مني مثل هذا الشيء، فقد قدمتني لهم الأم كـ«صحفي في جرائد شبرنغر». لم أعارض، لكني لم أدون على أوراقي أكثر من جملة واحدة «الطقس كما هو». فبأية صفة كان عليّ أن أكتب؟ «طفل السفينة غوستلوف»؟ أم بحياد لأسباب مهنية؟

كان لدى الأم جواب لكل سؤال. ولأنها عرفت من بين المجتمعين بعض الناجين ولأن أفراد طاقم قارب الطوربيد لوفه كان يتحدث إليها ببساطة، فقد استغلت كل فرصة كي تقدمني لهم، إن لم يكن بصفة صحفي لدى شبرنغر، فبصفة «الولد اللي ولد في نص الحادث». وطبعاً لم تكف عن الإشارة إلى قرب المناسبة الثلاثين للاحتفال بعيد ميلادي الخمسين، رغم ورود دقيقة صمت على جدول هذا اليوم.

بالتأكيد ولد أطفال آخرون قبل ساعة الغرق وفي اليوم التالي أيضاً، إلا أنه لم يتواجد في دامب ممن ولدوا في التاسع والعشرين عدا شخص واحد. كانت أغلبية الملتقين من العجائز، حيث لم ينقذ إلا القليل من الاطفال. من بين الشباب تواجد شخص من (البيغ) بلغ آنذاك العاشرة ويعيش اليوم في كندا ودعته هيئة المنتجع ليخبر الجمهور بتفاصيل إنقاذه.

عموما ولأسباب معروفة يتناقص عدد الشهود على الحادث، فبينما حضر في الذكرى الخامسة والثلاثين أكثر من خمسمائة ناج، لم يبلغ عدد المجتمعين هذه المرة إلا حوالي المائتين، ما دعا الأم إلى أن تهمس في أذني أثناء ساعات الفراغ: «عن قريب ما راح يبقى حدا منا عايش إلا انت. بس انت ما بدك تكتب شي من اللي كنت بحكيلك اياه على طول».

هذا مع أني كنت أنا من أرسل لها بطرق مدبرة كتاب هاينز شون، وذلك قبل أن يسقط الجدار لأتهرب من ملامتها التي تنخر العظام، أقرّ بذلك. وقبل اللقاء في دامب بفترة وجيزة حصلت مني على كتاب للجيب نشره ثلاثة انكليز لدى دار النشر اولشتاين. لكن حتى هذه الوثيقة عن كارثة السفينة، التي رغم واقعيتها التفصيلية إلا أنها كتبت بجفاف، أقر، لم ينل إعجابها: «كل هادا ما فيه روح. مو طالع من القلب». ثم قالت عندما كنت في زيارة قصيرة لها في غروسه دريش: «بلكي كونراد الصغير يكتب مرة عن الموضوع».

لهذا حملته معها إلى دامب. جاءت، لا بل ظهرت، في ثوب طويل من المخمل الأسود يصل كعبيها، أبان شعرها الأبيض القصير. أنى ما وقفت أو جلست لتناول الحلويات مع القهوة، كانت تشكل

مركزاً. كانت تستقطب الرجال خاصة. وهكذا كان الأمر دائماً، كما يعلم الجميع. حكت لي زميلتها جيني عن كل أولئك الفتيان الذين التصقوا بالأم في شبابها التصاقاً. يقال أنها كانت تفوح برائحة الغراء الكريهة منذ طفولتها. وأزعم أن بعضاً من هذا الرائحة كانت تلاصقها حتى في دامب.

كان المتواجدون في أغلبهم من السادة الذين يرتدون ثياباً زرقاء داكنة، وهي واقفة بينهم هزيلة في ثوب أسود. كان بين المعمرين شائبي الشعر الملازم البحار وقائد قارب الطوربيد T36، الذي أنقذ طاقمه عدة مئات ممن حلت بهم الكارثة، بالإضافة إلى أحد ضباط السفينة الغارقة. وأما الذكرى الحية لدى قارب الطوربيد لوفه، فقد كانت عن الأم. لاح لي أن السادة كانوا في انتظارها. أحاطوا بالأم التي كانت تتصابى ولم يستطيعوا الابتعاد عنها. سمعت ضحكاتها الصبيانية ورأيتها متشابكة الذراعين في وضعية معينة. لكن أحاديثها لم تعد تدور عني، بل عن كوني. قدمت الأم ابني للسادة المعمرين وكأنه ابنها هي وأنا بقيت على الحافة، لم أرغب في أن يوجه إليّ أحد الأسئلة أو أن يحتفل بي المحاربون السابقون على لوفه.

من مسافة معينة لاحظت أن كوني، الذي أعرفه شابا خجولا، يتحرك في الدور الذي وضعته له الأم بمطلق الثقة، يعطي أجوبة قصيرة لكنها واضحة، يطرح الأسئلة ويصغي بكل حواسه، يغامر بضحكة طفولية بل ويسكن لالتقاط الصور. لم تكن تظهر عليه آثار الطفولة، هو من لم يبلغ الخامسة عشرة ـ في آذار كان سيبلغها ـ، بل بدا بالغاً جداً مقارنة بمراد الأم، التي أرادت أن تصنع منه شاهداً حقيقياً على الحادث و ـ كما سيظهر ـ رسولاً لأسطورة إحدى السفن.

للحال بدأت الكواكب تسجد له. ورغم حضور أحد الناجين، ممن ولدوا قبل يوم واحد فقط من غرق غوستلوف، أهداه الكاتب شون شخصياً كتابه، مثل ما فعل معي ـ كرمت الأمهات بمنحهن أكاليل الزهر على المسرح ـ، بدا لي أن كل هذا يحدث ليقوم ابني بالواجب. وضعت الآمال فيه. توقع الجميع من كوني أمراً جللاً. فهو، كان الجميع واثقاً، لن يخيب الناجين. بدا بنظارته وشعره الأجعد وكأنه خليط من الشيخ المربي والملاك. ظهر وكأنه عليه تحقيق بشارة ما، وكأنه سيبلغ قريباً بأمر عظيم، وكأنه أوحي إليه.

لا أعلم من اقترح أن يقرع كونراد تلك النواقيس المعلقة جانب المذبح اثناء القداس، الذي سيقام لحظة أصابت الطوربيدات السفينة. وهي التي استخرجها الغطاصون البولونيون بنهاية السبعينات من الطايق الثامن لحطام السفينة الغرقى. وبمناسبة اللقاء سلم طاقم القارب البولوني (شكفال) اللقية علامة على التقارب البولوني ـ الألماني. لكنه كان السيد شون من قرع الأجراس بالمطرقة بنهاية القداس.

كان معاون رئيس الصرافين في الثامنة عشرة عندما غرقت السفينة غوستلوف. لن أخفي أن الرجل الذي بحث وجمع كل ما أمكن العثور عليه بعد الحادث، لم يلق إلا القليل من الاعتراف بالجميل. عندما القى في مستهل الاحتفالات محاضرته عن «غرق السفينة فيلهلم غوستلوف في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥ من وجهة نظر الروس» وتبيّن في مجرى الخطاب كم زار الاتحاد السوفييتي لاجراء أبحاثه بل والتقى بأحد بحارة الغواصة S13 وأكثر، فإنه أقام علاقات صداقة مع فلاديمير كوروتشكين، ذلك الرجل الذي أطلق الطوربيدات بناء على أوامر قائده بل والتقط معه صوراً تذكارية وهو يصافح العجوز، فإنه، كما جاء لدى هاينز شون لاحقاً، «خسر الكثير من الأصدقاء».

ألغي دوره بعد المحاضرة واعتبره كثير من المستمعين صديقاً للروس. لم تتوقف الحرب بالنسبة لهم. بالنسبة لهم كان الروسي هو إيفان، كان الروسي الطوربيدات الثلاثة فقط. أما من وجهة نظر فلاديمير كوروتشكين فقد كانت السفينة المجهولة لديه ممتلئة بالنازيين الذين استولوا على وطنه ولم يتركوا خلفهم إلا أرضاً محروقة. عبر هاينز شون عرف بغرق أكثر من أربعة آلاف طفل، تجمدوا بعد قذف الطوربيدات أو أن السفينة جذبتهم معها إلى الأعماق. ويقال أن البحار العجوز حلم بهؤلاء الأطفال مراراً وأن الكوابيس عذبته.

لا بد وأن قرع اجراس السفينة المستخرجة من أعماق البحر خففت قليلاً من وقع الإهانة التي لحقت بهاينز شون. لكن ابني الذي عرض قاذف الطوربيدات متحداً مع باحث غوستلوف في صورة على موقعه الألكتروني للعالم أجمع، ربط هذه الاشارة التفصيلية إلى الأثر الرجعي لتراجيديا الصلات بين الشعوب بالإشارة إلى مصدر الغواصة المميزة، بأن ركز على «الكيفية العالية للصناعة الألمانية» وبالغ في الزعم بأن السوفييت تمكنوا من النجاح في أعالي (شتولبه بانك) فقط بفضل قارب بني على أساس التصميم الألماني.

وأنا؟ التجأت بعد القداس إلى الشاطئ المعتم. مشيت ذهاباً وإياباً. وحيداً وخلياً من الأفكار. ولأن الهواء ساكن فقد كانت أمواج بحر الشرق تتكسر متهالكة على الشاطئ، دون أن تقول هي الأخرى شيئا.

# ٥

هذا ينخر في عظام العجوز. يقول: في الحقيقة كان من واجب جيله أن يعير اهتمامه لبؤس الفارين من شرق بروسيا، الزحف الشتوي على الغرب، الموت في العواصف الثلجية، النفوق على حافات الطرق وفي ثقوب الجليد حالما بدأ الخليج المتجمد بالتكسر بعد القصف وتحت عبء العربات وقدوم المزيد من البشر من (هايليغن بايل) على سهوب الثلج خشية الانتقام الروسي... الفرار... الموت الأبيض. يقول: كان المفروض ألا يسكت أحد على كل هذه الرزية، فقط لأن الذنب الشخصي كان عظيماً ولأن الإقرار بالندم كان ملحّاً طوال هذه الأعوام، وألا تترك الموضوعة المحرمة تتناولها الأوساط اليمينية. كان هذا تقصيراً لا قرار له...

لكن العجوز الذي نفذت قدرته على الكتابة، يعتقد الآن أنه وجد فيّ من يطالب بالكتابة في محله ـ «نيابة»، كما يقول ـ عن توغل الجيوش السوفييتية في الرايخ، عن (نمرسدورف) وعواقبها. يقيناً، أنا أبحث عن الكلمات. إلا أنه ليس هو من يرغمني، إنما الأم. وبسببها فقط يتدخل العجوز، مرغماً بدوره تحت تأثيرها، ليرغمني وكأن الكتابة لا تتم إلا تحت الإكراه. وكأن لا شيء يجري على الأوراق دون الأم.

يدعي أنه عرفها ككائن لا يدرك. كائن لا تطلق عليه الأحكام. يرغب في تولا التي تحتفظ بحيويتها وقدرتها على الاشعاع وأنه خذل بها. اسمع منه أنه لم يتوقع قط أن تتحول تولا بوكريفكه الناجية من الغرق إلى هكذا وجهة مبتذلة كأن تصبح مسؤولة حزبية مثلاً أو ناشطة تؤدي واجباتها بصرامة. كان المتوقع منها أن تقوم بعمل فوضوي، لا عقلاني، باعتداء بالقنابل دون أية مبررات أو موقف ترتعش له الأوصال. فأولاً وأخيراً، يقول، كانت تولا المربوعة هي من أسمت جبل العظام بصوتها العالي: «هادا جبل عضام» وذلك في زمن الحرب ووسط العميان طوعاً على الناحية الأخرى من بطارية المدفعية المضادة للطيران عندما تعرفت على ركام من العظام البشرية.

لا يعرف العجوز الأم. وأنا، هل أعرفها؟ على كل حال كان لدى الخالة جيني احساس ما بكينونتها أو شبحها وهي التي قالت لي مرة، أنه لا يمكن الاحاطة بالأم. لم يتمكن أحد من قيادتها إلى النهج حتى عندما كانت كادراً حزبيا. وعندما أردت الهرب إلى الغرب، اكتفت بالقول: «شو دخلني، بدك تروح روح» ولم تش بي ما أدى إلى تعرضها للسين والجيم، بل وطرق بابها فرع أمن الدولة في شفيرين عدة مرات دون نتيجة تذكر...

كنت آنذاك أملها ومناها. لكن وعندما لم تخرج مني شرارة واحدة واكتفيت بتضييع الوقت سدى بدأت، حالما انهار الجدار، بعجن ابني. كان كوني في العاشرة أو الحادية عشرة عندما وقع لأول مرة بين براثنها. ومنذ لقاء الناجين في دامب، حيث كنت صفراً على الشمال وأصبح هو ولي العهد، نفحته بحكايات الفارين، بحكايات الفظاعة والوحشية وحكايات الاغتصاب، التي رغم أنها لم تشهدها

بعينها، إلا أنها أشيعت في كل مكان، منذ زحفت الدبابات الروسية وتقدمت في (غولداب) و(غومبينن) لينتشر الرعب.

ربما كان الأمر كذلك. هكذا كان تقريباً. عندما استعاد الجيش السوفييتي الثاني منطقة نمرسدورف من قوات الجيش الألماني الرابع اشتم، شوهد، عدد، صور وعرض في أفلام نشرات الأخبار في عموم الرايخ، كم من النساء اغتصب الجنود الروس، فتلوهن وصلبوهن على أبواب مخازن الغلال. لحقت الدبابات T34 بالفارين وطحنتهم طحنا. طرح الأطفال المبعوجون في الحدائق وحفر الشوارع. وصفي حتى الأسرى الفرنسيون، الذي كانوا مرغمين على العمل في الأراضي الزراعية قرب نمرسدورف، أربعون بالتمام والكمال، كما زعموا.

وجدت هذا والمزيد من التفاصيل تحت العنوان المعروف في الانترنت. علاوة عليه نشر نداء مترجم عن الروسية للكاتب ايليا اهرينبورغ، تطالب كلماته جميع الجنود الروس بالقتل، بالاغتصاب وبالثأر للوطن الذي جعلته الوحوش الفاشية أرضاً خراباً، «للأم روسيا». بلغة البلاغات الرسمية آنذاك وتحت العنوان www.blutzeuge.de اشتكى ابنيّ، الذي اكتشفته كامنا وراء العنوان: «هذا ما فعله الروس الدنئيون بالنساء الألمانيات العزلاوات..». «مازال هذا الإرهاب يهدد أوروبا قاطبة، هذا إذا لم نرفع سداً في وجه الطوفان الأسيوي..» وأضاف إعلاناً انتخابياً للحزب الديمقراطي المسيحي من الخمسينات يعرض وحشاً مفترساً بملامح آسيوية.

قرأت هذه الجمل وأشباهها المصورة، منشورة في الشبكة ويطلع عليها لا أعرف كم من المستخدمين، وكأنها مطبوعة بطابع الحاضر

رغم عدم ذكر انهيار روسيا في الإغماء أو الفظائع التي تجري اليوم في البلقان وفي رواندا الافريقية. وكي يزين برامجه المستحدثة اكتفى ابني بمقابر الماضي التليد، وهذه أثمرت سيان من كان طلابها.

لم يبق لي إلا القول إن احتقار اللغة الروسية المدروس تحول فجأة، عندما صارت نمرسدورف تجسيداً للرعب، إلى الذعر من الروسي. دفعت التقارير الصحفية، التعليقات الإذاعية والصور التلفزيونية عن المناطق المحررة إلى الفرار الجماعي من بروسيا الشرقية، الذي تصعد منذ منتصف كانون الثاني مع الهجوم الروسي الشامل إلى حالة من الهستيريا والهلع. بدأ الموت على حافات الشوارع مع الهرب على الطرقات الزراعية. لا أستطيع أن أصفه. لا يستطيع أحد أن يصفه. كل ما يمكن قوله: وصل قسم من الفارين إلى موانئ بيلاو، دانتسيغ، وغوتنهافن. حاول مئات الآلاف اللجوء إلى ظهر السفن نفاذاً من الفزع المتقدم. تزاحم مئات الآلاف ـ تؤكد الاحصائيات على انقاذ مليوني لاجئ نحو الغرب ـ على متن السفن الحربية، السفن التجارية وسفن الركاب، وهكذا ازدحم الناس أيضا على السفينة فيلهلم غوستلوف الراسية منذ سنين وسنين على رصيف اوكسهوفت في ميناء غوتنهافن.

أتمنى لو استطعت التهوين كما يفعل ابني، الذي أذاع على صفحته الالكترونية: «استقبلت السفينة الأمهات والأطفال، الفتيات والنساء الهاربات من الوحش الروسي بسكينة وانتظام..». لماذا أغفل ألف بحار عسكري وثلاثمائة وسبعين من المساعدات الحربيات، الذين كانوا في الآن ذاته على متن السفينة. ولماذا أغفل طاقم المدفعية المضادة للطائرات التي ركبت على عجل. رغم أنه ذكر في جملة

ثانوية أن بعضاً من الجرحى حملوا على متنها في البداية ومع دنو نهاية الحرب ـ «كان بينهم مقاتلون شجعان من جبهة كورلاند الصامدة في وجه الصدمة الروسي. . . » ـ، إلا أنه لما بدأ يصف تحويل السفينة الثكنة إلى سفينة شحن قادرة على الإبحار، ورغم أنه أحصى بدقة بالغة كم قنطاراً من الدقيق والحليب المجفف، عدد الخنازير المذبوحة على متن السفينة، لم يكشف عن عدد المتطوعين الكرواتيين، الذي الزموا باكمال تعداد طاقم السفينة، رغم سوء تأهيلهم. لا شيء عن العجز في أجهزة الإشارة. لا شيء عن التمرين على حالة الطوارئ: «ارموا الأثقال». من المفهوم لماذا حذف الإشارة إلى تأسيس مركز الولادة بعناية شديدة، لكن ما الذي منعه من ذكر حال جدته التي كانت حاملاً في أيامها الأخيرة أنذاك؟ لا كلمة عن قوارب النجاة العشرة المفتقدة والتي انتدبت للتمويه على القصف الجوي وعوضت بزوارق تجذيف ذات الاستيعاب القليل وزوارق الانقاذ الخفيفة المصنوعة من ألياف شجر الكابوك. هل أراد أن يقدم غوستلوف لقرائه على أنها سفينة لاجئين فقط.

لماذا كذب كوني؟ لماذا غش الصبي نفسه والآخرين؟ لماذا لم يرد، وهو الدقيق في التفاصيل والمندهش بالسفينة منذ زمن قمم حتى نفق الامواج وأقصى زاوية في مغاسلها، أن يعترف أن الشاحنة الراسية على الرصيف لم تكن سفينة للصليب الأحمر ولا سفينة محملة بالفارين فقط، إنما سفينة ركاب مسلحة وموضوعة في خدمة الاسطول الحربي، تحمل في ردهاتها كل ما هب ودب من الحمولة؟ لماذا أنكر ما سبق وأن دوّن في الكتب ولم يعد ينكره حتى أبناء الأمس الأبديين؟ هل أراد أن يختلق جريمة ويبهر بها حليقي الرأس في ألمانيا والعالم؟

هل كان يعوز ضحية طاهرة، بحيث أنه لم يسمح بظهور خصم القبطان المدني بيترسون الرائد البحار تسان مع كلبه على صفحته الالكترونية؟

لا أستطيع إلا أن أخمّن ما أدى بكوني إلى الغش: ربما الرغبة المتعطشة في صورة واضحة للعدو. إلا أن الأم أوردت لي حكاية الكلب في واقعها، فقد كانت مولعة بالكلاب منذ طفولتها. كان تسان يصحب كلبه إلى متن السفينة منذ سنين. كان الكلب يرافقه أنى كان، أعلى سطح السفينة أم في قاعة اجتماعات الضباط. قالت الأم: «كان فينا نشوف من تحت كيف كان واحد كابتن يوقف على طرف السفينة مع كلبه ويتطلع فينا نحنا الهربانين من فوق انفه. كان شكله تماما متل شكل كلبنا هاراس..». كانت تعلم المجريات على الرصيف: «زحمة وكل شي داخل في بعضه. في الاول سجلو اسامي اللي وصلو للدرج واحد واحد، بس بعدين لا عاد في ورق ولا بطيخ..». وهكذا سيبقى التعداد مجهولاً إلى الأبد. لكن ما الذي تقوله الأرقام؟ الأرقام لا تصدق أبداً. على المرء أن يخمن الباقي تخميناً. قيدت أسماء ستة آلاف وستمائة شخص، بينهم خمسة آلاف لاجئ. لكن المزيد ممن لم يحصوا صعد بعد ٢٨ كانون الثاني، هل بلغ عدد الذين لا أسماء لهم ولا أرقام ألفين أم ثلاثة! فقد طبعت مطبعة السفينة عدداً قريباً من بطاقات الاطعام الإضافية التي وزعتها المساعدات المدربات على الخدمة. في هكذا أحوال لا يهم إن زاد العدد أو نقص مائة أو مائتين. لا أحد يعرف العدد بالتحديد. فلا أحد مثلاً يعرف عدد عربات الأطفال التي ركنت في غرف الشحن، وليس لأحدهم أن يخمن عدد الرضع، الأطفال والفتيان على المتن إلا تخميناً.

وأخيراً، شحن المزيد من الجرحى وآخر عصبة من المساعدات الحربيات. كن فتيات في مقتبل العمر أوين إلى حوض السباحة المجفف، أي الطابق الأدنى تحت مستوى سطح البحر، لأن الكابينات امتلأت على آخرها.

يجب تكرار ذكر هذا التحديد والتشديد عليه، لأن ابني سكت عن كل ما يتعلق بالمساعدات في البحرية وفخ الموت، حوض السباحة. أبدى اعجابه بـ«الفتيات ذوات الدم الحار، اللواتي رغبن في حفظ عفتهن من الوحش الروسي على السفينة» واكتفى به عندما جاء على عمليات الاغتصاب على صفحته الالكترونية. استعدت نشاطاتي عندما قدّم لي ابني هذه الحماقات، دون أن أدعه يعرف أني والده وأدليت حالما فتح منتداه للزوار بملاحظتي: «كانت فتياتك العاجزات يرتدين أزياء عسكرية، أزياء عسكرية جميلة حتى. كن يرتدين تنانير زرقاء شاحبة تصل حتى ركبهن وستراً مخاطة على مقاسهن. كان على شعرهن قبعات عسكرية مائلة عليها شعار النسر والصليب المعقوف سواء كن بريئات أم لا. كن متدربات عسكرياً وأقسمن على اسم زعيمهن».

لكن ابني لم يرغب في التواصل معي. وعلى أية حال فقد تواصل مع غريمه الذي اخترعه والذي ألقى على أسماعه التعاليم كعنصري أصيل: «باعتبارك يهودياً لن تتمكن أبداً من أن تفهم كم أعاني حتى الآن من تدنيس شرف البنات الألمانيات من قبل القلموق، التتار وأصناف المغول الأخرى. لكن ما الذي يعرفه اليهود عن نقاء الدم».

كلا، ليست الأم من لقنته هذا. أم أنها فعلت؟ قالت لي مرة، عندما وضعت أمامها على طاولة المطبخ مقالي عن الجدل الدائر حول

النصب التذكاري للهولوكوست في برلين، أثناء زيارة قصيرة لها في غروسه دريش، أنه ظهر في فناء عمها النجار «ولد سمين منمش» رسم رسماً قريباً من صورة الكلب المربوط إلى قيوده: «هادا كان واحد يهودي تطلع معه على طول شغلات عجيبة وغريبة، بس هو كان نص يهودي متل ما كان أبي بيقول. هو حكا لي هيك قبل ما يقلّعه من الحوش، كان اسمه امزل..».

تمكنت الأم ووالداها من الصعود إلى متن السفينة في الثلاثين من كانون الثاني. «وصلنا في آخر لحظة». وهنا فقدوا قسماً من متاعهم. في الظهر صدرت الأوامر بالإقلاع. وظل المئات على الرصيف.

«كنت فضيحة مشان البابا والماما بسبب بطني الطالعة. واذا صار وسأل عني واحد من الهربانين، كانت الماما تقول [خطيبها عم يقاتل على الجبهة] أو [كان المفروض تصير خطبة بالوكالة مع خطيبها اللي عم يقاتل عالجبهة الغربية] بس كانوا بيعيروني لما نكون لحالنا. وأحلى شي انهن فصلونا عالسفينة عن بعض. دخّلوا الماما والبابا في بطن السفينة لأنه كان في شوية محل واخدوني أنا لغرفة الحوامل فوق..».

لكن الأوان لم يكن قد حان. عليّ مرة أخرى أن أتراجع كالسرطان كي أتقدم. في اليوم السابق ـ وليلة كاملة قبله ـ اقتعد آل بوكريفكه امتعتهم وصررهم وسط تلال من الفارين المرهقين وطوابير اللاجئين. كانوا من اللسان البحري سالماند في أرياف المازور. كانت دفعة أخيرة فرت من (البينغ) القريبة التي سحقتها الدبابات السوفييتية، لكنها مازالت تقاوم على ما يبدو. كما ازدحم المزيد والمزيد من النساء والأطفال من دانتسيغ، من تسوبوت وغوتنهافن بين عربات

الخيول، عربات الجر وعربات الأطفال. حكت لي الأم عن الكلاب الشاردة التي، لأنها منعت من صعود السفينة، ارهبت الأرصفة في جوعها. نزعت الأسرجة عن الخيول في بروسيا الشرقية وسلمت في المدينة إما إلى جنود الجيش أو الجزارين. لم تكن الأم تعرف هذا بالضبط. علاوة عليه لم تكن تتأسف إلا لحال الكلاب: «كانو يعوو بنص الليل متل الذياب..».

عندما ترك آل بوكريفكه شارع الزن، امتنع أقرباؤهم من آل ليبناو اللحاق بالبقية الباقية من عائلة مساعد النجار بأمتعتها. كان معلم النجار متعلقاً أكثر من اللازم بالمساحج، بالمناشير، بالملازم، بمخزون الخشب وبدار الأجرة رقم ١٩، الذي كان يملكه. كان ابنه هاري، الذي عرضته عليّ الأم كأب مفترض لي، قد جُنّد في خريف العام الفائت. في مكان ما، على إحدى الجبهات المتقهقرة، كان جندي إشارة أو مشاة المدفعية.

علمت بعد الحرب أن البولونيين طردوا جدي المفترض وزوجته بعد نهاية الحرب، مثلهم مثل بقية الألمان. زعموا أنهما في الغرب، في لوينبورغ، وأنهما توفيا الواحد بعد الآخر، هو حزناً على ورشته التي ضاعت من يديه والكثيرَ من إطارات الأبواب والنوافذ المرمية في قبو منزل الإيجار.

لم يكن كلب الحراسة الذي تزعم الأم أنها قضت أسبوعاً كاملاً في كوخه عندما كانت طفلة، على قيد الحياة منذ زمن بعيد وتزعم أن أحدهم ـ تقول: «واحد من رفقات اليهودي» ـ سممه قبل انطلاقة الحرب.

يحتمل أن يكون آل بوكريفكه صعدوا متن السفينة ضمن إحدى

الدفعات الأخيرة، بل قبلوا عليه لأن الحبل كان ظاهراً على ابنتهم. لكان في امكان الشرطة التي تراقب الرصيف أن تعتبر أباها صالحاً للوثبة الشعبية الأخيرة إلا، ولأنه كما تقول الأم «كان نص زلمة»، نفذ من أيديهم. وفي جميع الأحوال، فقد خفت المراقبة في النهاية. عمت الفوضى. جاء الأطفال على السفينة دون أمهاتهم. وكم كان على الأمهات أن يرين بأعينهن كيف ينتزع أطفالهن من أيديهن على الجسور، كيف يرمون من فوق الحواف وكيف يختفون بين جدران السفينة والرصيف في مياه المرفأ. لم تفد صيحات الاستغاثة شيئاً.

ريما كان آل بوكريفكه تمكنوا من العثور على مكان آخر على السفن التجارية (اوسيانا) و(انطونيو دلفينو) أيضاً رغم أنهما كانتا معبأتين بالفارين حتى آخرهما. كانت السفينتان بدورهما راسيتان على رصيف غوتنهافن اوكسهوفت، «رصيف الرجاء الصالح» كما كان يسمى. وصلت سفينتا الشحن متوسطتا الحجم غايتيهما في كيل وكوبنهاغن. إلا أن ارنا بوكريفكه أبت إلا أن تصعد إلى غوستلوف، «وبجهنم، يصير اللي يصير»، لأن لها ذكريات جميلة مع رحلة قمم إلى المعبر النرويجي على ظهر السفينة الآلية المتلألئة بياضا. كانت قد دست في متاع الساعة الأخيرة البوم الصور الذي تحتفظ فيه بما التقطته من صور في رحلة الاصطياف.

سيكون ارنا واوغوّست بوكريفكه تعرفا على باطن السفينة بالكاد، لأن جميع ردهات الاحتفالات والطعام، المكتبة الفارغة، صالة الازياء الشعبية ورواق الموسيقى ـ المجرد الآن من الصور ـ تحولت إلى مخيمات للأسرة يعلو فيها الضجيج. وحتى الممرات وطابق التنزه الزجاجي كانت تشهد ازدحاما كالنشور. ولأن آلاف الاطفال،

معدودين وغير معدودين، كانوا بين الحمولة البشرية، فقد كانت صيحاتهم تمتزج بزعيق مكبرات الصوت التي تذيع أسماء البنين والبنات التائهين.

اتخذت إحدى الممرضات قراراً بفصل الأم عن أبويها، عندما صار آل بوكريفكه على متن السفينة دون أن يقيدوا في السجلات. يظل مجهولاً إن كان الزوجان قد حشرا بحسب ارشادات مساعدات البحرية المتمكنات في إحدى الكابينات المشغولة سلفاً أم أنهما وجدا بمتاعهما مكاناً في إحدى المخيمات الجماعية. لن ترى تولا بوكريفكه أهلها وألبوم الصور بعدها قط. اكتب هذا بالتسلسل، لأنه يبدو لي أن خسارة البوم الصور آلمت الأم أيما ألم، فمعه ضاعت جميع الذكريات التي التقطها صندوق كوداك العائلي والتي كانت تشاهد عليها مع أخيها كونراد، ذي الشعر الأجعد، على بحيرة (زوبوت)، مع صديقتها جيني وأبيها بالتبني، مدرس الثانوية، أمام تمثال غوتنبرغ في غابة (يشكنتال)، وكثيراً مع الكلب هاراس، كلب الرعاة نقي العرق والفحل الشهير.

كانت الأم تتحدث عن الشهر الثامن، إذا جرى الحديث عن زمن صعود السفينة في حكاياتها اللانهائية. أغلب الظن أنه كان الشهر الثامن. سواء في أي شهر كانت، فقد حولت تولا بوكريفكه على مركز الحوامل والنافسات. وكان هذا يجاور ما يسمى بالعريش، الذي يتأوه فيه الجرحى المتلاصقين. كان العريش متعة خاصة للمسافرين المصطافين في اوقات قمم كحديقة شتاء ويقع تحت مركز القيادة مباشرة. وكان تحت امرة الدكتور (ريشتر)، كبير ضباط الصحة في كتيبة التأهيل الثانية للغواصات، وكذلك مركز الحوامل والنافسات.

كلما حدثتني الأم عن صعود السفينة، كانت تقول لي: «أخيراً صار في دفا. وكمان جابو لي حليب ساخن مع كعكه فيها عسل..».

لا بد وأن الوضع السائد في مركز الحوامل والنافسات كان طبيعياً، فمنذ البدء باستقبال الركاب ولد فيه اربعة أطفال «كلون ولاد، يخزي العين»، كما وصل سمعي.

زعموا أن السفينة فيلهلم غوستلوف كانت تحمل على متنها كثيراً من القباطنة، لسوء حظها. ربما. لكن على ظهر التيتانيك تواجد قبطان واحد فقط، ورغم ذلك لم تأخذ الأمور مجرى طبيعياً في باكورة رحلاتها. في كل حال، قالت الأم أنها وقبل ان تقلع السفينة أرادت أن تحرك قدميها قليلاً وأنها دخلت مركز القيادة ـ «بس طابق واحد فوق» ـ دون أن يلحظها الحرس، «وشفت كيف عم يتخانق دب بحري ختيار مع واحد تاني كان عنده دقن».

كان الدب البحري القبطان بترسون، الملاح المدني الذي قاد عدداً من سفن الركاب في زمن السلم، بينها غوستلوف ذاتها لوقت قصير، ووقع في أسر الانكليز بعد انطلاقة الحرب، ليعمل على كاسحة للجليد، ثم اعتبر غير صالح للحرب بسبب سنه وبعد أن وضع امضاءه على بيان يؤكد فيه ألا يصعد سفينة رباناً، رحّل إلى ألمانيا. ولذا عين «قبطاناً في الخدمات الثابتة» على «الثكنة العائمة» في رصيف اوكسهوفت.

لن يكون صاحب الذقن إلا الرائد البحري القبطان فيلهلم تسان، الذي يرقد كلبه حسن عند قدميه أنى مضى. اعتبر قائد الغواصة الذي لم يشهد إلا نجاحاً بسيطاً قائداً للشحن الحربي على ظهر السفينة المحملة بالفارين. ولتخفيف العبء عنه، كان تحت امرة القبطان

العجوز، الذي تنقصه الخبرة العملية في قيادة السفن، اثنان من القباطنة الشباب، من ذوي الخبرات في بحر الشرق، اسمهما (كولر) و(فلر). أخذ الاثنان من رصيد البحرية التجارية ولهذا عاملهما ضباط الاسطول الحربي، وخاصة تسان، باحتقار، فقد كانوا يتناولون الطعام في حجرات متفرقة ولا يتحادثون إلا قليلاً. بهذا اتحدت المتناقضات في مركز القيادة كما اتحدت المسؤولية عن الحمولة التي لا تتحملها السفينة، فقد كانت غوستلوف سفينة نقل عسكرية من ناحية ومن ناحية أخرى سفينة لنقل الجرحى والفارين.

كانت غوستلوف بلون الحرب الرمادي هدفاً لا يميز بسهولة. وماتزال ترسو في حوض المرفأ محمية، هذا إذا استثنينا احتمال القصف الجوي. كان الشجار المزمع عليه بين القباطنة لا يزال راكداً. لم يكن قبطان آخر قد علم بسفينة تحمل على متنها اطفالاً وجنوداً، أمهات ومساعدات للبحرية وكذلك بطارية مضادة للطائرات.

ظلت الغواصة S13 في الاسطول الأحمر في بحر البلطيق راكدة حتى نهاية كانون الأول. ولما رممت الغواصة، ملئت خزاناتها، ادخلت فيها المؤونة وحملت بالطوربيدات، صار عليها أن تسبح بحثاً عن الأعداء. لكن القبطان افتقد!

منع الكحول والنساء الكسندر مارينسكو من أن يقطع إجازته على الأرض ويكون في الوقت المناسب، قبل انطلاق الهجوم الشامل الذي سيغطي البلقان وبروسيا الشرقية، على متن الغواصة. زعموا أن «بوتينكا»، المشروب الفنلندي المقطر من البطاطا، أفقده صوابه وأنساه الذاكرة. لم تنجح كل مساعي البحث عنه في بيوتات الدعارة وغيرها من الأمكنة التي تعرفها الشرطة العسكرية محلاً محتملاً لارتياده. كانت الغواصة تفتقد قبطانها.

مثل مارينسكو يقظاً في (توركو) في ٢ كانون الثاني. وللحال استجوبته المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية واتهمته بالجاسوسية. ولأنه نسي جميع محطات إجازته المطولة، لم يستطع أن يقدم دليلا على براءته سوى ثقوب سوداء في ذاكرته. بالمحصلة تمكن رئيسه، القبطان درجة أولى (اوريل) أن يؤخر إعلان المحكمة الحربية بإشارته الملحة إلى أمر الرفيق ستالين بالهجوم. فلم يكن في ملاكه إلا القليل من القادة ولم يكن راغباً في الاجحاف بحق قوة فرقته. وعندما تدخل طاقم S13 في مجرى التحقيق وقدم التماساً للعفو عن قائده، ظنته المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية بداية لتمرد وأمر أوريل قائد الغواصة، غير الموثوق به على الأرض، بالسباحة فوراً نحو (هانغو)، التي تركت S13 ميناءها بعد اسبوع. فتحت كاسحات الجليد المجرى أمامها. ستأخذ الغواصة طريقها إلى ساحل البلطيق مروراً بالجزيرة السويدية (غوتلاند).

يتوافر فيلم بالأبيض والأسود صور بنهاية الخمسينات. اسمه الليل يهبط على غوتنهافن، يمثله نجوم مثل (بيرغت هورني) و(سونيا تسيمان). استشار المخرج الأمريكي الألماني (فرانك فيسبار) الذي سبق وأن أخرج فيلماً عن ستالينغراد، اخصائي غوستلوف هاينز شون. عرض الفيلم، الذي منع في الشرق، بنجاح مقبول في الغرب ونسي، مثله مثل السفينةٍ التعيسة، ولا يشكل الآن سوى رواسب في الأرشيفات.

شاهدت الشريط مع صديقة أمي جيني برونيس، التي كنت أسكن عندها طالباً في برلين الغربية، نزولاً عند الحاحها ـ «اعلمتني صديقتي تولا، كم تتشوق إلى زيارتنا المشتركة للسينما» ـ، وخاب رجائي فيه.

كان الحدث يسير دائماً على نفس المنوال. وكما في جميع الأفلام عن التيتانيك، كان لابد من حشر حكاية حب معذب تنتهي نهاية بطولية في سيناريو غرق غوستلوف، لتملأ فراغات الفيلم. وكأن غرق سفينة ملأى بالركاب حتى آخرها لا يكفي تشويقاً، وكأن موت الآلاف لا يكفي مأساة.

صندوق للعلاقات العاطفية في زمن الحرب. يعرض شخصيات الحكاية المثلثة في «الليل يهبط على غوتنهافن»، بعد تقدمة مطولة في برلين، بروسيا الشرقية وأمكنة أخرى جندي يقاتل على الجبهة الشرقية كزوج مخدوع جريح على السفينة، الزوجة الخائنة برضيعها والتي تمكنت من الوصول إلى ظهر السفينة كشخصية مغرية وضابط بحرية طائش كعشيق لها، والد ومنقذ الرضيع. ورغم أن الخالة جيني تأثرت في بعض المشاهد لدرجة البكاء، إلا أنها لما دعتني لأول كأس في حياتي إلى بار باريس، قالت لي: «أعتقد أن أُمك ما كانت ستجد الفيلم ممتعاً، لأنه لم يقدم ولا حالة ولادة واحدة، لا قبل ولا بعد الغرق..»، ثم أردفت: «في الحقيقة لا يمكن أفلمة هكذا شيء مرعب..».

أنا على يقين أنه لم يكن للأم عشيق على ظهر السفينة ولا أحد من أبائي المحتملين. قد تكون، كما كانت وستبقى، تمكنت من جذب رجال السفينة رغم بطنها العالية، فقد كانت تملك مغناطيساً داخلياً تسميه «شي خاص». فمثلاً وحالما رفعت المراسي رافق مجند في سلاح البحرية وسائق مستقبلي لغواصة ـ «هيك ولد شاحب وجهه معبا حبوب» ـ المرأة الحامل إلى سطح السفينة. دعاها قلق داخلي للوثوب على قدميها، قالت. اعتقد أن البحار كان في سن الأم، في

السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، عندما قادها من يدها بحذر على السطح الزلق لتجمده. ثم رأت بعينيها اللتين لا تفلتان شيئاً، أن الرافعات والأخشاب الداعمة وحبال تثبيت الحافتين المشدودة إلى قوارب النجاة وآليات تذويب الجليد، متجمدة. لطالما سمعت جملتها: «لما شفت هالشي ارتعبت». وفي دامب، عندما كانت محاطة بالسادة العجائز، نحيفة في ثوب أسود واقتادت ابني كونراد إلى عالم الناجين الضيق، سمعتها تقول: «وقتها اتضح لي كلياً انه مافي أي امكانية للخلاص بسبب الجليد. صار بدي انزل من الزورق وصيحت متل المجانين. بس اجت متأخرة..».

لم يعرض الفيلم الذي شاهدته مع الخالة جيني في شارع كانت شيئاً من كل هذا، لا قطع الجليد على روافع قوارب النجاة، لا السور المتجمد ولا حتى كتل الجليد في حوض السفن. مع أنه لم يرد فقط لدى شون، بل وفي كتاب الانكليزيين الثلاثة دوبسون، ميللر، بانيه، أن الجو كان صقيعياً في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥: ١٨ تحت الصفر. وجب على كاسحات الجليد أن تفتح ممراً في خليج دانتسيغ. توقعت الأرصاد الجوية عواصف بحرية.

إذا تساءلت رغم ذلك، إن لم يكن في وسع الأم أن تنزل من السفينة في الوقت المناسب، فإن الداعي إلى هذا الاعتبار التافه أصلاً يكمن في الحقيقة "المؤكدة، ألا وهي أن سفينة تجارية خاصة بالابحار في مياه السواحل - ريفال - ظهرت في الثلج المنهمر واتخذت الاتجاه المعاكس مباشرة بعد إبحار غوستلوف التي جرتها أربع جرارات من حوض مرفأ اوكسهوفت. كانت السفينة قادمة من (بيلاو)، آخر الموانئ في بروسيا الشرقية، محملة بالفارين من (تيلسيت)

و(كونيغسبرغ). كان الركاب متراصين على السطح لندرة المكان. وكما سيتضح، فقد كان الكثيرون تجمدوا أثناء الرحلة، لكنهم ظلوا منتصبين في قوالب الجليد.

عندما تركت السفينة الموقوفة غوستلوف بعض سلالمها، تمكن الناجون من انقاذ انفسهم على السفينة الأكبر كما خيل اليهم، للجوء إلى دفء الممرات المزدحمة و الفراغات على الدرجات.

أما كان في وسع الأم أن تأخذ الطريق المعاكس على أحد السلالم؟ كانت تعرف أن تتراجع دائماً في اللحظة المناسبة. يا للفرصة! لماذا لم تنزل من السفينة التعيسة إلى (ريفال)؟ لكنت، لو أنها هبطت على السلم رغم بطنها العالي، ولدت في مكان آخر ـ لا أعلم أين ـ، متأخراً وليس في ٣٠ كانون الثاني.

وها هو التاريخ الملعون يظهر مرة أخرى. إن التاريخ، وبقول أدق التاريخ الذي نحركه، مرحاض مسدود. ندفع فيه الماء وندفع وندفع، إلا أن البراز يعاود الظهور. مثلاً هذا الثلاثين الملعون. كم يلتصق بي وكم يضع ختمه على جبيني. لم أجن ثماراً من امتناعي عن الاحتفال بعيد ميلادي في دائرة الأصدقاء، دائرة الزملاء أو مع العائلة، سواء أكنت تلميذاً، طالباً، محرراً في الصحيفة أو زوجاً. كنت أخشى أن يسرج على ظهري في هذه المناسبات السعيدة المعنى الملعون ثلاثاً للثلاثين، عند رفع الأنخاب مثلاً. حتى لو بدا لي أن التاريخ، المسمن لحد الانتفاخ، صار هزيلا في التقويم السنوي. تمكنا من ان نطوّع الكلمات للمضي مع الماضي، نعاقبه، نغلبه، نتخلص منه بالحداد عليه.

لكن الحياة في الانترنت مازالت، أو عادت لترفع الرايات في

الثلاثين بمناسبة العيد الرسمي. على كل حال فقد أظهر ابني للعالم أجمع ذكرى الاستيلاء على السلطة في شكل ورقة حمراء من أوراق التقويم. كان لا يزال استاذاً للشبكة العالمية في المجمع السكني غروسه دريش في شفيرين، حيث يقطن منذ بداية العالم الدراسي مع جدته. تقول غابي، زوجتي سابقاً، أنها لم ترغب أن تمنعه من الانتقال إلى بيت جدته. بعيداً عن الاستذة الأمومية اليسارية إلى منبع إلهام الجدة. بل وأسوأ، فقد تخلصت من كل أصناف المسؤولية: «يستطيع كونراد أن يأخذ قراره بنفسه، لأنه سيصبح عن قريب في السابعة عشرة». لم يسألني أحد عن رأيي. افترق الاثنان «بالتراضي»، كما يقال. وبذلك تم الانتقال من بحيرة مولن إلى بحيرة شفيرين بهدوء وسكينة. بل وسارت أمور النقل المدرسي بسلاسة «بفضل علاماته الجيدة في المدرسة»، رغم أني لا أتصور ابني إلا سيئاً في عطن مدارس الشرق الراكد. «هذه أحكام مسبقة»، قالت غابي: «كوني يفضل النظام المدرسي الصارم هناك على مدارسنا المائعة». بل وادعت مطلقتي الرفعة: باعتبارها مربية تدعو إلى حرية التعليم والحوار المفتوح، ورغم خيبة أملها، إلا أنها توافق على قرار ابنها باعتبارها أماً. بل وحتى صديقته ـ هكذا علمت بوجود الممرضة لدى طبيب الأسنان ـ تتفهم موقفه، لكن روزي ستبقى في (راتزبورغ) وتلتقي بكونراد كلما سنحت الفرصة.

°

على أية حال فقد ظل شريكه في الحوار وفيا له. لم يستكره دافيد، ذلك الدعي المختَرَع أو الحقيقي، انتقال كوني أو لم يشعر به. فقد طفا على السطح، عندما افتتح منتدى ابني جدالا حول الثلاثين، بعد استراحة طويلة مع عباراته المعادية للفاشية ذاتها مرة أخرى.

بخلاف هذا كان الشت متعدد الأصوات: إما الاحتجاج المحتقن أو الموافقة العمياء. افتتح دكان حقيقي للنق. وللحال لم يعد إعلان الزعيم مستشارا للرايخ موضوع الحديث المثير، بل وبضربة واحدة عيد ميلاد فيلهلم غوستلوف. دارت الوقعة حول «الواقعة التي قدرتها العناية الالهية»، كما سماها كوني، والتي بحتميتها أبصر الشهيد نور الحياة في يوم الاستيلاء على السلطة لاحقاً.

قدمت هذه الاستنباطات لجميع مستخدمي الشت كمشيئة إلهية. ما دعا دافيد، الحقيقي أو المتخيل، لأن يسخر من جليات المطروح أرضاً في دافوس: «إذن فقد كانت العناية الالهية رأت أن تغرق السفينة المعمدة باسم مسؤولك الحزبي المخزي في يوم عيد ميلاده وبمناسبة الذكرى الثانية عشر لانقلاب هتلر بكل ما فيها، وبالضبط في لحظة ولادة غوستلوف، في تمام الساعة التاسعة وستة عشر دقيقة فرقعت ثلاث مرات..».

وهكذا جرى العرض كأنهما تمرنا عليه. إلا أني بدأت أشك في اعتقادي أن دافيد شخصية متخيلة، أن كائناً خرافياً يهذر بموشحات على غرار: «سيبقى اوشفيتز علامة أبدية على جباهكم انتم الألمان..» و«أنت المثال الحي على الشر المتكاثر..» أو عبارات يتحدث فيها دافيد بصيغة الجمع: «سنظل نحن اليهود نرفع شكوانا»، «نحن اليهود لن ننسى أبداً». وعليها كان فيلهلم يرد بعبارات مقتبسة من كتاب التعاليم العنصرية، التي يرد فيها ان «اليهودية العالمية» تقبع في كل مكان، وخاصة في وول ستريت في نيويورك.

معركة مريرة كانت. إلا أنهما كانا يخرجان أحياناً عن أدوارهما، مثلا عندما كان فيلهلم يمدح قوة الجيش الاسرائيلي، بينما يحكم دافيد

على المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية بـ«الاستيلاء العدواني على الأرض». كما كان يحدث أن يتفقا فجأة في احكامهما على بطولات كرة الطاولة. هكذا فضح نزاعهما الشخصي، الحاد مرة والرفاقي مرة أخرى، ان شابين وجدا بعضهما البعض في المسرح المتخيل، يمكن لهما أن يكونا صديقين حميمين رغم كل تبجحهما العدائي.

مثلاً عندما كان دافيد يبدأ بـ«هالو، يا الخنزير النازي الخشن. الآن ستعطيك خنزيرتك اليهودية الجاهزة للذبح بعض المعلومات كيف يمكن الاحتفال بيوم الاستيلاء على السلطة، مع قهوة باردة..». أو عندما يحاول فيلهلم أن يسرد نكتة: «سال اليوم كفاية من الدم اليهودي. يقول طباخ عظمك ولحمك، الذي يريد ان يسخن لك بسرور شوربة كوشر رمادية. باي باي وساسد الشباك».

لم يذكرا جديداً فيما يتعلق بالثلاثين. إلا أن كوني فاجأ صديقه اللدود بمعلومة: «لازم تعرف أن آخر ما سمعه الركاب في السفينة كان خطاب زعيمنا المفدى».

هكذا كان. فقد نقلت إذاعة ألمانيا العظمى خطاب هتلر إلى شعبه عبر مكبرات الصوت على السفينة غوستلوف. وفي مركز الحوامل والنافسات سمعت الأم، التي عملت بنصيحة الممرضة واستلقت على سرير عسكري، ذلك الصوت الذي لا يخالط: «في مثل هذا اليوم، قبل اثني عشر عاماً، وفي الثلاثين من كانون الثاني، هذا اليوم التاريخي المجيد، وضعت العناية الالهية قدر الشعب الألماني بين يدي..».

بعدها صرخ القائد الاقليمي لبروسيا الشرقية ببعض شعارات

الصمود والتصدي. وهذه اتبعت بموسيقى تراجيدية. كل ما قالته الأم عن خطاب الزعيم، كان: «خفت حقيقي لما حكى الزعيم عن القدر وهيك حكايات..». وبعد برهة بكماء كانت تقول أحياناً: «كأنه خطاب في مقبرة..».

آه لقد استبقت الحدث. جرى النقل الإذاعي لاحقاً. فمازالت السفينة تبحر في مجراها الهادئ نسبياً من خليج دانتسيغ إلى رأس شبه جزيرة (هيلا).

كان الثلاثون يوم ثلاثاء. ورغم الرقاد الطويل فقد عملت المحركات سواسية. البحر مضطرم، الثلج ينهمر. وزع الخبز والحساء مقابل بطاقات الاطعام في جميع الطوابق. لم يتمكن زورقا التقاط الطوربيد، اللذان كانا من واجبهما مرافقة السفينة حتى (هيلا)، من التغلب على الأمواج العاتية ومتابعة الرحلة، ووجب اخلاء سبيلهما عبر اللاسلكي. ولاسلكياً تم الاعلان عن هدف الرحلة. كان على سائقي الغواصات المستقبليين في كتيبة التأهيل الثانية، على الجرحى والمساعدات الحربيات أن يتركوا السفينة أو ينقلوا إلى أخرى، ولنزول الفارين عين مرفأ (فلينسبورغ). لا يزال الثلج ينهمر. أعلن عن أول المصابين بدوار البحر. عندما لاحت السفينة المحملة بدورها بالفارين (هانزا) في مرسى شبه الجزيرة هيلا، كانت المرافقة، عدا عن زوارق الحماية الثلاث، مكتملة التعداد. إلا أن الأمر صدر بانزال المراسي.

لا أريد أن أحصي الآن كل ما دعا السفينة تعيسة الحظ المنسية، لا بل المقصاة من الذاكرة، والتي بدأ شبحها يتجول فجأة عبر الانترنت، رحلتها بمرافقة زورقي حماية فقط، كلف الثالث بمهمة أخرى، ودون السفينة هانزا، التي عطبت محركاتها. كل ما يمكن

قوله: حالما دارت محركات السفينة بدأ صراع القوى في مركز القيادة. تنازع اربعة قباطنة مع وضد بعضهم البعض. لم يسمح بيترسون وضابطه الأول ـ كان بدوره من الأسطول التجاري ـ بسرعة تتعدى اثني عشر ميلاً بحرياً في الساعة. وكانت علتهما في ذلك: لا يمكن توقع المزيد من السفينة بسبب فترة الرقاد الطويلة. ولأن قائد الغواصة السابق تسان كان يخشى من اعتداء من موقع معلوم لديه، فقد أراد أن يزيد السرعة إلى خمس عشرة عقدة. تمكن بيترسون من فرض رأيه. ثم اقترح الضابط الأول، يعضده القبطانان كولروفلر أن تتخذ السفينة بعد أعالي (ريكسهوفت) مجراها في مياه الساحل الملغومة لكن الآمنة من الغواصات. إلا أن بيترسون، يدعمه هذه المرة تسان، قرّر السير في المياه العميقة خالية الألغام ورفض قطعياً نصيحة القباطنة الآخرين، بالابحار في طريق متعرجة. كانت توقعات الأرصاد الجوية المعضلة الوحيدة التي لم يتنازع فيها أحد: غرب ـ شمال ـ غرب، بقوة ستة إلى سبعة، متقلبة باتجاه الغرب، وتنخفض مساءً إلى حوالي خمسة. قوة الأمواج أربعة، تساقط الثلوج، مجال الرؤية من واحد إلى ثلاثة أميال بحرية، صقيع متوسط. لم تعلم الأم شيئاً عن الشقاق في مركز القيادة، عن العجز في زوارق الحماية وزيادة الجليد على السطح الأعلى ـ لم تعد مضادات الطائرات صالحة للعمل ـ وتتذكر أنها حصلت بعد خطاب الزعيم من الممرضة (هيلغا) على خمس قطع بقسماط، صحن من الرز بالحليب فيه سكر وقرفة. كانت أنات الجرحى تسمع من الجوار، من العريش. لحسن الحظ كان الراديو يذيع موسيقى راقصة. ثم نامت. لا، لم تشعر بآلام المخاض الأولى، فقد كانت الأم تعتقد أنها في الشهر الثامن.

لم تكن السفينة غوستلوف وحيدة في زحفها على ساحل (بومرن) بتسارع اثني عشر ميلاً بحرياً. فقد اتخذ القارب السوفييتي تحت المائي S13 الوجهة ذاتها. بخيبة أمل انتظر القارب المرتبط بوحدتين أخريين للأسطول الأحمر في بحر البلطيق قبالة مياه ميناء (ممل) سفنا تبحر أو تحمل الامدادات إلى بقايا الجيش الرابع. لم يدخل أي شيء مجال الرؤية عدة أيام. قد يكون قبطان S13 فكر في المحكمة الحربية التي تنتظره وفي استجواب المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية الذي يتهدده، بينما هو يترقب خائب الرجاء في مكمنه.

عندما علم الكسندر مارينسكو صبيحة الثلاثين عبر اللاسلكي أن الجيش الأحمر غزا (ممل) أعطى أوامره بالطريق الجديدة دون أن يعلم مركز القيادة. وبينما كانت السفينة غوستلوف ترفع على ظهرها آخر دفعات الفارين على رصيف اوكسهوفت ـ كان آل بوكريفكه صعدوا على متنها ـ، اتخذت الغواصة S13 اتجاه ساحل (بومرن) حاملة سبعة وأربعين رجلاً وعشرة طوربيدات.

وبينما تتقارب سفينتان شيئاً فشيئاً في هذا التقرير دون أن يحدث حدث حاسم، تسنح الفرصة لتدوين المجريات اليومية في أحد سجون غراوبويندن. كان السجناء يجلسون في ذلك الثلاثاء، كما في كل يوم، أمام أنوالهم. في هذه الأثناء كان المحكوم عليه ثماني عشرة سنة قاتل رئيس اللجنة المحلية لح.ع.ا.ق.ا، فيلهلم غوستلوف، قضى تسعة أعوام في سجنه. وفكر في ظل التغير الحاسم في ظروف الحرب ـ أعيد نقله إلى سجن زينهوف لأن الرايخ الألماني العظيم لم يعد يشكل خطراً ـ في أن يقدم التماساً للعفو، رفضته المحكمة السويسرية العليا في زمن تتحرك فيه سفينتان نحو بحر الشرق. لكن

ليس دافيد فرانكفزرت وحده من لم يعف عنه، بل وأيضاً السفينة التي أطلق عليها اسم ضحية جريمته.

# ٦

يقول أن تقريري يحمل جنين القصة. هذا التقييم الأدبي لايهمني في أي شيء. أنا اكتفي بالإخبار. في ذلك اليوم الذي كتبت فيه العناية الالهية أو أحد آخر من واضعي التقاويم السنوية نهاية السفينة، كانت أجراس نهاية الرايخ الألماني العظيم قد قرعت فقد كانت جيوش البريطانيين والأمريكان في محيط (آخن). ورغم أن غواصاتنا أعلنت عن إغراق ثلاث شاحنات في البحر الايرلندي، إلا أن الضغوط في جبهة الراين كانت تشتد على (كولمار). تصاعدت نشاطات الأنصار في سارايیفو في البلقان. انسحبت فرقة الجبال الثانية من (يوتلاند) النرويجية بغية مؤازرة القسم الشرقي من الجبهة. تقدمت الجبهة قبالة البرج في بودابست، حيث كانت الإمدادات تسوء يوماً بعد يوم. وانتشرت الجثث في كل مكان وجمعت إشارات التعريف ووزعت الميداليات بكرم.

ما الذي حدث أيضاً سوى أن السلاح السري ظل خفياً؟ ردت بعض الهجمات قرب (غولغاد) في شليزيا، إلا أن الوضع تدهور في محيط (بوزن). تمكن البحارة في (بيلاو) حتى ذاك اليوم، الذي لم يكن استثنائياً، من تحميل خمسة وستين ألفاً من المدنيين والعسكريين على السفن. أنجزت بطولات جديرة بالخلود في كل مكان ولاحت

بوادر أخرى. بينما كانت السفينة فيلهلم غوستلوف تقترب من (شتولبه بانك) في مجراها نحو الغرب، والقارب تحت المائي S13 يربض جائعاً، قامت قاذفات القنابل ذات الأربعة محركات بمهامها في محيط (هام)، (بيليفيلد) و(كاسل) وكان الرئيس الأمريكي ترك الولايات المتحدة الأمريكية. كان روزفلت في طريقه إلى كونفرانس يالطا في شبه جزيرة القرم، حيث أراد الرجل المريض أن يلتقي تشرشل وستالين للإعداد للسلام برسم خطوط جديدة للحدود.

وعن هذا الكونفرانس والكونفرانس التالي في بوتسدام، كان ترومان رئيساً بعد وفاة روزفلت، وجدت صفحات حقودة وتعليقاً هامشياً على صفحة ابني العليم: «وهكذا قطعوا أوصال وطننا ألمانيا..»، مع ملحق خاص بخارطة الرايخ الألماني العظيم علمت عليها الأراضي المقتطعة. ثم تكهن بالمعجزات الممكنة لو أن البحارة المقدمين على انهاء تدريباتهم على متن غوستلوف تمكنوا من الوصول بسلام إلى هدفهم في ميناء كيل ولو أنهم استلموا مهامهم كطواقم لاثنتي عشرة غواصة أو أكثر من الطراز الحديث، ذي السرعة الخرافية وعديمة الصوت XXIII. أدرج على قائمة رغباته كثيراً من الأعمال البطولية والأخبار العاجلة. لم يكن كوني يحتفي بالنصر النهائي متأخراً، بل إنه كان واثقاً أن اولئك الشباب كانوا يستحقون موتا أفضل من الغرق بتفاهة في أعالي شتولبه بانك، بأن يكونوا قضوا أو تمزقوا بشظايا الألغام وهو يجوبون بغواصاتهم أعماق البحار. ووافقه خصمه دافيد في التمييز بين أصناف الموت إلا أنه أبدى امتعاضاً: «ما كان لدى الشباب أي خيار. ولكانوا ماتوا بجميع الأحوال موتاً عادياً مثل موت الآخرين».

هناك صور جمعها خلال عقود مساعد رئيس الصرافين على السفينة. كثير من الصور الشخصية وصورة جماعية يظهر عليها جميع ملاحي دورة تدريب، كانت تدوم عادة أربعة أشهر لدى كتيبة تأهيل الغواصين الثانية، منتظمين في صفوف على سطح السفينة تقدموا ليرخوا أعضاءهم بعد أن صرخ فيهم الرائد البحري تسان: «استرح». يمكن التعرف على الوجوه حتى الصف السابع وجهاً وجهاً في هذه الصورة بالحجم المتوسط، التي تظهر عليها قبعات أكثر من تسعمائة ملاح وتصغر أبعادها باتجاه مؤخر السفينة. اما في الصور الشخصية، فيتطلع فيّ رجال في بزات عسكرية تبدو ملامحهم، رغم اختلاف وجوههم الصبيانية، غير منجزة. ربما كانوا في الثامنة عشرة. وبعض الفتيان، الذي أخذت لهم الصور في الأشهر الأخيرة للحرب في بزاتهم العسكرية، أصغر سناً. لكان ابني، الذي بلغ في هذه الاثناء السابعة عشرة، واحداً منهم، رغم أن كوني ما كان قبل به بين الغواصين لضعف نظره. يضع الفتيان قبعات البحرية التي يحيط بها شريط كتب عليه «الاسطول الحربي»، مائلة بأغلبها نحو اليمين قليلاً. أرى وجوها مدورة، طويلة، حادة الأطراف وأيضاً وجوهاً ممتلئة بين المرشحين للموت، ولا فخر لهم إلا البزة العسكرية. يتطلعون فيّ بنظرات جادة وكأنما يقدر التشاؤم آخر تعبيراتهم المصورة.

تعطي صور المساعدات الحربيات الثلاثمائة وثلاثة وسبعين المتوافرة لدي انطباعاً أكثر مدنية، رغم البرانيط المائلة مع النسر على الجبهة. تتداخل حلاقات شعر الفتيات ـ لابد أن أغلبهن ثبتن شعرهن بمسبلات الشعر أو مجعداته ـ وتبدو مموجة حسب الموضة. ربما كان الكثيرات منهن مخطوبات، بعضهن متزوجات. تشبه اثنتان أو ثلاثة

منهن، ذوات الشعر المسبل اللماع، زوجتي سابقاً. هكذا وجدت غابي عندما كانت تدرس علوم التربية متحمسة وخارت قواي للوهلة الأولى أمامها. تكاد جميع المساعدات الحربيات يكن جميلات من النظرة الأولى، بل وظريفات. بعضهن يظهرن نزوعاً مبكراً إلى لُغد لاحق. نظراتهن أقل جدية من نظرات الشباب. كل واحدة منهن تتطلع فيّ مبتسمة عفواً.

وحيث أنه لم ينقذ من أربعة آلاف رضيع، طفل وصبي على متن السفينة تعيسة الحظ أكثر من مائة، فلا تتوافر لهم إلا صور قليلة لأن أمتعة العائلات الفارة من بروسيا الشرقية والغربية، من دانتسيغ وغوتنهافن بما فيها من البومات الصور ضاعت بضياع السفينة. أرى أمامي صور أطفال تلك السنوات العقيمة. بنات بضفائر وربطات شعر، أولاد بمفرق شعر على اليمين أو اليسار. ونادرة هي صور الرضع، الذين لا ملامح لهم في كل الأحوال. صور الأمهات اللواتي قبرن في بحر الشرق واللواتي بقين على قيد الحياة دون أطفالهن، «التقطت» لهن قبل الحادث بكثير أو بعده، كما تقول الأم، التي لا تتوافر لها ـ مثلي عندما كنت رضيعاً ـ ولا صورة واحدة.

وكذلك لم تبق رسوم لأولئك الرجال والنساء، الفلاحين والفلاحات المازوريين، الموظفين المتقاعدين، الأرامل البسيطات والحرفيين، آلاف"الكهول والكهلات الذين أذهلم الرعب والتحقوا بالفارين على ظهر السفينة. لم يسمح للرجال متوسطي العمر بصعودها لاعتبارهم صالحين للوثبة الشعبية الأخيرة. بالكاد كان بين الناجين مسنون وقلة قليلة من المسنات. ولا تظهر أية صورة جرحى المعارك في جبهة كورلاند، الذي كانت أسرتهم تتجاور في العريش.

بين القليل من المسنين المنقذين، كان قبطان السفينة بيترسون في أواسط الستينات. في الساعة التاسعة كان القباطنة الأربعة في مركز القيادة يتشاجرون حول الأمر الذي أصدره بيترسون بإنارة أضواء تحديد الموقع، ذلك لأن وحدة التنقيب عن الألغام كانت أعلنت حوالي الساعة السادسة عن اتخاذها الطريق ذاتها بالاتجاه المعاكس. اعترض تسان. وكذلك ضابط الملاحة الثاني. ورغم أن بيترسون أمر باطفاء بعض الأضواء، إلا أنه منع اطفاء الأضواء على مقدم ومؤخر السفينة. وهكذا اتخذت معتمة القمة والأطراف طريقها في الثلج الخفيف والامواج العاتية، يرافقها قارب الطوربيد لوفه. وحيداً في حمايتها واقتربت من هدفها المرسوم على جميع الخرائط البحرية، شتولبه بانك. كان الصقيع المتوسط، الذي تنبأت به الأرصاد الجوية يعني ١٨ درجة تحت الصفر.

زعموا أن الضابط الأول في الغواصة السوفييتية S13 لمح أضواء تحديد الموقع البعيدة. وسواء من أبلغ بذلك، فقد صعد مارينسكو فوراً إلى برج القارب تحت المائي الذي يسبح فوق الماء. وكما روي، لم يكن يرتدي بالإضافة إلى طاقية الفرو الزرقاء، أو شاكّا، المعطف الحشو، بزة الخدمة الطويلة التي يرتديها ضباط الغواصات حسب التعليمات، إنما كان يلقي على كتفيه فرو الخراف الملطخ بالزيت. أثناء الابحار بالمحركات الكهربية تحت الماء لم يبلغ القبطان إلا بأصوات الزوارق الصغيرة. قرب هيلا أمر بالطفو. شغلت المحركات النفطية. وهنا التقطت أصوات سفينة يحركها محركان لولبيان. غطى انهمار الثلج المفاجئ على القارب، إلا أنه منع الرؤية في الآن ذاته. وعندما هدأ الجو لاحت معالم سفينة شحن عسكرية

بطاقة عشرين طناً وزورق مرافقة. حدث هذا من ناحية البحر والبصر يمتد من مركز قيادة الشاحنة نحو شاطئ بومرن. لم يحدث شيء.

لا أستطيع إلا أن أخمّن تخميناً، من الذي دفع قبطان S13 ليخاطر بمناورة حول السفينة وزورق المرافقة مبحراً بسرعة فوق الماء، ليبحث من ثم عن نقطة هجوم من ناحية الساحل على عمق يقل عن ثلاثين متراً تحت الزورق. حسب أقواله اللاحقة، كان يريد أن يصيب «الكلاب الفاشيين» إصابة بليغة أينما وجدهم.

لم يثمر البحث الذي دام اسبوعين عن طريدة. لم تطلق الطوربيدات، لا قرب جزيرة غوتلاند ولا قبالة المرافئ البلطيقية (فينداو) و(ممل). لم يترك ولا واحد من الطوربيدات العشرة في جوف الغواصة ماسورته. علاوة عليه، ربما كان بدن مارينسكو، الذي لا ينفع إلا في البحر، اقشعر خوفاً من محكمة حربية تطالب بها مفوضبة الشعب للشؤون الداخلية إذا عاد خائباً إلى أحد المواقع في (توركو) أو (هانغو). لم تكن جولة السكر الأخيرة وتجاوز مدة الإجازة الأرضية في بيوت العاهرات وحدهما ما يثقل عليه، فقد اتهم بالجاسوسية، هذه الشبهة التي شهدت تطبيقاً عملياً لها في الاتحاد السوفييتي أثناء عمليات التطهير في الثلاثينات ولا يفندها زعم ولا شهادة. وربما أنقذته عملية يشهد لها العيان.

بعد ساعتين من الإبحار على سطح الماء انتهت المناورة حول السفينة وزورق المرافقة. صارت الغواصة S13 في مجرى مواز لضحيتها التي لم تبحر متعرجة رغم أضواء الاشارة، ما استغربه طاقم البرج. ولأن الثلوج توقفت، فلم يعد الخطر يكمن في أن تنقشع الغيوم ويكشف ضياء القمر السفينة الشاحنة وزورقها المرافق، بل وأيضا الغواصة.

إلا أن مارينسكو أصرّ على الهجوم فوق سطح الماء. كان جهاز الإشارة في قارب الطوربيد لوفه متجمداً ولا يستقبل الانعكاسات ـ لم يكن أحد يعرف هذا ـ، الأمر الذي استفادت منه الغواصة S13. توصل الكتّاب الانكليز دوبسون، مبلر وباينه في عملهم إلى أن القائد السوفييتي تدرّب طويلاً في مسعاه إلى النجاح على طريقة الهجوم فوق سطح الماء، التي نفذتها الغواصات الألمانية في الاطلنطي وأراد أن يطبقها أخيراً. يقدم الهجوم فوق سطح الماء في الجو الصافي الفرصة لمزيد من السرعة وإصابة أدق.

أمر مارينسكو بخفض السرعة، حتى خرج بدن الغواصة من مجال الرؤية ولم يعد يظهر منها في البحر سوى البرج. زعموا أن صاروخاً مضيئاً أطلق من مركز القيادة في السفينة الضحية قبل الهجوم بقليل وأن ومضات ضوئية لمحت، إلا أن المصادر الألمانية ـ شهادات القبطان بيترسون ـ لا تؤكد ذلك.

وهكذا اقتربت الغواصة S13 من مقدم الهدف. بناء على تعليمات القائد ضبطت الطوربيدات الأمامية في مواسيرها بعمق ثلاثة أمتار. قدر بعد الهدف المعادي بستمائة متر. دخل مقدم السفينة في مصلب المنظار. حسب توقيت موسكَو كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً وأربع دقائق، وساعتين مبكراً حسب التوقيت الالماني.

لكن قبل أن يعطي مارينسكو أمره بالإطلاق ولا يعود هناك تراجع بعد، يجب أن أولج في تقريري أسطورة تُروى. رسم أحد رجال الغواصات، اسمه بيشور، بريشته كلمات اهداء على جميع الطوربيدات، قبل أن تترك الغواصة S13 مرفأ (هانغو)، بينها الطوربيدات الأربعة المهيأة للاطلاق. كان الأول «إلى الوطن». كان

الطوربيد في الماسورة الثانية مهدى «إلى ستالين» وفي الماسورتين الثالثة والرابعة، كان الطوربيدان المزخرفان يتحدثان على الماء الصقيل كالسمك باسم «شعب الاتحاد السوفييتي» و«لينين».

بهذه المشيئة وبعد الأمر الصادر، استهدفت ثلاثة طوربيدات ـ لم يخرج الطوربيد المهدى إلى ستالين من الماسورة ـ السفينة المجهولة من وجهة نظر مارينسكو، والتي تنام فيها الأم على صوت الموسيقى الهادئ في مركز الحوامل والنافسات.

وبينما تأخذ الطوربيدات الثلاثة مجراها، أحاول أن أتخيّل الركاب على متن السفينة غوستلوف. من السهولة العثور على المساعدات الحربيات اللواتي صعدن متأخرا وآوين إلى حوض السباحة وهكذا أيضا بيت الشباب المجاور، الذي كان مخصصاً يوماً ما لشباب هتلر والفتيات في رابطة الصبايا الألمانيات، الذين أرسلوا للاصطياف عليها. يقرفصن ويستلقين في الزحام. مازالت حلاقات الشعر على حالها. لكنهن اكتفين عن الضحك وعن سرد الاشاعات اللطيفة أو الساخرة. يعاني البعض منهن من دوار البحر. هنا وفي الممرات والطوابق الأخرى، حيث كانت ردهات الاحتفالات والطعام، تفوح رائحة القيء. المراحيض المخصصة للفارين ولطاقم السفينة، القليلة أصلاً، مسدودة. لا تتمكن المراوح من شفط الروائح الكريهة مع الهواء المستهلك. يوتدي الجميع أطواق النجاة بناءً على الأوامر منذ الاقلاع، إلا أن الكثيرين ينزعون ثيابهم الدافئة وبينها أطواق النجاة. يتشاحن العجائز والأطفال بأصوات تنخفض. لا تذيع مكبرات الصوت أخباراً. يميل الجميع إلى الصمت. يئنون ويتأوهون باستسلام. أنا لا أتخيل الغرق ذاته، إنما البرهة السابقة، الخوف الذي يدب.

زعموا أن المزاج علا قليلاً وازدادت الآمال بعد الشجار المفرغ في مركز القيادة. اعتقد القباطنة الأربعة أنهم تجاوزوا أكبر المخاطر ببلوغهم شتولبه بانك. تناولوا وجبة حساء البازلاء مع قطع اللحم في حجرة الضابط الأول. ثم أمر الرائد البحري تسان حاجبه بتقديم الكونياك ووجدوا المناسبة سانحة لرفع الأنخاب على شرف الرحلة الناجحة. كان الكلب حسن ينام عند قدمي سيده. لم يكن في نوبة الحراسة في مركز القيادة سوى القبطان (فلر). وهنا انتهت المدة المقررة.

منذ طفولتي تعلمت جملة الأم هذه: «فوراً وعيت لما فرقعت اول مرة ومرة تانيه وتالته..».

أصاب الطوربيد مقدم السفينة تحت الماء، حيث حجرات الطاقم. لم ينج القائمون بالحراسة، القاضمون سندويشاتهم أو الراقدون في قمراتهم، ممن لم تلحقه أذية الانفجار، لأن القبطان فلر أمر فور التبليغ عن العطب باغلاق الحواجز المائية في مقدمة السفينة اوتوماتيكياً ليمنع بذلك الغرق السريع للمقدم، فقد تم التدرب على اغلاق الحواجز قبل الإبحار بقليل. كان بين الملاحين والمتطوعين الكرواتيين الكثير من الضحايا المهيأة لتنظيم عمليات التحميل على قوارب النجاة وانزالها. لا أحد يعلم بما حدث عاجلاً، آجلاً وأخيراً في مقدمة السفينة المحطمة.

كما طبعت الأم ذاكرتي بجملتها: «بعد الفرقعة التانية وقعت من التخت، لهالدرجة كانت قوية..». انفجر الطوربيد المنطلق من الماسورة الثالثة، والذي كان يحمل على سطح الماء الأملس عبارة الاهداء «إلى الشعب السوفييتي» تحت حوض السباحة في الطابق

الأدنى. لم يتمكن من النجاة الا اثنتان أو ثلاث من المساعدات الحربيات تحدثن لا حقاً عن رائحة الغاز وعن الفتيات اللاتي مزقت أوصالهن شظايا الموزاييك المتفجرة على مدار الحوض والمرمر على جدرانه. شوهدت جثث، أعضاء، قطع الخبز وبقايا طعام العشاء تطفو على سطح الماء المتصاعد سريعاً. لم يسمع إلا القليل من الصراخ. ثم انطفأت الأضواء. تمكنت المساعدات الحربيات الاثنتان أو الثلاث - من اللواتي لا أجد لهن صوراً شخصية - من إنقاذ أنفسهن عبر مخرج الطوارئ وصعدن السلم الحديدي المائل إلى الطوابق الأعلى.

وقالت الأم أيضاً: «بعد الفرقعة التالته» كان الدكتور ريشتر عند النافسات والحوامل. «كأنه العفريت انفلت من قنينته»، كانت تصيح كلما جاءت قصتها اللانهائية على «نمرة تلاته».

أصاب الطوربيد الثالث حجرة المحركات وسط السفينة. لم تعطب المحركات وحدها، بل وأيضاً الانارة الداخلية والأجهزة الأخرى. وجرت باقي المجريات في الظلام. على كل حال فقد أطلقت الانارة الاحتياط بعض الانتظام في فوضى الذعر المتناثر في أنحاء السفينة بطول ثلاثمائة متر وارتفاع ثمانية طوابق، والتي لم تتمكن من إطلاق إشارات النجدة، فقد تعطبت الأجهزة في غرفة الإشارة أيضاً. فقط قارب الطوربيد لوفه تمكن من إطلاق صيحته في الأثير: «غوستلوف تغرق بعد الإصابة بثلاثة طوربيدات». أرسلت الإشارات على غرق السفينة لاسلكياً، لانهائياً، وعلى امتداد ساعات وساعات. «الموقع شتولبه موينده ٥٥ درجة شمال ١٧ درجة ٤٢ شرق. نرجو المساعدة..». أطلقت الإصابات الثلاث وغرق الهدف فرحة انتصار مكبوتة في الغواصة S13. أمر القبطان مارينسكو بالغوص أعمق

بالقارب الذي تغطيه الأمواج العالية، عالما أنه لا يتوافر إلا القليل من الحماية من الألغام المائية في مياه السواحل، وخاصة في شتولبه بانك. قبل هذا وجب إبطال مفعول الطوربيد المعلق في الماسورة الثانية. فأدنى الاهتزازات قد تدفعه إلى الانفجار وهو كامن ومستعد للانفجار في أية لحظة. ولحسن الحظ لم تتساقط الألغام المائية، فقد كان قارب الطوربيد لوفه ينقب في السفينة المحطمة بأضواء الكشافات ومحركاتها الكهربائية مطفأة.

على مرج اللعب العالمي، سبّاح آخر في مواقع الاتصال بين البشر، أطلق على الغواصة السوفييتية وبكلمات الصفحة الالكترونية القريبة من عائلتي اسم «قارب الموت» وحكم على طاقم الملاحين في الاسطول الأحمر في بحر البلطيق بـ«قتلة النساء والأطفال». لعب ابني في الانترنت دور القاضي، ولم تصمد اعتراضات صديقه اللدود دافيد، الذي لم يستذكر بهذه المناسبة إلا أن يعيد تشغيل طاحونة صلواته المعادية للفاشية، بأن أشار إلى كبار النازيين والعسكريين على متن السفينة ودرع المضادات للطائرات بسماكة ٣ سم على سطح التشمس، أمام طوفان التعليقات الواردة من القارات الخمس. كتب معظم المستخدمين بالالمانية واختلطت معها بعض الكسرات الانكليزية. امتلأت شاشتي بمعلومات الحقد. لكن وأيضاً بتعزيمات القيامة الجادة. اشارة تعجب في نهاية خلاصة الرعب. بينها أعداد الخسارات بين غرقى السفينة غوستلوف لمقارنتها بغيرها.

حاولت دراما التيتانيك المؤفلمة عدة مرات أن تبقى في الصدارة. بعدها جاءت السفينة لويستيانا، التي أغرقتها غواصة ألمانية في الحرب العالمية الأولى، ما أدى إلى مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية في

الحرب، أو عجل بها. كما أعلن أحدهم عن اغراق القنابل الانكليزية للسفينة المحملة بمعتقلي معسكرات الاعتقال (كاب اركونا) في خليج (نويشتادت). ارتكبت هذه الجريمة الخطأ بأيام قليلة على نهاية الحرب وتصدرت قائمة الانترنت بعدد الضحايا البالغ سبعة آلاف. إلا أن النصر النهائي في معركة الأرقام جاء لصالح السفينة غوستلوف. تمكن ابني بحماسته الخاصة من أن يعيد السفينة المنسية وحمولتها البشرية إلى الذاكرة المتبعثرة في العالم عبر المخطط البسيط الذي وضعه في الشبكة بما عليه من إصابات الطوربيد المتعرجة، كالكارثة ذاتها. إلا أنه لم يكن للأرقام المبالغ فيها في cyberspace إلا القليل مع ما حدث فعلاً في ٣٠ من كانون الثاني ١٩٤٥ في الساعة الحادية وعشرين وست عشرة دقيقة. بل وإن (فرانك فيسبر) تمكن في فيلمه الأبيض والأسود من التقاط بعض الهلع الذي انتشر في كل الطوابق بعد أن طرحت الطوربيدات الثلاثة السفينة على جانبها، بصورة أفضل رغم المطمطة في تقديم الحدث.

تنتقم الأقدار ممن يفوّت الفرص. لماذا لم تكن قوارب النجاة القليلة مهيأة؟ لماذا لم يذوّب الجليد على الرافعات والعتلات دورياً؟ كان أفراد الطاقم المتمكن من انجاز هكذا أعمال مطموراً في مقدمة السفينة وباقياً أغلب الظن على قيد الحياة. لم يكن مجندو البحرية مدربين على قوارب النجاة. أدى الجليد على سطح التشمس الزلق، حيث كانت قوارب النجاة، حالما مالت السفينة قليلاً إلى أن يتزحلق الركاب المتزاحمون في أعلى الطوابق. وهنا سقطت أوائل الضحايا في البحر. لم يكن الجميع يرتدي طوق النجاة وبدأ الكثير بالقفز خوفاً وهلعاً. كان أغلب الهاربين إلى سطح التشمس لا يرتدون إلا القليل

من الثياب بسبب الحرارة العالية داخل السفينة، ما لم يكن كافياً لوقايتهم من التغير المفاجئ في الحرارة عندما قفزوا في الماء الذي تبلغ حرارته درجتين أو ثلاثاً، بينما حرارة الهواء تبلغ ١٨ درجة تحت الصفر. جاءت الأوامر بتحويل الركاب المتقاطرين إلى السطح على طابق التنزه واغلاق البوابات وحراسته بقوة السلاح في انتظار سفن النجدة وطبقت هذه الاجراءات بحذافيرها. هكذا غدت القاعة الزجاجية بطول مائة وستين متراً على محيط السفينة سجناً لأكثر من ألف انسان. وأخيراً عندما لم يعد ينفع الندم حطم الزجاج المصفح في بعض أقسام الطابق. لكن من يستطيع الاحاطة بما حدث في باطن السفينة. لا كلمات تستطيع التعبير عنه. رغم أن رب عملي يلح على رصف الجزيئات المنعزلة وعلى أن أبالغ بهدوء بطولي مفرغ وتعاطف مجتهد كي أُعطي الكارثة حقها عبر تعبيرات الرعب.

حاول الشريط الأبيض والأسود أن يفعلها بالصور الناشئة أمام الكواليس في استوديوهات السينما. يشاهد المرء بشراً مزدحمين، ممرات مسدودة، الصراع على كل درجة من درجات السلم نحو الأعلى. يشاهد الكومبارس المتنكرين معزولين في طابق التنزه المقفل، يتصور ناحية السفينة المغدورة، يشاهد صعود الماء، يشاهد العائمين في بطن السفينة ويشاهد الغرقى. كما يشاهد المرء في الفيلم أطفالاً. أطفالاً افترقوا عن أمهاتهم، أطفالاً يحملون العابهم المتأرجحة. يشاهد عيون الاطفال في لقطة كبيرة. لكن لم يصوّر الاربعة آلاف رضيع، طفل وصبي، من الذين لم يجدوا فرصة للنجاة لأسباب مالية بحتة. ولهذا كانوا وسيبقون مجرد أرقام بين الآلاف، مئات الآلاف، الملايين من الأرقام التي لم تقدر إلا تقديراً سطحياً

وتقدر. صفر آخر على اليمين، وما معنى الصفر. الموت وحده يكمن خلف الأعداد الهائلة.

لا أستطيع إلا أن اقتبس شهادات الناجين. ديس الاطفال والشيوخ على الدرجات العريضة وفي الممرات الضيقة. كان الواحد جار نفسه فقط. وحتى المسؤولون حاولوا أن يستبقوا الغرق. يروى عن أحد الضباط المدربين أنه أطلق النار من مسدسه الرسمي على أطفاله الثلاثة وزوجته ثم على نفسه في القمرة المخصصة للعائلة. ويروى هذا أيضاً عن كبار الحزبيين وعائلاتهم، الذين أنهوا حيواتهم في الحجرات الخاصة، التي كانت مخصصة يوماً ما لهتلر وتابعه لاي وعرضت فسحة للتصفية الذاتية. اعتقد أن الرائد البحري أطلق النار على كلبه حسن. كما استخدمت العيارات النارية على سطح التشمس المتجمد، لأن الكثيرين لم ينفذوا الأمر «فقط النساء والأطفال على القوارب»، لهذا كانت أغلبية الناجين من الرجال، ما برهنت عليه الإحصائيات التي قيدت الحياة التالية ببرود ودون تعليق.

في عجالة أنزل قارب يسع خمسين شخصاً محملاً فقط باثني عشر ملاحاً. رمى قارب آخر ركابه في البحر العارم لأنه حمل بسرعة بالغة وهو مربوط إلى الحبل الامامي فقط وانهار من ثم على رؤوس العائمين في الماء. لم ينزل حسب الأصول إلا القارب الرابع، الذي بلغت نسبة الاطفال والنساء نصف حمولته. اكتفى مستخدمو الصحة بأن ينقلوا ذوي الجروح الخفيفة إلى القوارب، لأن ذوي الجروح العميقة في المشفى الميداني، المسمى بالعريش، كانوا على شفا الموت بجميع الأحوال. وفشلوا في محاولتهم.

وحتى إدارة السفينة كانت تفكر في الدرجة الاولى بإنقاذ نفسها.

يروى عن ضابط كبير حمل زوجته إلى الطابق الأعلى وبدأ برفع الجليد عن حبال تثبيت زورق كهربي كان يستخدم في أوقات قمم للتنزه أثناء الرحلات النرويجية. وعندما تمكن أخيراً من تحرير الزورق عملت الرافعة بمعجزة. رأى النساء والأطفال المحجوزون في طابق التنزه عبر الزجاج المصفح الزورق النازل مربوطاً إلى الحبال وليس عليه إلا القليل من الناس. ورأى ركاب الزورق لبرهة كمّاً من البشر يزدحمون خلف الزجاج. كان لجهة أن تلوح للأخرى. وما حدث بعد ذلك في باطن السفينة لم يره أحد. لم يقل عنه أحد شيئا.

أعرف فقط كيف أُنقذت الأم: «بعد الفرقعة التالتة مباشرة حمي الطلق». كلما حدثتني في طفولتي عن هذه البرهة، كنت اعتقد اني اسمع قصة مغامرات مسلية: «وبعدين ضربني الدكتور حقنة». تقول أنها كانت تفزع من الحقنة: «بس الطلق خلص..».

لابد أن الدكتور ريشتر هو من قاد الأُم وآخريين نافسين مع رضيعيهما تساعده الممرضات، عبر سطح التشمس الزلق وأجلسهن في قارب النجاة المعد والمعلق إلى العتلة. زعموا أنه وجد مكاناً له بعد قليل على أحد آخر القوارب برفقة حامل وسيدة أجهضت. من الواضح دون الممرضة هيلغا.

قالت لي الأُم، إن إحدى المدافع المضادة للطائرات بسماكة ٣ سم تحررت مع زيادة ميلان السفينة من حبال التثبيت، ارتطمت بالسفينة وحطمت قارباً محملاً بالركاب. «صار هالشي جنبنا تمام. قديش كان حظنا قوي..».

هكذا تركت السفينة الحنيفة في رحم الأُم. ابحر قاربنا تحيط به تحركات الموتى والأحياء وصار على مسافة من السفينة التي غطست

مقدمتها والتي أريد أن أستغل بعض حكاياتها قبل أن يغدو الوقت متأخراً. مثلا قصة حلاق السفينة المحبوب والمهووس بجمع قطع خمس ماركات الفضية النادرة. في هذه اللحظة قفز من السفينة رابطاً كيساً ممتلئاً إلى حزام بنطاله إلى البحر، وتحت ثقل الفضة. . . .لكن يمنع علي سرد المزيد من القصص.

ينصحني رب العمل بالاختصار، لا بل يصر عليه. ويزعم، حيث أنني لن أتمكن بحال من الاحوال من التعبير بكلماتي عن الموت لآلاف المرات في بطن السفينة وفي البحر المتجمد، ولن أتمكن من اداء الترقين الألماني ورقصة الموت البحرية، فمن الأفضل أن امتنع عن الأتيان على الموضوع.

لم تكن الأمور وصلت إلى حدها الاقصى في ذلك القارب الذي كانت الأم تجلس فيه دون أهل أو متاع، لكن مع آلام الطلق المؤجلة. كان مجال الرؤية أمام الركاب يتضح على مسافة معينة وعندما ترفعهم الامواج، ليلقوا نظرة على السفينة فيلهلم غوستلوف وعي تميل على حافتها. لأن أضواء الكشافات على زورق المرافقة، الذي اتخذ موقعاً متطرفاً في البحر المضطرم، كانت تنير بين الفينة والآخرى مركز القيادة وطابق التنزه المزجج وسطح التشمس المنحرف، رأى الناجون في القارب كيف يتنقل الناس فرادى وجماعات على متن السفينة. وقريباً رأت الأم، ورأى من أراد الرؤية، العائمين في أطواق النجاة، بينهم الأحياء المستنجدين بأصوات عالية أو خفيضة يرجون حملهم على القارب وأخرين يطوفون وكأنهم في سبات عميق. لكن حال الأطفال كان الأسوأ. قالت الأم: «كلهون وقعوا من السفينة بالمقلوب على رؤوسهن وهيك كانو علقانين بالاطواق رؤوسهن تحت واجريهن فوق. . ».

ولاحقاً وحالما كان أحد العاملين في المنجرة أو أحد رفاق سريرها المؤقتين يسألها عن السبب في بياض شعرها هي الشابة، كانت تجيب: «صار هالشي لما شفت الاطفال مشقلبين. .».

ربما تكون الصدمة فعلت فعلها هنا أو أنها بدأت في هذا الوقت. عندما كنت طفلاً والأم في أواسط العشرينات، كانت تحمل فخورة شعرها الابيض القصير كاكليل نصر. لآنها وحالما يسألها أحدهم عنه، كانت تجرؤ على الحديث في موضوع محرم في دولة العمال والفلاحين، موضوع السفينة غوستلوف وغرقها. وكانت أحيانا تنتهز الفرصة لتتحدث عن الغواصة السوفييتية والطوربيدات الثلاثة متعاظمة بالألمانية الفصحى وتأتي على ذكر قائد S13 ورجاله «أبطال الاسطول البحري السوفييتي المرتبطين معنا نحن العاملين بأواصر الصداقة. .».

سكن طاقم الغواصة الغائصة في البرهة التي ابيض فيها شعر الأم، حسب زعمها ـ بعد حوالي نصف ساعة من إطلاق الطوربيدات ـ منتظرة القنابل البحرية. لا أصوات لمراوح سفن تقترب. لا شيء من الدراما، التي قد تذكر بمشاهد أفلام الغواصات. لكن الساعي (شنابزيف)، الذي كانت مهمته التنصت في سماعات أذنيه للأصوات الخارجية، سمع الوقع الذي أصدره بدن السفينة، الجلبة التي أحدثتها كتل المكائن بانفصالها عن المراسي، التفجر الذي وقع حالما انكسرت حواجز الأمواج بعد أنين قصير بضغط الماء وكثيراً من الضجيج مجهول المصدر وبلغ قائده بكل ذلك بصوت خفيض. ولأن مفعول الطوربيد المهدى إلى ستالين والمنحشر في الماسورة الثانية أبطل في هذه الأثناء وسيطر الهدوء المطلق على القارب، استقبل صف الضابط البحري عبر سماعاته، علاوة على ما أحدثته السفينة المحتضرة

المجهولة عنده، صوت مراوح قارب المرافقة الذي يبحر بطيئاً. وهذا لم يكن يشكل خطراً. لم يسمع أصواتاً بشرية.

كان ذاك قارب الطوربيد لوفه. الذي أخذ، مطفئاً محركاته، موقعاً له بعيداً وكانت الشباك ترمى عبر حوافه لتصطاد الموتي والأحياء الطافين على سطح الماء. ولأن الزورق الكهربائي الوحيد كان متجمداً، كما أن محركه لم يعمل، فلم يكن بالامكان استخدامه في عمليات الإنقاذ. انتشل البشر بالحبال فقط. وعن طريقها جاء حوالي مائتا ناج على متن قارب الطوربيد.

عندما توجهت قوارب النجاة القليلة، التي حلت عن السفينة المنقلبة، نحو أضواء كشافات قارب الطوربيد، صار من الصعب الرسو في البحر الذي تزداد أمواجه اضطراباً. قالت الأم التي كانت تجلس في أحد القوارب: «مرة كانت الموجة ترفعنا فوق فوق بحيث كنا نتطلع في لوفه من فوقها ومرة كنا نصير تحت ولوفه فوقاتنا..».

فقط حال كان قارب النجاة يصير في مستوى قارب الطوربيد، أي خلال ثوان، كان قادراً على تلقي الضحية بعد الأخرى. وأما من خانته قفزته، فكان يسقط في المياه بين القاربين ويختفي للأبد. إلا أن الأم حالفها الحظ للوصول إلى السفينة الحربية بإزاحة ٧٦٨ طناً، التي شيدت في العام ثمانية وثلاثين في حوض سفن نرويجي وعمدت باسم غيلر ووضعت في خدمة النرويج ثم استولى عليها الإسطول الحربي الألماني بعد احتلال النرويج سنة أربعين كغنيمة حربية.

حالما رفع ملاحان من طاقم سفينة المرافقة الأُم على متنها عبر السور، حيث فقدت أحذيتها، ألقيا عليها غطاء وقاداها إلى قمرة الضابط البحري المناوب، جاءتها آلام الطلق من جديد.

أغمضي عينيك وتمنى ما تتمنى! لا أريد تغيير الموضوع، كما قد يطرأ على بال أحدهم، لكني أتمنى لو لم ألد للأم على القارب لوفه، لو أني كنت ذلك اللقيط الذي انتشله قارب الاستطلاع VP1703 بعد سبع ساعات. حدث هذا بعد أن التقط المزيد من سفن الانقاذ، وعلى رأسهم قارب الطوربيد T36 ثم السفينة البخارية (غوتلاند) و(غوتينغن)، البقية الباقية على قيد الحياة في الأمواج بين كتل الجليد والكثير من الجامدين.

بلغ قبطان قارب الاستطلاع بإشارات النجدة التي أطلقها لاسلكي القارب لوفه. وللحال أبحر بقاربه الجدير بالاستكراب ووجد أمامه مقبرة بحرية. إلا أنه أنار بأضواء كشافاته البحر، حتى اصطادت كرة الضوء قارب نجاة خال يتحرك بين الأمواج. بدل صف الضابط الأول (فيك) وجهته ووجد بجوار جثتي امرأة وفتاة قصيرة المتجمدتين غطاءً قطنياً ملفوفاً كصرة متجمدة. حملت على متن VP1703، حررت من طبقة الجليد التي تعلوها ثم فتحت ليظهر فيها ذلك الرضيع، الذي أتمنى لو كنته: لقيط لا أهل له، آخر الناجين من كارثة فيلهلم غوستلوف.

جس الضابط الطبيب المناوب صدفة تلك الليلة على متن قارب الاستطلاع نبض الرضيع الضعيف، بدأ بعمليات الإنعاش وتجرأ ليحقنه بسوائل ضد التشنج ولم يدعه حتى فتح عينيه. قدر عمر الرضيع بأحد عشر شهراً وقيد في شهادة رسمية كل التفاصيل: الاسم مجهول، الأصل مجهول، العمر التقديري، يوم وساعة الانقاذ واسم ورتبة المنقذ.

للاءمني ألا أولد في ٣٠ كانون الثاني الوخيم، بل في نهاية شباط،

مطلع آذار أربع وأربعين في قفر ما من قفار بروسيا الشرقية، في يوم لا اسم له، لأم مجهولة وأب غير موجود، يتبناني الملازم أول البحري (فرنر فيك) ويضعني في أول فرصة في حضن عقيلته ـ ما حدث في شفينه موينده ـ. لنشأت مع والدي بالتبني، اللذين لم يكن لديهما أطفال، بعد الحرب في المنطقة البريطانية، في مدينة هامبورغ التي دمرتها الغارات. لكنا وجدنا بعد عام مسكنا في مسقط رأس (فيك) روستوك، التي دمرتها الغارات بدورها، في المنطقة السوفييتية. لكنت ترعرعت من ثم في سيرة حياة تتوازى وسيرة حياة الأم، ولكنت شاركت الرواد الشباب في التلويح بالأعلام وفي مسيرات منظمة الشبيبة الألمانية الحرة، ولكان آل (فيك) وضعوني في مركز اهتمامهم، ليس كالأم، ولكان هذا أعجبني. مدللا من الأب والأم، لكنت ذلك اللقيط الذي لم تفش أقمطته بأصله ولأمضيت فتوتي في مجمع سكني. لكان اسمي بيتر وليس باول. لدرست بناء السفن في حوض (فولكان) في روستوك. لحصلت على عمل مضمون كمهندس تصميم السفن حتى الوحدة الألمانية ولحضرت بعد مرور خمسين عاما على انقاذي لقاء الناجين في منتجع دامب وحيدا كمتقاعد مبكر أو مع والدي بالتبني العجوزين، ولاحتفى بي جميع الحضور وصعدت على المسرح بصفتي اللقيط من تلك الأيام.

لكن شيئاً ما، ٱلعناية الالهية إذا هذا يرضيها، عارض هذا القدر. لم يكن أمامي مهرب. لم أنج كلقية. استقبلت الآنسة (اورزولا بوكريفكه) الحامل في أيامها الأخيرة على قارب الطوربيد لوفه في وضع مؤات، كما جاء في سجل القارب. بل وقيدت الساعة الثانية والعشرين وخمس دقائق. وبينما الموت يصفي حساباته في الأمواج

المتلاطمة وباطن السفينة فيلهلم غوستلوف، لم يعد يقف في طريق ولادة الأم مانع.

يجب أن يثبت هذا التقييد: لم تكن ولادتي فريدة. فلأنشودة «الموت والصيرورة» مقاطع كثيرة. فقبلي أبصر كثير من الأطفال نور الحياة وبعدي أيضاً. على قارب الطوربيد T36 كما على السفينة البخارية (غوتنغن) التي أصيبت لاحقا، السفينة ستة آلاف طن المسلحة من شمال ألمانيا والتي حملت في مرفأ (بيلاو) في بروسيا الشرقية الفين وخمسمائة جريح وأكثر من ألف فار، بينهم حوالي مائة رضيع. ولد خمسة أطفال خلال ابحارها، وآخرهم في البرهة التي وصلت فيها السفينة إلى المقبرة البحرية التي لا يحييها إلا القليل من صيحات الاستغاثة. إلا أنني كنت الوحيد الذي خرج من الجحر في لحظة الغرق باثنين وستين دقيقة بعد الإصابة بالطوربيدات الثلاثة.

«بالدقيقة والثانية لما غرقت غوستلوف»، كما تقول الأم أو كما أقول أنا: عندما انقلبت واختفت السفينة فيلهلم غوستلوف على مقدمها منحرفة بشدة على جهة اليسار، حيث خر المتزحلقون والأخشاب المتراكمة وكل ما لم يجد مستقراً في البحر المزبد وعندما اشتعلت وكأنما بأمر من لا أين الإنارة، المطفأة منذ أصابتها الطوربيدات، في باطن السفينة وعلى سطوحها أجمعين في الثانية ذاتها وقدمت كما في أيام السلم و(قمم) الفرصة لمن يريد الرؤية ليرى أنوار الاحتفالات، وعندما جاءت النهاية، ولدت ولادة طبيعية في قمرة ضابط الآليات، ولادة رأسية دون تعقيدات، أو كما تقول الأم: «ما حسيت بشي. تزحلقت لبرا لحالك..».

لم تع كل ما حدث وخاصة ما حدث خارج القمرة. لا أنوار

الأعياد على السفينة الغارقة المنقلبة، ولا سقوط البشر فرادى أو متجمعين كحبات العنب من مؤخر السفينة السامق في السماء. إلا أن صرختي الأولى، كما تتذكر الأم، علت تلك الصرخة البعيدة والمؤلفة من آلاف الصرخات. هذه الصرخة النهائية التي جاءت من كل مكان: من رحم السفينة الغرقى، من طابق التنزه المتحطم، من طابق التشمس الذي كسحته المياه، من مؤخر السفينة المختفي كومضة ومن المساحة المائية المتحركة، حيث آلاف الأحياء والموتى يعومون في أطواق النجاة. علت الصرخة من القوارب بحمولة زائدة وحمولة قليلة، من جذوع الشجر التي يتراكم عليها البشر، ترفعها الأمواه ثم تختفي في شعاب الأمواج ومن كل فج. وتصاعدت مع عويل صفارة السفينة المفاجئ والمختنق بآن في ثنائية صوتية، صرخة نهائية جمعية لم يسمع لها مثيل، قالت عنها الأم وستبقى تقول: «ما فيك تزيح هيك صريخ من اذانيك».

لم يخرق السكون التالي إلا زعيقي، ثم سكنت أنا أيضاً حالما قطع حبل السرة. عندما دون القبطان ساعة غرق السفينة في سجل القارب حسب الأصول المرعية كشاهد عليه، عاود طاقم قارب الطوربيد اصطياد الأحياء من البحر.

كل هذا غير صحيح. الأم تكذب. أنا واثق أني لم أكن على القارب لوفه. . . . لم تكن الساعة. . . . لأنه، عندما كان الطوربيد الثاني. . . ولأن الدكتور ريشتر لم يحقن الأم بمسكن لآلام الطلق، بل كانت الولادة. . . جرت الأمور على ما يرام. ولدت على مضجع خشبي زلق ومائل. كان كل شيء مائلاً عندما. . . ما يؤسف له أن الدكتور ريشتر لم يجد الوقت ولا شهادة الميلاد ليكتب فيها: ولد

في. . .على متن. . . وزمن الولادة، بخط يده. نعم وألف نعم، لم ألد على قارب الطوربيد، بل على السفينة اللعينة، المعمدة باسم الشهيد، المدشنة، اللألاءة، المحبوبة، مانحة القوة عبر المسرة، اللاطبقية، الملعونة ثلاثاً، المحملة بما لا تقدر عليه، الرمادية باللون العسكري، المصابة، الغارقة بوضع رأسي مائل. ثم مضت الأم حاملة رضيعها المقمط في بطانية قطنية من بطانيات السفينة معتكزة على الطبيب ريشتر والممرضة هيلغا إلى القارب المنقذ.

لكنها لا تريد ولادة على السفينة غوستلوف. تفتري لنفسها ملاحين قطعاً حبل سرتي في قمرة ضابط الآليات، ثم تدعي أنه كان الطبيب وهذا لم يكن في ذلك الأوان على متن الطوربيد. حتى الأم، التي تعلم كل شيء علم اليقين، تتأرجح في أقوالها وتستحضر بخلاف «تنين من البحرية» و«الدكتور اللي حقني على غوستلوف»، شخصية ثالثة كقابلة وتزعم أن قبطان القارب لوفه، (باول برويفه) قطع حبل سرتي.

وحيث أنني لا استطيع البرهان على سير ولادتي، وهو في الحقيقة سيرة خيال، فإني اعتمد الوثائق التي عمل عليها هاينز شون وجاء فيها أن الدكتور ريشتر وصل على قارب الطوربيد بعد منتصف الليل. وبعدها فقط شارك في ولادة طفل آخر. لكن المؤكد هو أن طبيب غوستلوف وقع لاحقاً على شهادة ميلادي المؤرخة في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥، دون تحديد ساعة الولادة، إلا أني منحت الاسم الأول للقبطان (برويفه). تزعم الأم أنها أصرت على أن أحصل على اسم (باول) «متل كابتن لوفه بالضبط» واسم العائلة (بوكريفكه) ولاحقاً كان الأولاد في المدرسة وفي منظمة الشبيبة الألمانية الحرة، لكن وزملائي

الصحفيون أيضاً، ينادوني «بي بي»، ومازلت أوقع تحت مقالاتي بالحرفين باء نقطة باء نقطة.

أطلق على الولد الذي ولد بعدي بساعتين، أي في ٣١ كانون الثاني، على قارب الطوربيد اسم (ليو) نزولا عند رغبة أمه وتيمنا بالسفينة المنقذة.

لم يناقش أحد كل هذا، لا ولادتي ولا الأشخاص الذين ساعدوني عليها في هذه السفينة أو تلك، في الانترنت. لم تذكر صفحة ابني الالكترونية اسم باول بوكريفكه ولا حتى الإشارة إليه بالأحرف الأولى. أطبق الصمت على كل ما يتعلق بي. لم يكن لي وجود على الاونلاين. إلا أن سفينة أخرى، وصلت لحظة الغرق أو دقائق بعدها إلى مكان الحادث يرافقها قارب الطوربيد T36، الطرادة (ادميرال هيبر)، اثارت مشاحنة عالمية متشعبة بين كونراد وغريمه، الذي اسمى نفسه دافيد.

الحقيقة أن الطرادة (هيبر)، المعبأة بدورها بالفارين والجرحى، توقفت قليلاً ثم حرفت مجراها نحو هدفها، مرفأ كيل. بينما تعاطى كوني مع الحدث كخبير في شؤون البحرية وقيم بلاغ السفينة المرافقة عن خطر الغواصات سبباً كافياً لتغيير الاتجاه، عارضه دافيد وكتب بأنه كان على الطرادة في أدنى الأحوال أن تتنازل عن بعض زوارقها الكهربائية لتتابع عمليات الانقاذ وأن كثيراً من العائمين في البحر راحوا ضحية الدوامة التي أثارتها أسوارها بسبب المناورات التي قامت بها الطرادة بإزاحة عشرة آلاف طن قرب في مكان الحادث. لم يكن عدد الذين مزقتهم مراوح السفينة قليلاً.

إلا أن ابني ادعى أنه يعلم تمام العلم أن جهاز تحديد الموقع في

زورق المرافقة للطرادة هيبر لم يشر فقط إلى خطر الطوربيدات، بل إن T36 انحرف عن طوربيدين استهدفاه. وعليه شهد دافيد، وكأنه كان تحت الماء آنذاك، على أن الغواصة السوفييتية سكنت وأبحرت حتى دون أن ترفع منظارها وأنها لم تطلق ولا طوربيداً واحداً. بل إن انفجارات القنابل المائية التي اطلقتها T36 قطعت أوصال كثير من العائمين في اطواق النجاة، الذين كانوا يطلقون صيحات النجدة. واعتبر هذه المذبحة خاتمة للمأساة.

هكذا انفلتت في الانترنت حرية الاتصال الشاملة. جاء خبر حتى من آلاسكا البعيدة. بذلك أصبح غرق السفينة المنسية حدثاً آنياً. بصرخته المصاغة بصيغة الزمن الحاضر «غوستلوف تغرق»، قذف موقع ابني الالكتروني قذيفة ويندوس في وجه العالم وأدار «حواراً متأخراً» كما أقر دافيد ذاته. نعم وألف نعم! صار على الجميع أن يعرف ويحكم على ماحدث في أعالي شتولبه بانك في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٥. مسح استاذ الشبكة العالمية خارطة لبحر الشرق مسحاً ضوئياً وأظهر جميع الطرق البحرية المؤدية إلى موقع الحادث بمهارة تعليمية.

للأسف لم يتخل خصم كَوني بنهاية الشت العالمي عن التذكير بقيمة التاريخ السيئ وسمي السفينة الغريقة، بأن عرض قتل طالب الطب دافيد فرانكفورتر للمسؤول الحزبي فيلهلم غوستلوف كـ«عمل يؤسف له من وجهة نظر الأرمل، ومن ناحية أخرى ـ ونظراً لآلام الشعب اليهودي ـ ضروري وبعيد النظر»، بل وعبر مبتهجاً عن إغراق غواصة صغيرة للسفينة العملاقة بأنه تتمة لـ«الصراع بين داوود وجليات». صعد لهجته، قذف في الشبكة كلمات مثل «الذنب

الموروث» و«التكفير عن الذنب»، مجد قائد الغواصة S13 الذي أصاب هدفه واعتبره خليفة جديراً بخلافة طالب الطب الذي أطلق النار: «يجب ألا ننسى شجاعة مارينسكو وبطولة فرانكفورتر».

وللحال اندلع الحقد في المنتدى. كانت أهون الشتائم «يهودي قذر» و«منكري اوشفيتز». وبتحديث غرق السفينة ظهر نداء الكفاح «ليفطس اليهود» على السطح الرقمي للواقع الحاضر: الحقد المزبد، غمار الحقد. يا إلهي. كم من الأحقاد تراكمت، تكاثرت يوماً إثر يوم وتحض على الفعل.

إلا أن ابني تظاهر بالتحفظ. تساءل بطيب نية: «قل لي دافيد، يمكن يكون لك أصول يهودية؟». وجاء الجواب يحمل أكثر من معنى: «عزيزي فيلهلم، إذا كان ذلك يسعدك ويخفف عنك بأي شكل من الأشكال، بامكانك أن ترسلني في أقرب فرصة إلى غرفة الغاز».

# ٧

لا يعلم إلا الشيطان من نفخ الأم. تدعي مرة أن قريبها في شارع الزن في لانغفور فعلها في مخزن الخشب المعتم، ومرة أنه كان جندياً في بطارية المدفعية المضادة للطائرات قرب (كايزرهافن) ـ «مع اطلالة على جبل العضام» ـ ثم شاويشاً، قالت أنه كان يصر على أسنانه أثناء عملية التخصيب. سواء من ناكها، فقد ولدت ونشأت دون أب لأصبح أباً ذات مرة.

على أية حال يقر لي، من هو في سن الأم، ويزعم أنه عرفها خطفاً عندما كانت تقطع الدروب بحثاً عن ملجأ، متكرما علي بتفسير وجودي الهوائي برؤوس الأقلام، ويقول إن فشلي مع ابني جلي، إلا أن الصدمة النفسية لولادتي قد تؤخذ كظرف مخفف لقصوري الأبوي، هذا إن أردت تفسيراً ولا بد. إلا أن الحدث الرئيسي، بعيداً عن التخمينات الشخصية، يجب أن يبقى في المقدمة، يؤكد علي.

له جزيل الشكر. أتنازل عن طموحي في أي تفسير. كانت الأحكام النهائية تثير امتعاضي على الدوام. لن أقول إلا أن شخصي المتواضع موجود بمحض الصدفة، فقد تواجد في قمرة القبطان (برويفه)، عندما ولدت في الحجرة المجاورة ومزجت صرختي الأولى

بالصرخة التي لا تزول عن سمع الأم، ثلاثة رضع متجمدين تحت غطاء. زعموا أن آخرين التحقوا بهم، مزرقين من الصقيع.

بعد أن مزق الطراد (هيبر) بإزاحة عشرة ألاف طن الموتى والأحياء في مناورة الالتفاف حول السفينة وجرهم عميقاً في دوامته، توبع البحث. جاءت المزيد من السفن لمؤازرة قاربي الطوربيد، فبالإضافة إلى السفن البخارية جاءت بعض قوارب التنقيب عن الألغام وقارب اصطياد الطوربيد وأخيراً VP1703 الذي أنقذ اللقيط. بعدها سكن كل شيء. لم ينتشل إلا الموتى. الأطفال رأسا على عقب. وأخيرا هدأ البحر فوق المقبرة الجماعية.

إذا أردت أن أذكر هنا أرقاماً، فإنها غير صحيحة. كلها تقريبية. ثم أن الأرقام لا تقول إلا القليل. لا يمكن تصديق الأصفار الكثيرة، فهي تتناقض مبدئياً. فليس عدد الأشخاص على متن السفينة غوستلوف وحده ما تغير على مر العقود - بين ستة آلاف وستمائة وعشرة آلاف وستمائة -، بل واضطر الواضعون إلى تغيير عدد الناجين مرة إثر مرة، من تسعمائة في البداية إلى الف ومائتين وتسع وثلاثين في النهاية. وإذا طرح أحدهم سؤالا عن قيمة حياة أكثر أو أقل، فلا أمل له في جواب مقنع.

المؤكد أن أغلب الضحايا كانوا من النساء والأطفال، فقد أنقذ الرجال بأغلبية مؤلمة الوضوح وبينهم قباطنة السفينة الاربع. أولى اهتمامات بيترسون،[٩] الذي توفي مباشرة بعد الحرب، كانت ذاته. لم يفقد تسان الذي صار بعد الحرب رجل أعمال، إلا كلبه حسن. قياسا إلى أعداد الأطفال الغرقى المقدر بخمسة آلاف، المتجمدين، المداسين بالأقدام على درجات السفينة، لا قيمة للولادات المعلن عنها لا قبل ولا بعد الحادث، بما فيها ولادتي. أن لا شيء.

أنزل أغلب الناجين في (سازنيتز) على جزيرة (رويغن)، في (كولبرغ) و(شفينه موينده). لم يكن عدد الذين ماتوا أثناء الابحار قليلاً وأعيد بعضهم وبعض الأحياء إلى غوتنهافن، حيث كان عليهم أن ينتظروا نقلهم على سفن أخرى للفارين. كان القتال يجري على (دانتسيغ) منذ نهاية شباط. احترقت المدينة وتركت وراءها سيولاً من الفارين، الذين تراكموا بدورهم على الأرصفة التي ترسوا عليها السفن البخارية والمعديات والزوارق الشراعية الصغيرة.

في صبيحة ٣١ كانون الثاني رسا قارب الطوربيد لوفه في مرفأ (كولبرغ). ساعد هاينز كولر الأم ورضيعها المقمط، الذي سمي باول، على النزول. وكان كولر هذا أحد القباطنة الأربعة المتشاجرين على ظهر السفينة الغريقة ووضع على جملة حياته إشارة النهاية حالما انتهت الحرب. حملت سيارات الاسعاف العاجزين والمرضى والذين يعانون من تجمد اقدامهم. ولا غرو أن حسبت الأم نفسها ضمن القادرين، وكلما جاءت على فصل النزول على البر في حكايتها اللانهائية، كانت تقول: «وما كان باجري الا الجرابات لحتى طلّعت مرة ختيارة قندرة من شناطيها وعطتني ياها. هي نفسها كانت بين المشردين وكانت قاعدة في عربانة على الطريق وما كانت تعرف اي شي عنا، لا منين جايين ولا شو اللي صاير فينا...».

ربما هي صادقة. لم يعلن عن غرق سفينة (قمم) المعروفة في جميع أنحاء الرايخ، فقد كان لهكذا خبر أن يحبط معنويات المقاومة. لم تثر الإشاعات. لكن القيادة السوفيتية العليا بدورها وجدت أسباباً كافية كي لا تنشر نجاح الغواصة S13 وقائدها في نشرة الاسطول الأحمر اليومية.

زعموا ان أمل الكسندر مارينسكو خاب فور عودته إلى مرفأ (توركو). لم يحتف به كبطل كما يجدر، رغم أنه أغرق في رحلة الهجوم سفينة أخرى، هي الباخرة (جنرال فون شتويبن)، باصابتها بطوربيدين من المواسير الخلفية في ١٠ شباط. غرقت الباخرة ألف وخمسمائة طن، التي اقلعت من (بيلاو) حاملة أكثر من ألف فار وألفي جريح ـ هذه الأعداد الصحيحة المدورة للمرة المليون ـ خلال سبع دقائق على مقدمها. أحصي حوالي ثلاثمائة ناج. كان بعض من الجرحى متراصين على سطح السفينة سريعة الغرق وتزحلقت بهم مضاجعهم الخشبية إلى البحر. قام مارينسكو بهذه العملية الهجومية عبر المنظار غاطساً إلى مستوى المناوشة. إلا أن القيادة العليا للأسطول الأحمر في بحر البلطيق ترددت في إعلان ذي النصرين «بطل الاتحاد السوفييتي»، بعد أن دخل قاربه المرفأ المركزي وطال هذا التردد. وبينما كان القبطان وطاقمه ينتظرون بخيبة أمل وجبة الاحتفال التقليدية ـ خنزير مقلي وكثير من الفودكا ـ استمرت الحرب على جميع الجبهات ودنت جبهة بومرن من مدينة كولبرغ.

في البداية فررنا أنا والأم إلى مدرسة هناك. وعنها حدثتني لاحقاً بلهجتها الخاصة: «على الأقل كانت دافية وكان تختك مقعد مدرسة عتيق. من وقتها خطر على بالي، صغيري باول بلش يتعلم بكير. . .». عندما لم تعد المدرسة قابلة للسكن بعد قصف المدافع، وجدنا ملجأً في مخبأ مضاد للقنابل.

لكولبرغ، المدينة والحصن، صيت متقادم في التاريخ، فقد صمدت قلاعها وسدودها المنيعة في وجه نابليون، لهذا أخرج (هاينريش غيورغ) مدفوعاً من وزارة الدعاية فيلماً عن التصدي للعدو

باسم (كولبرغ)، لعب أدوار البطولة فيه كبار نجوم الشركة العالمية لانتاج الأفلام. وعرض الفيلم الملون في صالات الرايخ التي لم تدمر بعد: صراع الأبطال مع العمالقة.

وأعاد تاريخ كولبرغ نفسه بنهاية شباط. سريعاً ما أحاط لواء بولوني ووحدات الجيش الأحمر بالمدينة، بالمرفأ وبالمسبح البحري. ومرة أخرى بدأ ترحيل المدنيين وسيول الفارين إلى المدينة تحت قصف المدافع، على طريق البحر. مرة أخرى تزاحم البشر على الارصفة، إلا أن الأم رفضت صعود سفينة من جديد. «حتى لو كانو ضربوني بالنبوت ما كنت طلعت على هيك قارب..»، هذا كان جوابها كلما أراد أحدهم أن يعرف كيف غادرت المدينة المحاصرة والمحترقة. «هه، إذا كان الواحد يدور على كوخ، بيلقاه وين ما كان». وعلى كل حال فإنها لم تصعد متن سفينة أخرى حتى أثناء نزهات العمال على بحيرة شفيرين.

لا بد أنها تسللت عبر المواقع الروسية أواسط آذار محملة بحقيبة ظهر وبي وربما رأفت المراكز الروسية بالمرأة الحامل ورضيعها، فتركونا نمضي لحالنا. إن كنت أصف نفسي هنا، في لحظة الفرار الأبدية، بالرضيع، فإن هذا الوصف ليس إلا وصفاً تعيينياً، فصدر الأم لم ينتج شيئاً. لم يتدفق الحليب. على متن قارب الطوربيد ساعدتها نافس من بروسيا الشرقية، توافر لديها أكثر من اللازم. ثم جاءت سيدة فقدت رضيعها في الطريق. ولاحقاً، طالما دام الفرار وبعده أيضاً، كنت في أحضان غريبة.

في هذا الوقت، كانت جميع مدن ساحل بومرن إما محتلة أو مهددة بالاحتلال. (شتيتين) محاصرة وشفينه بويننده تقاوم. شرقاً

سقطت كل من دانتسيغ، زوبوت، غوتنهافن تحت رحمته. نحو الساحل، كان الجيش السوفييتي الثاني يطوق شبه جزيرة هيلا عند (بوتسيغ) وغربا، على نهر اودر، كان القتال يجري حول (كويسترين). كان الرايخ الألماني العظيم يتقلص من جميع جهاته. حيث يجري الراين وموزل، كانت (كوبلنز) في يد الأمريكان. أخيراً انهار جسر (رويماغن). أعلنت قوات الجيش عن استعادة بعض الأراضي في الجبهة الشرقية في شليزيا، كما بلغت عن تدهور الوضع في بريسلافا. بالإضافة إلى كل هذا لم تتوقف الغارات الجوية الأمريكية والانكليزية على كبريات المدن ومتوسطتها. وبينما كان المارشال الجوي الانكليزي يتمطق فرحاً بخراب مدينة درسدن المدخن، كانت القنابل تنهمر على بريمن وريفنسبورغ، على بوخوم وفوبرتال... ومرة أخرى صارت سدود البحيرات الصناعية هدفاً لها. في كل الأنحاء، لكن بدفع من الشرق نحو الغرب، كانت أفواج الفارين تمضي في الطرق لا تعرف لها هدفاً.

لم يكن للأم هي الأخرى هدف معين، عندما وجدت مخرجاً لها من كولبرغ مع أثمن متاعها، الذي ينوح وينوح طالباً الحليب. ثم دخلت في نار الجبهات المتقاتلة، تقدمت ليلاً لمسافات قصيرة على عربات الغلال، على عربات الجيش، إلا أنها قطعت معظم دربها سيراً على الاقدام بين الآخرين، الذين يخففون حمولتهم قطعة قطعة، انبطحت على الأرض تحت قصف المقاتلات فوق رأسها، وكانت بغيتها الابتعاد عن الساحل بعيداً بعيداً بحثاً عن أمهات يخزن فائضاً من الحليب وشقت طريقها حتى شفيرين. كانت تسرد درب فرارها مرة بهذه الرواية ومرة بأخرى. كانت تريد متابعة السير نحو الغرب عبر نهر

البه، إلا أننا علقنا في عاصمة اقليم الرايخ مكلنبورغ التي سلمت من التدمير. حدث هذا بنهاية نيسان، عندما أنهى الزعيم حياته.

لاحقاً، عندما كانت تتعلم النجارة محاطة بالرجال، كانت الأم تقول إذا سئلت عن درب فرارها: «فيني احكي لكن روايات وروايات. اصعب شي كانت الطيارات لما كانو قريبين من رؤوسنا وتا تا تا بس أنا كنت محظوظة كتير ومتل ما بقولو عمر الشقي باقي».

وبهذا فقد كانت عند موضوعتها الحقيقية، حكاية السفينة التي لا زالت تغرق. لا معنى للأمور الأخرى في حياتها. بل وحتى الضيق في ملجئنا التالي ـ الذي كان مدرسة بدوره ـ لم يكن جديراً لدى الأم بالشكوى، خاصة أنها تأكدت أنها وجدت مع صغيرها باول ملجأ في المدينة التي ولد فيها ذلك الرجل الذي أطلق اسمه على السفينة التعيسة، في زمن السلم الظاهري. كان اسمه في كل مكان وحتى المدرسة التي لجأنا إليها كانت تحمل اسمه. عندما وصلنا شفيرين كان هو حاضراً باسمه في كل مكان فيها وكان النصب التذكاري الذي أقيم في السنة سبعة وثلاثين والمؤلف من صخور منقولة قائماً على الضفة الجنوبية للبحيرة سليماً بما فيه كتلة الغرانيت الضخمة. أنا واثق أن الأم استقرت في شفيرين فقط لهذا السبب.

الجدير بالذكر أن بعضاً من السكون سيطر على أجواء الانترنت التي أدخل فيها معتاداً منذ أن أقيم القداس الغيبي، وكأنه آني، على روح السفينة الغريقة وأُحصيت أعداد الموتى بمختلف الطرق الحسابية، قدرت وثبتت، ثم قورنت بأعداد الناجين ووضعت أخيراً في مقارنة مع أعداد قتلى التيتانيك.

ظننت أن نظامه الالكتروني انهار، أنه فرغ احتقانه، أن ابني

اكتفى، أن وسوسة الأم انتهت بغرق السفينة، إلا أن الهدوء كان خادعاً. ففجأة قدم عرضه القديم على موقع جديد.

وهذه المرّة كانت الغلبة للصور. صور رمادية مخربشة في أغلبها، إلا أن تحتها تعليقات بحروف مطبعية عريضة تمكن العالم أجمع من التمتع بكتلة الغرانيت العالية وباسم الشهيد المحفور بحروف مسمارية تحت الرمز الدال على الحياة في الكتابة الرونية. وبالإضافة إلى ذلك أظهرت قيمته العظمى اعتماداً على المعلومات وخدماته التنظيمية وانهيت الشهادات بعلامات التعجب وحشرت في البرنامج الدائم كصفحة استعلامات حتى يوم وساعة قتله في مصح الأمراض الصدرية في دافوس.

كأنما بأمر أو حتمية أخرى أعلن دافيد عن وجوده. بداية لم يكن موضوع الخلاف نصب الشرف، بل قاتل الشهيد. بلهجة المنتصر أعلن دافيد عن حدوث تغييرات في آذار العام خمسة وأربعين لصالح المحجوز منذ تسع سنين في دار الاصلاح دافيد فرانكفورتر. بعد الفشل في محاولة الطعن والاستئناف، قدم مكتب المحاماة في برن (برونشفيغ وراسي) التماسا لوقف التنفيذ إلى المجلس الأعلى لكانتون غراوبويندن. اضطر خصم ابني أن يقر بأن قرار تخفيف الحكم المحدد بثمانية عشرة سنة سجن صدر في ١ حزيران ١٩٤٥، بعد انتهاء الحرب. كان من الضروري الانتظار حتى يسقط جار سويسرا القوي على الأرض دون حراك. ولأن دافيد فرانكفورتر طرد من البلاد بعد إخلاء سبيله من سجن زينهوف، فقد اتخذ قراره بالرحيل فورا إلى فلسطين، بعيداً عن الأنوال، آملاً في دولة اسرائيلية.

تشاجر قناصا الاونلاين شديدي المراس في هذا الموضوع شجاراً

أقرب إلى الرزانة. منشرح الصدر استحسن كوني: «اسرائيل تمام. هناك هو المكان الصحيح لليهودي القاتل. فقد ينفع هناك في أحد الكيبوتزات أو أي مكان ثان». قال أنه لا يعارض اسرائيل وأنه معجب بقوتها الضاربة. انه يتفهم حزم الاسرائيليين في إظهار القوة والبأس. وأنه يجب ألا يتراجع المرء قيد أنملة أمام الفلسطينيين وأنماط المسلمين الأخرى ووجد في رحيل جميع اليهود، كما فعل اليهودي القاتل فرانكفورتر، إلى أرض الميعاد قراراً سليماً: «بهذا يبقى باقي العالم خالياً من اليهود».

ارتضى دافيد هذا المنكر، بل واعترف مبدئياً بسلامة تفكير ابني. وأشد ما كان يقلقه على ما يبدو، كان أمن المواطنين اليهود الذي يعيشون في ألمانيا وبينهم هو، كما اعتبر نفسه، فهو يخشى أقسى العواقب من هذه الناحية لأن المعاداة للسامية تتفاقم سريعاً. مرة أخرى يجب على المرء أن يفكر في الهجرة. «حتى أنا سأضطر في القريب العاجل إلى أن أحزم حقائبي». تمنى له كوني: «مع ألف سلامة». ثم أفهمه ضمنا بأنه سيسعد بلقاء صديقه اللدود دافيد ـ ليس فقط بالاونلاين ـ قبل أن يرحل إذا سنحت الفرصة: «علينا أن نتعرف على بعضنا البعض، أن نتشمم بعضنا قليلاً في أقرب فرصة..».

بل واقترح ملتقى، إلا أنه ترك مسألة التاريخ مفتوحة. هناك حيث كان نصب الشرف الغرانيتي يعلو المكان وحيث لا يذكر بالشهيد إلا القليل، لأن مدنسي الحرمات نهبوا الصخور وقاعة الشرف، هناك حيث سيرفع النصب في المستقبل القريب، في الموقع التاريخي، اقترح كوني مكانا للقاء.

وللحال بدأ الشجار من جديد. رغم أن دافيد لم يمانع طلب

اللقاء، إلا أنه اعترض عليه في المكان الملعون «أنا ضد نسبيتك التاريخية الاصلاحية على الاطلاق». رد له ابني الصاع صاعين: «ليس جديراً بشعبه من ينسى تاريخه». وعلى هذا وافقه دافيد. لم يطرحا بعدها إلا بعض السفاسف. كتبا ورويا الفكاهات، إلا أن أحدها ـ «ما الفرق بين أميل وإيميل» ـ لم يحصل على نقاط. خرج من الملعب سريعاً.

مراراً كنت هناك. للمرة الأخيرة قبل أسابيع وكأني أنا القاتل، كأن علي أن أعود دائماً وأبداً إلى موقع الجريمة، كأن الأب يتعقب ابنه.

من مولن، حيث لم نعثر أنا وغابي على كلمات نتبادلها، إلى راتزبورغ. من راتزبرغ سافرت عبر (موستين)، القرية الصغيرة التي كانت دوريات الموت تفتش خلفها الحدود وتسد الطريق، نحو الشرق. مازالت حافات الطريق، الذي تقوم على جانبيه أشجار الكستناء، مجردة من الأشجار لمسافة ثلاثمائة متر. لا أشجار على اليمين ولا أشجار على اليسار. هنا مازال الشعور يهيمن بمدى تدرج دولة العمال والفلاحين في جهودها لوقاية شعبها.

بعد أن قطعت القفر المهمل، استعرضت سهوب مكلنبورغ الممتدة حتى الأفق من خلل الأشجار على جانبي الطريق. قليل من التموج في الأرض، قليل من الأدغال. اتخذت الطريق الخارجية الجديدة قبل (غاديبوش) مروراً بشوكات البناء ومراكز التسوق ومحال بيع السيارات، التي تحاول براياتها المهلهلة أن تنعش الاقتصاد. يا للشرق الثائر! قبل شفيرين بقليل وبينما أنا اقود سيارتي على الطريق المسورة بأشجار قصيرة القامة، صارت المنطقة مهضبة. سرت بين أدغال أوسع وكنت استمع إلى البرنامج الثالث: الموسيقى الكلاسيكية عند طلبات

المستمعين. ثم انعطفت يميناً على الطريق ١٠٦ باتجاه (لوفيغسلوست) ودنوت من مستوطنة غروسه دريش المقسمة إلى عدة فروع ـ كان يسكنها في زمن جمهورية ألمانيا الديمقراطية خمسون ألف مواطن ـ وركنت سيارتي مازدا في الفرع الثالث، جانب تمثال لينين على منعطف شارع غاغارين. كان الجو مستقراً. السماء لا تمطر والمباني مصفوفة وقد دهنت أخيراً بدهان الباستيل.

استغرب كلما زرت الأم من بقاء هذا التمثال البرونزي الضخم، الذي صنعته يد نحات استوني. رغم أن لينين ينظر ناحية الغرب، إلا أنه لم يوهب ملامح المرشد. يدس يديه في جيوب معطفه كالمتنزه يتمتع بلحظة راحة، منتصباً على القاعدة الغرانيتية الواطئة، التي يغطي البرونز درجتها السفلى الملبسة بالغرانيت في زاويتها اليسارية. تذكر الحروف الطباعية المحفورة في السبيكة بإحدى القرارات الثورية: «مرسوم الأراضي». لم يبق من اللون على معطف لينين إلا القليل، وهي أثار تركها عبث لا يقرأ. قليل من زرق الحمام على الكتفين، بينما احتفظ البنطال المنكمش بنظافته.

لم أتوقف طويلاً في شارع غاغارين. تقطن الأم في الطابق العاشر ولها شرفة باطلالة على برج التلفاز. لم استطع التهرب من قهوتها الثقيلة. رفع الإيجار بعد أعمال الترميم، قليلاً كما تقول الأم. حول هذا الموضوع، وحوله فقط تحدثنا. كما أنها لم تكن راغبة في أن تعرف ما الذي قادني للمجيء إلى مدينة البحيرات الكثيرة، عدا عن زيارتها: «اكيد مو عيد ميلاد الزعيم!». لمح تاريخ الزيارة إلى الهدف منها. إلا أني سمعتها في الباب ـ بعد أن نهرت نفسي عن القاء نظرة على غرفة كوني ـ تعليقها: «شو بدك هون؟ ما عاد الها فايدة».

عبر طريق هامبورغ ـ لينين سابقاً ـ سافرت باتجاه حديقة الحيوان مررت بـ«هكسن برغ» وركنت السيارة عندما وجدت المكان كما في حلم، بجوار بيت الشباب. تنحدر نباتات الضفة الجنوبية لبحيرة شفيرين وراء الناحية الخلفية للمبنى الرمادي. يشاهد في الأسفل (درب الفرنسيين) الذي يقع على حدود الماء تقريباً ويستخدمه المارة وسائقو الدراجات بسرور.

صار اليوم جميلاً في هذه الأثناء. في الحقيقة لم يكن الطقس طقس نيسان. الشمس تدفأ المكان حالما تتفرق الغيوم. على مسافة من ناحية مدخل بيت الشباب كانت كتل الغرانيت، التي تغطيها الطحالب كبقية باقية من نصب الشرف الذي دمر قبل عقود، مستلقية في سكون. الشجيرات البرية النحيفة تنمو بين الأشجار التي زرعت آنذاك. ولأنه لم يهدم إلا قليلاً، فقد كان أساس قاعة الشرف المربعة بارزا وحجارته مبهمة، رغم أن بيت الشباب المبني جبهويا وقف حائلاً في طريق كل تصور ممكن للمكان. على يسار المدخل، الذي يقرأ أعلاه اسم البيت بخط متناسق: «كورت بويرغر»، كانت منضدة كرة الطاولة. على الباب وضعت لوحة صغيرة مائلة قليلة: «مغلق من الساعة ٩ إلى ٤).

مكثت طويلاً بين كتل الغرانيت التي تغطيها الطحالب وبينها واحدة مازالت تحمل بقايا كتابة وإشارة رونية. يا للقيا الأثرية! لكن من أي قرن؟

عندما وجدنا أنا والأم في شفيرين ملجأ لنا، كانت الأصنام تنتصب في مكانها: صخرة بجوار الأخرى، مبنى قاعة الشرف النازي والغرانيت العظيم حامل اسم الشهيد. رأت الأم النصب التذكاري،

الذي قلت العناية به، إلا أنه مازال في رعاية الحزب الذي تتفتت حوافه. روت لي أنها وصلت إلى أشجار الزان والبلوط القصيرة بحثاً عن الحطب: «في المحل اللي حطونا فيه ما كان في خشب كفاية. .» وبرفقتها الكثير الكثير من النساء والأطفال.

قبل أن يتقدم الأمريكان بدباباتهم في ٣ أيار منطلقين من موقعهم جنوب شرق (بويتزنبروغ) حتى شفيرين ويلحقهم الانكليز ـ «سكوتلنديين حقيقيين اجو لهون. .» ـ، كنا قد خرجنا من قبو المدرسة وأسكنا في (شارع ليم). في بناء آجري سطحه من وريقات القار ويقع طبعاً في الفناء الخلفي. ارغمنا على السكن. مازال ذاك التابوت قائماً حتى الآن. غرفتان ومطبخ، والمرحاض في الفناء. ركبوا لنا مدفأة كانت مواسيرها تخرج من نافذة المطبخ. ولتغذية المدفأة ـ كانت الأم تطبخ على غطائها ـ، كان عليها أن تمضي بعيداً بحثاً عن الحطب.

هكذا تعرفت على نصب الشرف. حتى عندما انسحب الانكليز في حزيران وجاء الجيش الأحمر ليأخذ مكانهم ويبقى إلى الأبد، ظلت الصخور المنقولة قائمة بكتاباتها ونقوشها الرونية. لم يكن الروس يعيرون بالاً إلى هكذا أشياء.

كانت القوات المنتصرة اتفقت على ذلك منذ لقائها في بوتسدام وتورطنا في المنطقة التي يحتلها السوفييت، بل واستقرت الأم مقتنعة مذ اكتشفت على كبرى الصخور المتبقية، القائمة على ناحية بحيرة شفيرين، اسماً غير مجهول لديها: «كان اسم الحجرة على اسم سفينتنا كوستلوف. .».

عندما وقفت في زيارتي الأخيرة على صخرة منقولة متشققة بين الصخور المغطاة بالطحالب وتمكنت من استقراء اسم (فيلهلم داهل)

من الكتابة المسمارية المنحوتة فيه ـ لم يبق من الاسم الأول سوى المقطع (هلم) ـ استسلمت لامتحان أتصور فيه الأم باحثة عن الحطب وحالها وهي ترى، محملة بكومة من الأغصان الجافة، نصب الشرف السليم وقاعة الشرف المفتوحة. ستكون فكت حروف أسماء الرفاق الحزبيين المجهولين منها ـ بما فيهم اسم رئيس دائرة فيسمار، داهل ـ على دزينة الصخور. أتخيلها مندهشة، هي القصيرة الهزيلة، في حضرة كتلة الغرانيت بطول أربعة أمتار، إلا أنني لا أستطيع تخمين أفكارها، التي لا بد وأنها كانت مشوشة عندما رأت الخط على الصخرة حاملة اسم الشهيد. وكما أعرفها، فإنها ما فزعت من دخول قاعة الشرف وسط النصب، الذي شيد على قاعدة مغطاة بمربعات الغرانيت. كان أحد الفنانين المعاصرين نقش على الأعمدة المصقولة، التي تدعم القاعة من ناحيتها المفتوحة، مخلدا عظمة حملة الرايات في الأس.آ بعلامات واضحة. علاوة عليه كان في داخل القاعة، التي لم يكن لها سقف، عشرة ألواح برونزية عليها أسماء الموتى. وورد تحت تاريخ الوفاة «قتلاً» ثماني مرات. كانت أرضية القاعة قذرة، كما علمت من الأم: «الكلاب خريت فيها..».

إلا أن كتلة الغرانيت المخصصة لفيلهلم غوستلوف كانت خارجة عن صف الصخور المنقولة في موضع خاص، وتشاهد عبر قاعة الشرف كعلامة استثنائية. من هناك كان مجال الرؤية نحو البحيرة زاوية منفرجة ولابد وأن الأم نظرت إلى الناحية الأخرى. ما رافقتها قط في جميع الحطب، لأن جارة لنا في شارع ليم، اسمها السيدة (كوربيون) كانت ترضعني في هذه الأثناء، فلم يكن للأم أثداء، ولن يكون لها. مجرد كمأتين.

هكذا هي حال النصب التذكارية. بعضها ينصب مبكراً جداً، لتزال حالما انتهى عصر البطولات الخاص، وأخرى، مثل تمثال لينين في غروسه دريش في زاوية شارع هامبورغ/شارع بيتر، مازالت قائمة. وتمثال قائد الغواصة S13 نصب قبل حوالي عقد من الزمان في ٨ آذار ١٩٩٠، أي بعد خمسة وأربعين عاما على نهاية الحرب وسبعة وعشرين على وفاة مارينسكو. في لينينغراد، التي تسمى اليوم بيترسبورغ، يرفع عمود من الغرانيت التمثال النصفي للرجل الذي أعلن متأخراً «بطل الاتحاد السوفييتي».

أسس ضباط سابقون متقاعدون في الأسطول الحربي السوفييتي في اوديسا، في موسكو وغيرهما جمعيات وأصروا على المطالبة بتخليد ذكرى القبطان المتوفى عام ثلاثة وستين. أطلق اسمه أيضاً على ضفة نهر (بريغل) خلف المتحف المحلي في مدينة (كونيغسبرغ)، كما كانت كالينينغراد تسمى حتى نهاية الحرب. ومازال الشارع يحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم، بينما استعاد شارع (شلوس غارتن) في شفيرين، الذي أطلق عليها منذ سبعة وثلاثين اسم شارع فيلهلم غوستلوف، اسمه القديم ويمر قرب نصب الشرف السابق، مثلما يعبر طريق لينين، باسمه الجديد طريق هامبورغ، مستوطنة غروسه دريش ماراً بتمثال لينين. على أيه حال، فقد ظل عنوان الأم، المحتفي بعظمة رائد الفضاء غاغارين، وفيا لذكراه.

ألا تلفت الفجوة الانتباه؟ لم يطلق اسم طالب الطب دافيد فرانكفورتر على أي شيء. لا شارع باسمه، لا مدرسة. لم ينصب لقاتل فيلهلم غوستلوف تمثال في أي مكان من العالم. لم تدعو صفحة الكترونية واحدة إلى رفع تمثال داوود وجليات، في مكان

الجريمة في دافوس مثلا. ولو ألقى خصم ابني اللدود مثل هذه المطالب في الشبكة، لأعلن في صفحات الكراهية والحقد عن إزالته عن طريق وحدة خاصة من حليقي الرؤوس.

هكذا كانت الحال أبداً. لا شيء يخلد. مع أن اللجنة المحلية لح.ع.ا.ق.ا ورئيس بلدية شفيرين بذلوا اقصى جهودهم ليبقى نصب الشرف خالداً مخلداً اثر مقتل غوستلوف. منذ كانون الأول ستة وثلاثين، عندما انتهت محاكمة القاتل دافيد فرانكفورتر في كور السويسرية ونطق بالحكم، بدأ البحث عن الصخور المنقولة في حقول مكلنبورغ، كي يرفع جدار يسور نصب الشرف. جاء في الإرشادات: «تدعو الحاجة إلى جمع الصخور الطبيعية من مختلف الأحجام الموفورة أثناء عمليات الحفر وفي أراضي شفيرين..» وتشير رسالة لمدير الهيئة التعليمية في الاقليم، (روده)، إلى أن عاصمة المقاطعة تجد نفسها ملزمة بمؤازرة قيادة الاقليم ماليا و«باعانة مالية قدرها ١٠٠٠٠ م.ر».

بلغت التكاليف اقل من ذلك عندما أزيل نصب الشرف ومدافن الجثث وأوعية الرماد في ١٠ أيلول ١٩٤٩، فقد جاء في رسالة رئيس البلدية، التي اجتثت نازيتها: «أعلمت حكومة المقاطعة بانفاق مبلغ ٧٥،٦٠٦٩ مارك بغية التعويض..». إلا أنه ورد أيضاً أن بقايا رماد فيلهلم غوستلوف: «لم تنقل إلى مقبرة البلدية» و«يتواجد وعاء رماد المدعو غ. حسب أقوال الحجار (كروبلين) في أساس النصب. لا يمكن استخراج الوعاء في الوقت الحاضر..».

حدث هذا في الخمسينات، قبل بناء بيت الشباب واطلاق اسم (كورت بويرغر)، عدو الفاشية المتوفى حديثاً، عليه. في هذا الوقت كان مارينسكو موجوداً في سيبيريا منذ ثلاث سنوات.

بعد أن دخلت الغواصة S13 المرفأ الفنلندي توركو بدأت المصاعب مع أول جولة أرضية للرجل الذي أراد أن تستقبله الاحتفالات. رغم أن ملف المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية وجنحه التي لم تفصل فيها المحكمة بعد أن كانت تهدد حياته، لم يتوقف مارينسكو عن المطالبة بالاعتراف بأعماله البطولية سواء كان صاحياً أم مخموراً. ورغم أن الغواصة شرفت بلقب «غواصة العلم الأحمر»، رغم أن جميع أفراد طاقمها علقوا «وسام الحرب الوطنية» في صدورهم، ورغم أنهم منحوا وسام «الراية الحمراء»، بشارة المنجل والمطرقة والنجمة، إلا أن مارينسكو لم يعلن بطلاً للاتحاد السوفييتي. بل وكان الأمر أسوأ، فلم ترد في تقارير الأسطول الأحمر في بحر البلطيق ولا كلمة واحدة عن الغرق السريع للباخرة (جنرال ستويبن).

وكأنما انطلقت من مواسير المقدمة والمؤخرة على القارب تحت المائي أشباح طوربيدات ولم تصب إلا أهدافاً صورية. لم يمثل اثنا عشر ألف قتيل، دماؤهم في رقبة القبطان، شيئاً. أكانت قيادة البحرية العليا تخجل من العدد التقريبي للأطفال والنساء والجرحى الغريقين؟ أم غرقت نجاحات مارينسكو في نشوة النصر في أشهر الحرب الأخيرة عندما ثار طوفان من البطولات؟ لم يكن إصراره الصاخب قابلاً للتجاهل. لم يستطع أي شيء أن يمنعه من التعاظم بنجاحاته في كل مناسبة تسنح. صار ثقيلاً مزعجاً. عندما خلع من منصبه في قيادة غواصته في أيلول خمسة وأربعين نزلت رتبته إلى ملازم أول، ثم سرح في تشرين الأول من سلاح البحرية، وجاء في مبررات الوداع غير المشرف على ثلاث مراحل: «بسبب الفوضة والاهمال في الوظيفة».

بعد أن رفض طلبه للعمل لدى الاسطول التجاري ـ بحجة قصر

النظر في إحدى عينيه ـ وجد مارينسكو عملا في إدارة أحد مخازن توزيع مواد البناء. لم يدم الأمر طويلاً حتى وجد المناسبة ليتهم، بقليل من الأدلة، مدير الجمعية بالارتشاء ورشوة المسؤولين الحزبيين وسرقة المواد، فاشتبه به في مخالفة القانون في توزيع مواد البناء سريعة العطب بسخاء مبالغ فيه. حكمت محكمة خاصة عليه بثلاث سنين في المعتقل.

ورحّل مارينسكو إلى كوليما على البحر الابيض، إلى المكان المنتمي إلى (أرخبيل غولاغ)، الذي كتب عنه الكثير. بعد سنتين من وفاة ستالين ترك سيبيريا خلفه، من الناحية المكانية. عاد مريضاً ولم يرد الاعتبار إلى الغواصة الخسرانة إلا مع بداية الستينات. استعاد قائدها رتبة قبطان من الدرجة الثالثة وحصل على راتب تقاعدي.

عليّ أن أعود الآن خطفاً. لهذا سأكتب هنا: عندما أعلن عن وفاة ستالين في الشرق وفي الغرب رأيت الأم تبكي. بل وأوقدت شموعاً. وقفت إلى طاولة المطبخ في الثامنة من عمري، لم يكن علي الذهاب إلى المدرسة لأني كنت مصاباً بالحصبة أو مرض جلدي يثير الحك، هرست البطاطا لتقدم كوجبة طعام إلى السمن النباتي واللبن ورأيت الأم تبكي خلف الشموع المشتعلة على وفاة ستالين. كانت البطاطا والشموع والدموع نادرة تلك الأيام. ولم أشاهدها تبكي بعدها أثناء طفولتي في شارع ليم أو عندما كنت طالبا في المدرسة الثانوية في شفيرين. عندما جفت بئر دموعها اصطنعت الأم سحنة «ماني هون»، التي تعرفها الخالة جيني أيضاً منذ أيام الطفولة. كانوا يقولون في فناء المنجرة في شارع الزن في لانغفور: «رجعت تولا لعادتها القديمة». بعد أن ذرفت كفاية من الدموع على وفاة رفيقها العظيم ستالين وظلت

فترة لا سحنة لها، كان على المائدة كما أعد، بطاطا مهروسة، لبن وكتلة من السمن النباتي.

في هذا الوقت كانت الأم أنهت تعليمها وتدير مشغلاً للنجارة في معمل الأثاث في شفيرين، الذي يصنع أثاث غرف النوم حسب المقاس ولديه تعليمات بتصديرها إلى الاتحاد السوفييتي، علامة على الصداقة بين الشعوب. ولو كان مظهرها في ذلك الأوان مبهماً إلا أنها، هذا إذا دققنا النظر، ظلت ستالينية وفية، حتى لو عمدت الأم إذ حدثتها عن ستالين إلى التقليل من شأن بطلها: «ايه هو كمان كان انسان..».

وفي هذا الوقت، عندما كان مارينسكو يتعرض للمناخ السيبيري وظروف المعتقل السوفييتي، عندما كانت الأم تحافظ على ولائها لستالين، وعندما كنت، كرائد شاب، أفخر بفولاري، كان دافيد فرانكفورتر، الذي عوفي في دار الإصلاح من مرض العظام المزمن، كما قيل، يقدم خدماته لوزارة الدفاع الاسرائيلية. تزوج في هذه الأثناء وسينجب طفلين.

وفي هذه الأعوام حدثت أحداث أخرى. غادرت هيدفيغ غوستلوف، أرمل فيلهلم، شَفيرين وقطنت على الناحية الغربية من الحدود الألمانية الداخلية، في لويبك. كان البيت الذي بناه الزوجان الشابان، في شارع سيباستيان باخ رقم ١٤ قد أمم بنهاية الحرب. شاهدت المبنى المنعزل، البيت النموذجي لعائلة واحدة، في الانترنت.

بلغ التوتر بابني حداً دعاه إلى أن يطالب بتأسيس «متحف غوستلوف» في البيت المؤمم بغير وجه حق، ليتمكن الجمهور المهتم

بتاريخه من زيارته، فالحاجة عنده تدعو إلى المزيد من الخبراء والاستعلامات خارج حدود شفيرين. لن يعترض على أن تشير لوحة برونزية صغيرة توضع على يسار نافذة الشرفة الأمامية إلى أن أول رئيس لوزراء مقاطعة مكلنبورغ، المدعو فيلهلم هوكر، سكن البيت المؤمم في الفترة بين خمسة وأربعين وواحد وخمسين. كما أنه لن يمتعض إذا كتبت على اللوحة العبارة التالية: «بعد تدمير الفاشية الهتلرية»، فهذه حقيقة، مثلها مثلما يبقى مصير الشهيد حقيقة.

كان ابني حاذقاً في وضع الصور والتصاوير، الجداول والوثائق في مكانها الصحيح. بهذا لم يكن بإمكان المستخدمين أن يطلعوا فقط على واجهة كتلة الغرانيت الفارعة القائمة على الضفة الجنوبية لبحيرة شفيرين على صفحته الالكترونية بل وأيضاً على خلفيتها. بل اجتهد ووضع بجوار المنظر العام للصخرة صورة مكبرة للنقش المنحوت على خلفيتها. ما لم يكن لأحد قراءته دون ذلك. ثلاثة سطور متتالية: «عاش لأجل الحركة. اغتاله اليهود. قضى لأجل ألمانيا». لأن السطر المتوسط لم يوفر اسم القاتل فقط بل وأعلن جميع اليهود قاتلين غدارين، فقد غدا من المتوقع ـ ما سيحدث فعلاً ـ أن كوني حل تفكيره من التركيز على دافيد فرانكفورتر التاريخي وأراد إزاحة حقده على «اليهودي في ذاته».

إلا أن هذا التفسير وكذلك المزيد من البحث عن الدافع، لا يلقي الكثير من الضوء على ما حدث عصر ٢٠ نيسان ١٩٩٧. حدث ذلك أمام بيت الشباب المغلق والجامد، ما لم يكن أحد يتنبأ به ووجد نهايته وكأنما حفظ الممثلون أدوارهم على نصب الشرف السابق الذي تغطيه الطحالب.

ما الذي دفع دافيد المتخيل ليسافر من (كارلسروهه)، حيث كان التلميذ ابن الثامنة عشرة أكبر اخوته يسكن مع والديه، كعفريت بالقطار ملبياً دعوة مبهمة؟ وما الذي دفع كوني ليسقط صورة واقعية على الصداقة الناشئة في الانترنت، الخيالية أصلاً، عن طريق لقاء حقيقي؟ كانت الدعوة إلى اللقاء مبثوثة في طاحونة اتصالاتهم، بحيث لم تتضح إلا للأخ في الدم، المدعو دافيد.

بعد أن رفض دافيد بيت الشباب مكاناً للقاء توصلا إلى حل وسط. أرادا اللقاء هناك حيث ولد الشهيد. هل كان سؤالاً لاختبار المعلومات؟ فلم يرد على صفحة ابني الالكترونية لا اسم المدينة، لا اسم الشارع ولا رقم الدار. إلا أن اللبيب من الإشارة يفهم وكان دافيد، مثله مثل كوني، الذي يسمي نفسه في الانترنت فيلهلم، خبيراً حتى بأتفه التفاصيل في رواية غوستلوف الملعونة. وكما سيتضح أثناء اللقاء، فقد كان يعرف حتى إن المدرسة الثانوية التي درس فيها فيلهلم غوستلوف حتى المرحلة المتوسطة، والتي اطلق اسمه عليها بعد مقتله وتسمى منذ أيام المانيا الشرقية مدرسة السلام. لم يكن ابني يحترم معلومات خصمه فقط، بل وادهش بـ«دقته».

بهذا التقيا في يوم ربيعي جميل في شارع مارتين أمام المنزل رقم ٢ على زاوية طريق فيسمار. رضي دافيد عن التاريخ الاستثنائي ساكتاً. التقيا أمام واجهة رممت للتو لتجعل زمن الانهيار الطويل نسياً منسياً. زعموا أنهما رحبا ببعضهما وسلما على بعضهما وأن دافيد قدم نفسه لكونراد بوكريفكه الطويل باسم دافيد (شتريمبلين). كان على برنامجهما جولة في المدينة. دل كوني ضيفه على تابوت الآجر، حيث سكنا أنا والأم في فناء خلفي في شارع ليم في الفترة التالية

للحرب كأثر من آثار الماضي وكذلك الدور الرسمية المنهارة والمرممة في الحي. قاد كوني دافيد إلى أمكنة ومخابئ شبابي بثقة مطلقة ومعرفة واثقة وكأنها كانت له.

طبعا جاء دور القصر على (شلوس اينزل) بعد الاطلاع على كنيسة القديس نيكولا من الداخل كما من الخارج. أخذا كفاية من الوقت. لم يكن ابني مستعجلاً، بل وأنه اقترح زيارة المتحف المجاور، إلا أن ضيفه لم يبد اهتماماً. بدأ صبره ينفذ وأراد ن يرى أخيراً الموقع أمام بيت الشباب.

إلا أنهما أخذا استراحة أثناء جولتهما في المدينة، تناول كل منهما صحناً كبيراً من جيلاتي في مقهى ايطالي. دفع كوني الحساب وحكى له دافيد شتريمبلين كصديق قديم، وببعض السخرية، عن والديه، عن أبيه عالم الفيزياء وأمه المربية الموسيقية. أراهن على أن ابني لم ينبس ببنت شفة عن أمه وأبيه. إلا أن حكاية بقاء جدته على قيد الحياة رغم الصعاب، اتخذت ولا بد مكاناً لها في حديثه.

وأخيراً مضى الصديقان اللدودان مختلفا الطول ـ دافيد العريض كان يقصر ابني بمقدار رأس ـ عبر حديقة القصر، مرا بطاحونة شلايف، عبرا شارع شلوس غارتن، الذي كان عنواناً غالياً بسبب الفيلات التي تلمع بياضاً. ثم عبرا درب فالدشول مقتربين من مكان الجريمة المنبسط تحت الأشجار. لم تكن الأجواء متوترة في البداية. عبر دافيد شتريمبلين عن اعجابه بمنظر البحيرة. لكان لهما أن يلعبا مباراة بكرة الطاولة أمام بيت الشباب لو توافرت كرة ومضارب.، فقد كان كوني ودافيد من المتحمسين لها ولما كانا فوتا على نفسيهما الفرصة السانحة. وأغلب الظن أن المباراة كانت ستهدئ الثائرة وتمنح العصرية مجرى آخر.

ثم وقفا على الأرضية التاريخية، كما يقال. لم تدع حتى كتلة الغرانيت المغطاة بالطحالب ولا كسرة الصخرة المنقولة التي تحمل الرموز الرونية بيقايا الاسم إلى الشجار. ضحكا معا على السنجاب المتقافز بين أشجار الزان. ولما وقفا على أساس قاعة الشرف السابقة، وعندما دل ابني ضيفه على موقع أكبر الصخور سابقاً، خلف بيت الشباب الذي لم يكن موجوداً آنذاك، عندها فقط، عندما وجه الأنظار إلى كتلة الغرانيت، ثم رتل اسم الشهيد على واجهة الصخرة والسطور الثلاثة المنحوتة على خلفيتها كلمة كلمة، قال دافيد شتريمبلين: «كيهودي، ليس بوسعي إلا أن..» وبصق على الأساس الذي تغطيه الطحالب، أي «دنس» مكان الحداد، كما قال ابني لاحقاً.

بعدها مباشرة انطلقت العيارات النارية. كان كوني يرتدي رداءً عسكرياً رغم الشمس الحادة. استل سلاحه من أحد الجيوب الواسعة، في يمين الرداء، وأطلق النار أربع مرات. كان مسدساً روسي الصنع. أصابت الطلقة الأولى البطن. الأخرى الرقبة، العنق والرأس. خر دافيد شتريمبلين صامتاً نحو الخلف. لاحقاً ثمن ابني عالياً أنه أصاب كما أصاب اليهودي دافيد فرانكفورتر في دافوس. ومثله أيضاً مضى إلى أقرب تلفون، أبلغ عن نفسه بعد أن اتصل بالرقم ١٠١. ودون أن يعود إلى مكان جريمته، مضى في طريقه إلى أقرب مخفر للشرطة حيث سلم نفسه قائلا: «أطلقت النار لأني ألماني».

لاقته على الطريق سيارة شرطة وعربة اسعاف بأضوائهما الزرقاء. إلا أنها وصلت متأخرة جداً.

# ٨

يدعي الذي يتظاهر أنه يعرفني، أنني لا أعرف لحمي ودمي. ربما لم استطع الولوج في أقصى ثناياه، أم أني لم أجد مفاتيح أسرار ابني؟ مع بداية المحاكمة دنوت من كوني أكثر فأكثر، ولو لم أكن اقتربت منه كثيراً في المسافة إلا أن قربي صار على مستوى الاستماع على الأقل. رغم ذلك فقد فوت الفرصة لأجرؤ من موقع المشاهد على اطلاق صيحات كهذه مثلاً: «أبوك يقف في صفك»، أو «الله يخليك يا ابني، لا تلق المحاضرات، اختصر أقوالك».

لهذا يصر أحدهم على أن يسميني «الأب المتأخر»، وبتقديره يحدث كل ما أفعله على نحو السرطان، كل ما أقوم به دانياً من الحقيقة أو أكشف عنه كأنما تحت الاكراه «متأخراً وبضغط من عذاب الضمير..».

والآن، ولأن «تأخرت كثيراً» تطعّم جهودي، يتمحص كومة أوراقي، هذه القصاصات الملتمة، يريد أن يعرف ما الذي حدث لفراء الثعلب الذي تملكه الأم. يبدو أن هذا التذييل، الذي يجب إيراده هنا، يحمل أهمية خاصة لدى الرئيس، الذي يرجوني ألا احتفظ بجزيئات معارفي، بل أن أسرد بالتسلسل عن ثعلب تولا، رغم أني أكره هذا الزي الخارج عن زمنه أشد الكره.

صحيح، كان للأم فرو ثعلب منذ البدء ومازالت تحمله على كتفيها حتى الآن. كانت في حوالي السادسة عشرة عندما أهداها إياه عريف، يحتمل أن يكون أباً لي بدوره، فرو الثعلب السليم والمحنط من قبل أحد الفرائين، وذلك في موقف (هوخ شتريس) للمترو عندما كانت تؤدي وظيفتها على الخطوط ٢ و٥ كجاب للمترو واضعة السدارة وحاملة دفتر التذاكر. «اجا من الجبهة مجروح وكان في اجازة نقاهة في اوليفا»، قالت وتقول مختزلة في وصف من يكون قد أنجبني، فما كان قد خطر في بال هاري ليبناو غريب الأطوار ولا مساعد سلاح الجو القاصر أن يهديا الأم فراء الثعلب.

وصعدت على متن السفينة غوستلوف حاملة ذلك الفرو الدافئ حول عنقها عندما حمّل عليها آل بوكريفكه. وبعد أن توقفت السفينة وتجرأت الحامل على سطح التشمس المتجمد معتكزة جندي البحرية الشاب، خطوة خطوة، كانت تحمل الفرو، وكان فرو الثعلب في متناولها قرب طوق النجاة عندما كانت مستلقية في مركز الحوامل والنافسات وحقنها الدكتور ريشتر بعد الطوربيد الثالث وبوادر آلام الطلق. متنازلة عن كل شيء آخر ـ تخلت الأم عن حقيبة ظهرها ـ، لافة فقط طوق النجاة حول بطنها والفراء حول عنقها، صعدت الأم، قبل أن تصبح أماً، قارب النجاة وتزعم أنها مدت يدها إلى فرو الثعلب قبل أن تمدها إلى طوق النجاة.

وهكذا وصلت متن قارب الطوربيد لوفه دون أحذية، إلا أن الفرو كان يدفئ رقبتها. وفقط أثناء الولادة التي بدأت بعد ذاك، أي في تلك الدقيقة عندما غرقت السفينة غوستلوف على مقدمها مائلة نحو اليسار وحينما اختلطت صرخة الآلاف بصرختي الأولى، كان الفرو ملقياً

جانبها. وعندما تركت الأم قارب الطوربيد في كولبرغ، بيضاء الشعر بضربة قاصمة، سارت في طريقها في جوارب، إلا أنها كانت تحمل فرو الثعلب، الذي لم يعاني من صدمة نفسية، مضيقاً عليها الخناق.

تزعم أنها قمطتني في فرارها الأبدي أمام الروس بالثعلب خوفاً علي من البرد القارس، وأني لولا الثعلب كنت توفيت برداً في زحمة الفارين. أن الفضل في بقائي على قيد الحياة يعود إلى الثعلب ـ ليس إلى النساء اللواتي كان حليبهن يتدفق ـ. «من غيره كنت راح تصير علقة جليد..». وتزعم أيضاً أن العريف الذي شرفها بالفراء ـ صنيعة يد فراء من وارسو، حسبما ادعى ـ قال مودعاً: «من يعرف يا حلوة بماذا سينفعك في يوم من الأيام».

إلا أن فرو الثعلب كان ملكاً لها وحدها في زمن السلم، عندما لم يعد علينا أن نرتجف برداً وملقيا في علبة أحذية في خزانة الثياب. كانت ترتديه في كل فرصة مناسبة أو غير مناسبة. مثلاً عندما حصلت على شهادة التخرج في مهنتها، ثم لدى تقديرها كـ«ناشطة لاتضاهى» وحتى أثناء احتفالات الشركة، طالما تواجد على برنامج الاحتفال «أمسية ملونة». وعندما اكتفيت بدولة العمال والفلاحين وأردت الانتقال من برلين الشرقية إلى الغربية، رافقتني إلى المحطة والثعلب يلتف حول عنقها. لاحقاً، لاحقاً جداً، عندما زالت الحدود بعد فترة خلود قصيرة، وعندما كانت الأم تحصل على راتب التقاعد، ظهرت في لقاء الناجين على المسبح البحري في دامب مع فراء الثعلب المعتنى به أشد الاعتناء، كانت تبدو غريبة بين السيدات المتبرجات بأحدث الزينة من عمرها.

وعندما جلست الأم في اليوم الأول للمحاكمة، حيث قرئ تقرير

الادعاء واعترف ابني بالجريمة دون اعتراض إلا أنه لم يجد يديه ملوثتين بأي ذنب ـ «فعلت ما كان علي أن أفعله» ـ، ليس حيث جلسنا أنا وغابي رغماً عنا جنباً إلى جنب، بل اتخذت باستعراض مبالغ فيه مكاناً لها جوار والدي دافيد الذي أصابته أربع طلقات قاتلة، كانت ترتدي، وكأنما ببداهة، فراء الثعلب الذي أحاط بعنقها كحبل. كان فمه المبوز يعض ذنبه من أعلاه في الفراء، بحيث أن العيون الزجاجية المخادعة وكأنها حقيقية، التي فقدت إحداها أثناء رحلة الفرار الطويلة وعوضت بأخرى، تقعان في خط مائل نظير عيني الأم باللون الرمادي الفاتح، ما أدى إلى إلقاء نظرة مضاعفة على المدعى عليه أو إلى أن تشخص النظرة المضاعفة منصة القاضي.

كانت رؤيتها وهي ترتدي ثيابها حسب أقدم الموضات أكثر ما يخجلني، خاصة وأن الثعلب لم يكن يفوح برائحة عطر الأم المفضل (توسكا)، إنما بالرائحة الحادة للنفتالين وعلى مدار العام. كان يبدو أجرب بين الحين والآخر، ذلك الحيوان. إلا إني أنا نفسي فوجئت في اليوم التالي عندما دعيت باعتبارها شاهدة النفي وتقدمت إلى كرسي الشهود، فقد كانت ترتدي ذلك الفرو الملون بشكل يتلائم وشعرها الملتهب بياضاً وقدمت لأجوبتها الأولى بالصيغة المألوفة «أقسم» رغم أن أحداً لم يحلفها وهي تقول كل ما لديها بالألمانية الفصحى، ذلك ببعض من التعاظم. •

وبخلافنا أنا وغابي، حيث امتنعنا عن الادلاء بأية معلومات مستغلين حقنا القانوني، فقد كانت الأم سعيدة بالادلاء بأقوالها. تحدثت أمام المحكمة الملتئمة، أمام ثلاثة قضاة، الرئيس ومساعديه، والمحلفين، كأنما هي تحدث جماعة في قداس عيد الفصح. أنصت

الجمع إليها عندما ابتهلت إلى النائب العام للأحداث وادعت أن الجريمة المرعبة آلمتها هي أيضاً أشد الإيلام. أن قلبها تقطع، فصله سيف من نار. أن قبضة عملاقة حطمتها تحطيما.

تظاهرت الأم في ساحة (ديملر) حيث جرت المحاكمة أمام المحكمة العليا للمقاطعة في شفيرين، بالانهيار النفسي. بعد أن لعنت القدر، صبت لعناتها على الجميع، أدانت الوالدين العاجزين عن الحب وأسهبت في تقريظ حفيدها، الذي قادته قوى الشر والعفاريت ـ «الكامبيوتر» ـ نحو الضلال، بأنه ذاك المجد اللطيف، الأنظف من النظافة، الخدوم والدقيق في مواعيده، ليس فقط فيما يتعلق بالظهور في الموعد المحدد للعشاء. وأكدت أنها شخصياً تعودت على تنظيم دورة يومها بالدقيقة منذ أن بدأ حفيدها كونراد يتردد عليها ـ حيث أن عينها قرت بهذه الفرحة منذ ان كان في الخامسة عشرة ـ. نعم، هي تقر أن الكمبيوتر بملحقاته كانت للأسف هديتها إليه، لكن لا يفهمن أحد أن الجدة بالغت في تدليل الصبي، بل العكس، فحيث أنه لم يبد متطلبات شخصية، بشكل غير اعتيادي، فقد نزلت بسرور عند رغبته بالحصول على «هذا الشيء الحديث». «لم تكن له رغبات سواها» هتفت وتذكرت: «كان بمقدوَر صغيري كونراد أن يمضي معظم وقته مستمتعاً بهذا الشيء».

ثم وبعد أن لعنت الشيء الحديث المغري، جاءت على موضوعها. فالسفينة، التي لم يرغب أحد في أن يعرف عنها شيئاً حتى الآن، دعت الحفيد إلى المساءلة دون كلل. إلا أن كونراد الصغير لم يكتف فقط بابداء اهتمامه البالغ بغرق «باخرة قمم الممتلئة بالنساء والأطفال الصغار» وسؤالِ الجدة الناجية عنها، بل وأنه، وليس بناءً

على رغبتها وحدها، كان مستعدا لينشر معلوماته العظيمة «كل ما يتعلق بالقضية» بمساعدة الكمبيوتر الهدية في جميع أنحاء العالم حتى استراليا وآلاسكا. «هذا غير ممنوع يا سيادة القاضي وإلا؟» هتفت الأم وأزاحت رأس الثعلب إلى موقع مركزي.

ثم جاء الحديث عن الضحية سراعاً وزعمت أنها فرحت كثيراً بأن «صغيري كونراد» صادق بهذه الطريقة - «أعني عبر الكامبيوتر» - صبياً آخرَ دون أن يقابله شخصياً، ذلك حتى لو اختلفا في الرأي أغلب الأحيان، لأن حفيدها الغالي كان معتزلاً العالم. هكذا هي طباعه. وحتى العلاقة مع صديقته الصغيرة من (راتزبورغ) - «هي تشتغل ممرضة عند طبيب أسنان ما هناك» - يجب أن ينظر إليها على أنها علاقة سطحية - «ما حدث بينهما شيئ من الجنس او أمثاله» -، فهي تعلم هذا علم اليقين.

هذا وكثيراً غيره قالته الأم بنزاهة كشاهدة النفي بالألمانية الفصحى، مفخمة كلامها بعض الشيء. مجدت «حساسية كونراد في الشديدة في مسائل الضمير»، «حبه الذي لا يلين للحقيقة» و«فخره الذي لا يتزعزع بألمانيا» أمام هيئة المحكمة. إلا أن الأم اضطربت عندما أكد لها النائب العام للأحداث، حالما أكدت هي أن الأمر لم يغمها كثيراً كون صديق كونراد في الكمبيوتر ابناً ليهود، أن والدي المغدور ليسا من أصول يهودية كما تؤكد الوثائق والأدلة، بل أن شتريمبلين الأب يتحدر من عائلة قساوسة من (فويتمبرغ) وتتحدر زوجته من سلالة فلاحين تقطن (بادن) منذ عدة أجيال. دعكت الثعلب واتخذت لعدة ثوان سحنة «ماني هون»، تخلت عن جهودها في التحدث بالألمانية الفصحى وصاحت: «هيك لكان! ايه ما كان بامكان صغيري كونراد

يعرف أنه دافيد يهودي مزور. واحد ضحك على حاله وعلى التانيين، لما عمل حاله يهودي بمناسبة وغير مناسبة وما كان يحكي إلا عن عارنا. . ».

منعها رئيس المحكمة من متابعة الكلام عندما شتمت المغدور بأقوال على غرار «الكذاب الماكر» و«عملة مزورة». لم يظهر الجزع على كوني، الذي كان يستمع إلى مزاعم الأم الثعلبية حتى ذلك الوقت مبتسماً ابتسامة وديعة، ربما خاب ظنه عندما جاء النائب العام للأحداث بالبرهان القاطع على «الأصول الآرية النقية»، كما قال ساخراً، لـ«فولفغانغ شتريمبلين»، الذي اتخذ في الانترنت اسم دافيد. وجاء تعليقه على ما كان يعرفه سابقاً هادئا: «هذا لا يبدل شيئا في لب الموضوع. أنا وحدي صاحب القرار في إن كان الشخص المعروف لدي باسم دافيد ينطق بلسان اليهودي ويسلك سلوكه أم لا». وعندما سأله رئيس المحكمة إن كان قد قابل طوال عمره يهودياً حقيقياً سواء في مولن أم في شفيرين، جاوب بلا واضحة إلا أنه أضاف: «أطلقت النار منطلقاً من مبدأ».

ثم جاء الكلام على السلاح الذي رماه ابني من الضفة الجنوبية العالية في بحيرة شفيرين ولم تَقل الأم عنه إلا: «كيف كان بامكاني أن أجد هذا الشيئ سيدي النائب العام؟ كان صغيري كونراد يرتب غرفته دائماً بنفسه. كان يصر على ذلك دائماً». وإذ سئل عن سلاح الجريمة قال ابني إنه كان بين يديه منذ عام ونصف العام ـ وبالمناسبة كان هذا مسدس توكاروف ٧ مم من مخلفات الجيش السوفييتي ـ وإنه اضطر إلى حمله لأن شبيبة اليمين المتطرف في ارياف (مكلنبورغ) هددوه علناً. لا، لا يريد أن يشي بأسمائهم. «أنا لا أخون الرفاق السابقين».

كان الداعي إلى تلك التهديدات محاضرته التي ألقاها بدعوة من جمعية تتبنى أفكاراً قومية، والتي كان موضوعها، «مصير سفينة قمم فيلهلم غوستلوف من بناء القاعدة حتى الغرق» معقداً جداً بالنسبة إلى بعض المستمعين و«بينهم بعض الأغبياء المستسلمين لنشوة البيرة القوية». وأكثر ما أحنق حليقي الرأس كان تقديره الموضوعي للقدرات العسكرية لقائد الغواصة السوفييتية، الذي أطلق الطوربيدات من موقع خطر. شتمه كثير من الزعر بأنه «صديق الروس» وهددوه في الشوارع، بل وتهجموا عليه. «اتضح لي ابتداءً من ذلك الوقت أنه ليس بامكان المرء ملاقاة أولئك النازيين الحرفيين مجرداً من السلاح. ليس بالامكان التعرض لهم بالحجج والبراهين».

لعبت هذه المحاضرة التي ألقيت في مطلع ستة وتسعين ذات مرة في ملهى من ملاهي شفيرين، اتخذته الجمعية أعلاه مركزاً للقاءاتها، ومحاضرتان أخريتان لم تلقيا، إنما قدمتا مدونتين لهيئة المحكمة، دوراً خاصاً في مجرى المحاكمة التالي.

فشلنا معاً فيما يخص إحدى المحاضرات. كان علي أنا وغابي أن نعلم ما الذي جرى في مولن. أغمضنا عيوننا نجن الاثنان. هي المربية، ولو في مدرسة أخرى، لا بد أنها وصل إلى أسماعها لماذا منع ابنها من القاء محاضرته ذات الموضوع المتميز «بسبب الميول غير الطبيعية»، كما جاء في تبرير المدرس للمنع. إلا انه كان يجب علي أنا أيضاً، والحق يقال، أن أعير ابني مزيداً من الاهتمام. فقد كان ممكنا مثلاً أن أنظم زياراتي غير الدورية، لأسباب مهنية، إلى مولن بحيث أتمكن في لقاء أولياء الأمور من السؤال عن السبب. حتى لو أدى التساؤل إلى نزاع مع أحد أولئك المتحذلقين. لكان بامكاني أن

أسأل: «ما السبب في منعه؟ أين بقيت شعارات التسامح؟» وأسئلة أخرى مشابهة. لربما أضفت محاضرة كوني، بعنوانها الفرعي «النواحي الايجابية للجمعية النازية * القوة من المسرة*» بعض الروح على درس مادة الاجتماع الممل. إلا أنني لم أحضر أي لقاء من لقاءات أولياء الأمور وكانت غابي غير معنية باحراج موقف زملائها المربين الصعب، بمزيد من الاعتراضات الأمومية لأجل حقوق ابنها، خاصة وأنها شخصياً «ضد كل محاولات التخفيف من آثار شبه الايديولوجيا السوداء» واكتفت بالدفاع عن مواقفها اليسارية أمام ابنها دون تؤدة وتفهم، كما أقرت هي ذاتها.

لن يبرأ ساحتنا أي تبرير. ليس لنا أن نزيح فشلنا على الأم وحدها أو على أخلاقيات المتحذلقين ضيقة الأفق. ووجب، علي أنا وزوجتي سابقاً، أن نقر بفشلنا، ولو أنها من ناحيتها كانت مترددة وتصر على الإلماح إلى حدود التدخل في التربية، أثناء سير المحاكمة. آه، ليتني، أنا مجهول الأب، ما أصبحت أباً.

على كل حال فقد كان والدا المسكين دافيد يلقون على أنفسهم اللوم ذاته، وهو الذي أثارت سلوكياته في عشق السامية ثائرة ابننا كوني. فقد قال لي السيد شتريمبلين، عندما تمكنا أنا وغابي من الدخول في حديث مفتوح معهما، كان في بدايته وئيداً، أثناء إحدى الاستراحات، إن عمله العلمي البحت في مركز للأبحاث الذرية وبالتأكيد ايضاً حكمه البراني على الأحداث التاريخية، مما دعا إلى البعاد، بل إلى الصمت المطبق بينه وبين ابنه. إن أكثر ما لم يتفهمه ابنه كانت نظرته الباردة نسبياً إلى مرحلة نظام القومية الاشتراكية. «والنتيجة كانت المزيد من المسافة بيننا». وقالت السيدة شتريمبلين إن

فولفغانغ كان معارضاً دائماً. إنه لم يكن يبحث عن علاقات مع أترابه إلا للعب كرة الطاولة. إنها لا تعلم بعلاقة قوية نوعاً ما، مع صديقة مثلاً. إلا أن ابنها اتخذ الاسم دافيد باكراً جداً، منذ أن كان في الرابعة عشرة، وإنه حمل نفسه، لا يعلم إلا الله لماذا، بأعباء تلك المرحلة وجرائم الحرب وإن المذابح الجماعية دفعته للغوص عميقاً في أفكار الجريمة والعقاب، بحيث صار يجد كل ما هو يهودي مقدساً نوعاً ما. إنه لم يتمنَّ هدية في أعياد الميلاد سوى شمعدان بطول سبع أذرع. بشكل من الأشكال كانت رؤيته جالساً إلى معشوقه الأول والأخير، الكمبيوتر، واضعاً طاقية يضعها المتدينون اليهود، تبعث على الاستغراب. «كان يطالبني أن أكتفي بطبخ كوشا فقط». وقالت إنها لا تستطيع إلا بذلك أن تفسر لماذا قدم ابنها دافيد نفسه في ألعابه الالكترونية باسم دافيد المؤمن بالديانة الموسوية. كان يتجاهل توجيهاتها بضرورة وجود نهاية لهذه الدعاوى الأبدية. «في الفترة الأخيرة لم نكن نقدر على التواصل مع الولد». ولهذا فإنها لا تعلم أيضاً كيف تمكن ابنها من العثور على ذلك المسؤول الحزبي المخيف وقاتله، أحد طلاب الطب اسمه فرانكفورتر: «هل توقفنا مبكراً عن متابعة تربيته؟».

كانت السيدة شتريمبلين تتحدث على دفعات وزوجها يومئ موافقاً. وتابعت أن فولفغانغ كان يجد عظيم الشرف في دافيد فرانكفورتر ورغم أن تفطنه الأبدي عن صراع داوود وجليات صار ثقيلاً، يبدو أنه كان جاداً فيه. كان أخواه الأصغر، يوبست وتوبياس، يهزآن من مبالغاته في تدينه الجديد، بل إن فولفغانغ وضع على مكتبه صورة مؤطرة لفرانكفورتر في شبابه عندما ارتكب الجريمة في دافوس،

بالإضافة إلى كم الكتب وقصاصات الجرائد ومطبوعات الكمبيوتر. يبدو أنه كان لكل هذا علاقة ما بغوستلوف والسفينة المعمدة باسمه. «مخيف، مخيف، ما حدث وقتها مع غرق السفينة وكل أولئك الأطفال. ما كان أحد يعرف عنهم شيئا وحتى زوجي وهوايته دراسة التاريخ الألماني الحديث، حتى هو ما كان لديه الكثير من المعلومات عن غوستلوف حتى...» قالت السيدة شتريمبلين.

بكت. ومعها بكت غابي وألقت يدها العاجزة على كتف السيدة شتريمبلين. كما تصاعدت الدموع في عيني، إلا أن الأبوين اكتفيا بتبادل نظرات تشير إلى التفاهم. أكثرنا لقاءاتنا مع والدي فولفغانغ، حتى خارج مبنى المحكمة. كانا ليبراليين، يلقيان باللوم على أنفسهم أكثر مما يلقيانه علينا. يبذلان جهودهما ليفهما ما حدث. وكما بدا لي، فقد كانا يصغيان باهتمام بالغ إلى شروحات كوني المطولة وكأنهما يأملان أن يعلما منه، هو قاتل ابنهما، ما يضيء لهما عتمة ولدهما.

استلطفت السيد والسيدة شتريمبلين. هو، في حوالي الخمسين، بنظارته وشعره الأشيب المعتنى به، نموذج الذي ينظر إلى كل شيء، حتى الوقائع الملموسة، نظرة نسبية. وهي، في أواسط الأربعين، إلا أنها تبدو أكثر شبابا وتميلَ إلى أن ترى الأشياء غير قابلة للوضوح بشكل ما. عندما جاء الحديث على الأم، قالت: «يقينا إن جدة ابنكم شخصية جديرة بالملاحظة، إلا أنها تبدو لي مقبضة بشكل ما».

عن اخوي فولفغانغ الأصغر سمعنا أنهما مختلفان كلياً عن أخيهما. كانت قلقة على درجات ابنها الأكبر في المدرسة، على ضعفه في مادتي الرياضيات والفيزياء، وكأن فولفغانغ مايزال «بشكل ما» حيا وسيتمكن أخيراً من الحصول على شهادة الثانوية العامة.

كنا نجلس في أحد المقاهي حديثة التأثيث على كراس دوارة إلى مائدة مستديرة عالية. طلبنا نحن الأربعة كابوتشينو دفعة واحدة، دون حلوى. كنا أحياناً نخرج عن موضوعنا، بحيث نجد أنفسنا مضطرين مثلاً إلى الاعتراف للزوجين شتريمبلين، وهما متقاربان منا سناً، بأسباب طلاقنا المبكر. اختصرت غابي رأيها بأن حالات الطلاق الضرورية غدت اليوم مسألة طبيعية ويجب ألا تعتبر ذنباً. أنا كنت متحفظاً وتركت زوجتي سابقاً تتولى أمور إيضاح ما يمكن إيضاحه، ثم غيرت الموضوع وأدخلت، مبلبل الخاطر، المحاضرتين اللتين لم يسمح بالقائهما في مولن وشفيرين إلى مجرى الحديث وللحال تشاجرنا أنا وغابي، كما كان عهدنا أيام الزواج التليد. زعمت أن تعاسة ابننا ـ وعواقبها المفزعة من ثم ـ بدأت مع منعه عن إبداء رأيه في ٣٠ كانون الثاني ثلاثة وثلاثين وعرض رؤيته في القيمة الاجتماعية للمنظمة النازية «القوة من المسرة»، إلا أن غابي قاطعتني: «من المفهوم تماماً لماذا أوقفه المدرس. ففي النهاية يرتبط هذا التاريخ بيوم استيلاء هتلر على السلطة وليس بعيد ميلاد شخصية ثانوية يصادف التاريخ نفسه، هذه الشخصية التي أراد ابننا التحدث عنها بالطول والعرض. وخاصة في معالجة موضوعه الثانوي *العجز في حماية الآثار*..».

وأمام هيئة المحكمة اتخذت الأمور مجراها التالي: دارت أقوال مدرسين، أعطيا المدعى عليه درجات من جيد إلى جيد جداً، حول المحاضرتين اللتين لم تلقيا في مولن وشفيرين. اتفق المربيان، ممثلين هنا لجميع الأنحاء الألمانية، في أن النصوص الممنوعة كانت موبوءة بأفكار القومية الاشتراكية، إلا أن هذه الأفكار أدخلت في صلب

الموضوع بذكاء خارق، مثلاً بالدعاية لـ«جماعة بشرية لاطبقية»، لكن وأيضاً بالمطالب المدسوسة بمهارة على غرار: «حماية الآثار بعيداً عن الايديولوجيا» عطفاً على شاهدة قبر المسؤول النازي السابق غوستلوف المدمرة، والذي حاول التلميذ كونراد بوكريفكه تقديمه على أنه «الابن العظيم لمدينة شفيرين». أريد منع نشر هكذا ترهات بدواع المسؤولية التربوية، خاصة وأن اعداداً كبيرة بين التلاميذ والتلميذات ـ في المدرستين ـ تتمتع بميول يمينية متطرفة. ثم أكد المدرس في المدرسة الألمانية الشرقية على «تقاليد مدرستنا المعادية للفاشية»، ولم يستذكر الألماني الغربي إلا العبارة المهترئة: «احموا الأغرار بينكم».

عموما كانت الشهادات مهنية، هذا إذا استثنينا اهتياجات الأم وأقوال الشاهدة روزي، التي أكدت مراراً وعيناها تدمعان، أنها ستبقى وفية «للرفيق بوكريفكه». ولأن محاكم الأحداث ليست عمومية، فلم يكن هناك مجال للخطب الرنانة. إلا أن رئيس المحكمة، الذي كان يلقي بين الحين مزحة ما وكأنما هو يريد تلطيف خلفية القضية المغرقة في الجد، أعطى ابني المجال لإلقاء المزيد من الضوء على دوافع جريمته، ما فعله كوني بالتفصيل متعطشاً إلى حرية الكلام.

وطبعاً بدأ مع آدم وحواء، هذا يعني مع ميلاد رئيس اللجنة المنطقية لح.ع.أ.ق.ا، وإذ ركز على قدراته التنظيمية في سويسرا وأعلن معافاته من أمراض الصدر نصراً «للقوي على الضعف»، تمكن من تفصيل بطل خاص على مقاسه. وبهذا وجد اخيراً الفرصة للاحتفاء بـ«الابن العظيم لشفيرين عاصمة المقاطعة». لو تواجد جمهور في القاعة، لسمعت دمدمة موافقة من الصفوف الخلفية.

وعندما جاء دور الحديث على الإعداد لجريمة القتل في دافوس

وتنفيذها، تحرر كونراد من دفتر الملاحظات والمذكرات وأعطى القيمة الكبرى للحصول القانوني على سلاح الجريمة ولعدد الطلقات: «مثلي تماماً أصاب دافيد فرانكفورتر أربع مرات». كما وضع ابني عبارة فرانكفورتر، التي أطلقها أمام محكمة الكانتون تعليلا لجريمته، أنه أطق النار لأنه يهودي في مجرى الحديث، بعد أن أضاف عليها من لدنه: «أطلقت النار لأني ألماني، ولأن دافيد فرانكفورتر بنطق بلسان اليهودي الأبدِي». لم يتوقف طويلاً عند المحاكمة أمام محكمة الكانتون في كور، إلا أنه ذكر، إنه، وبخلاف البروفسور غريم وخطيب الرايخ ديفرغه، لا يرى تحريضاً يهودياً على الجريمة. وزعم أن الحق يجب أن يقال وأن فرانكفورتر أيضاً،مثلما فعل هو، قام بفعلته «لضرورة ذاتية».

ثم صور كونراد حفل التشييع الرسمي، بل وأشار إلى حالة الطقس - «كان الثلج يتساقط حفيفاً» - ولم ينس في تصويره أن يذكر أسماء الشوارع التي مر بها موكب الجنازة. وأخيراً وبعد جولة طويلة، أجهدت حتى القاضي الجلود حول معنى وواجبات وخدمات الجمعية النازية «القوة من المسرة»، جاء على بناء السفينة. لاح أن هذا القسم من خطابه أمام المحكمة يمتع ابني بالغ الامتاع. فقد أعطى المعلومات الدقيقة عن طول وعرض وعمق السفينة متحدثاً بيديه ورجليه. ومع الحديث عن تدشين السفينة وتعميدها من طرف «أرمل الشهيد»، كما قال، وجد الفرصة السّانحة ليعلن مدعياً: «هنا في شفيرين أممت أموال السيدة هيدفيغ غوستلوف بعد انهيار الرايخ الألماني العظيم دون حق، وأبعدت لاحقاً عن المدينة».

ثم جاء على التصميم الداخلي للسفينة المعمدة وأعطى تفاصيل

أروقة الطعام والاحتفالات، عدد الحجرات، حوض السباحة في الطابق الأرضي وأخيراً قال مختصراً: «كانت السفينة الآلية اللاطبقية تمخر العباب وستبقى رمزاً من رموز القومية الاشتراكية، مثالاً حياً حتى اليوم وحقيقة لها آثارها في المستقبل أيضاً». بدا لي وكأن ابني يتنصت بعد انهاء عباراته الطنانة إلى تصفيق جمهور متخيل، إلا أنه لا بد وأن لاحظ في الآن ذاته نظرات كبير القضاة الصارمة والداعية الآن إلى الإيجاز. بسرعة نسبية، كما سيقول السيد شتريمبلين، جاء على ذكر الرحلة الأخيرة وإصابة السفينة بالطوربيدات، ذكر العدد المرعب للغرقى والمتجمدين مع غرق السفينة «بتخمين فضفاض» ووضعه في مقارنة مع أعداد الموتى الأقل كثيراً أثناء غرق سفن أخرى، ثم ذكر عدد الذين أنقذوا، شدد شاكراً على ذكر القباطنة، ولم يأت على ذكري أنا أبيه، إلا أنه ذكر جدته: «في هذه المحكمة الموقرة، تتواجد السيدة السبعينية أورزولا بوكريفكه، التي ألقي شهادتي اليوم باسمها»، وعليه نهضت الأم ليتعرفها الحضور والثعلب يحيط بعنقها. وهي أيضاً، كانت كمن يظهر أمام جمهور كبير.

كأنما أراد كوني أن ينهي التصفيق، الذي لا يسمعه أحد غيره، صار عملياً وتوجه نحو الوقائع، عظّم «العمل الصغير الجديد بالمجد» لمساعد الصراف هاينز شون وعبر عن أسفه لاستمرار تخريب حطام السفينة غوستولوف أثناء السنوات التالية للحرب من طرف الغواصين والباحثين عن الكنوز: «لكن ولحسن الحظ، لم يعثر هؤلاء البرابرة لا على ذهب بنك الرايخ ولا على غرفة برنشتاين الاسطورية..».

شعرت هنا بإيماءة موافقة من رئيس هيئة المحكمة الجلود. تابع ابني سيل خطابه. وبدأ بالحديث عن قائد الغواصة السوفييتية S13.

قال إن الكسندر مارينسكو استرد اعتباره بعد سجن طويل في سيبيريا وأعلن «بطل الاتحاد السوفييتي». «للأسف لم يتمكن من امتاع عينيه بهذا الشرف إلا قصيراً، فقد توفي بعدها بمرض السرطان». لم يسمع منه شكوى، لم يسمع منه، كما فعل في الانترنت، شيء عن «الروس الدنيئين»، بل فاجأ ابني القضاة والمحلفين والنائب العام أيضاً، بأن استغفر ضحية الجريمة فولفغانغ شتريمبلين، الذي عرفه باسم دافيد. قال أنه قيم في موقعه الالكتروني إغراق السفينة فيلهلم غوستلوف أولاً وأخيراً باعتبارها جريمة بحق النساء والأطفال، إلا أنه توصل عبر دافيد إلى وجهة النظر القائلة إن قائد الغواصة S13 قيم السفينة المجهولة لديه كهدف عسكري، وعن حق. «إذا جرى الحديث عن الذنب، يجب إذا الادعاء على قيادة البحرية العليا. يجب الادعاء على الادميرال أول، فقد سمح بتحميل كم من المستخدمين العسكريين علاوة على الفارين على ظهر السفينة. المجرم اسمه دونيتز»، هتف. استراح كوني قليلاً، كأنما هو ينتظر نهاية الشغب في القاعة وكأنما هو ينتظر نهاية صيحات المقاطعين، إلا إنه ربما كان يبحث عن كلمات ينهي بها خطابه: «إني أتحمل عبء جريمتي، إلا أنني أرجو المحكمة الموقرة أن تنظر في حكم الاعدام الذي نفذته، كمسألة تصب في مجرى عام. أعلم أن فولفغانغ شتريمبلين كان بصدد إنهاء الثانوية العامة وللأسف لم يكن بمقدوري أن آخذ هذا بعين الاعتبار. القضية كانت وستكون اكبر. يجب على شفيرين، عاصمة المقاطعة، أن تتمكن أخيراً من تشريف ابنها العظيم بالاسم. إني أدعو إلى إقامة نصب تذكاري، هناك حيث أعلنت الحداد على الشهيد بطريقتي الخاصة، يستعيد لنا وللأجيال القادمة ذكرى فيلهلم غوستلوف الذي غدر به اليهودي. وكما شرف

أخيراً قائد الغواصة الكسندر مارينسكو بإقامة نصب تذكاري على شرفه في سانت بترسبورغ قبل بضعة أعوام، هكذا يجب أيضاً تكريم الرجل الذي ضحى بحياته في ٤ شباط ١٩٣٦ كي تتحرر ألمانيا أخيراً من أغلال اليهود. لا أرهب من الاعتراف بأن لليهود من ناحيتهم أسبابهم لتشريف طالب الطب ذاك، الذي وهب شعبه بطلقاته الأربعة رمزاً، بتمثال إما في اسرائيل، حيث توفي دافيد فرانكفورتر عام واحد وثمانين، أوفي دافوس. ولن يضير حتى لوحة برونزية».

أخيراً جمع رئيس المحكمة شتات أفكاره: «كفاية». ثم سكنت القاعة. لم يبق بيان ابني، كلا، بل دفق بنات أفكاره دون نتائج. إلا إن محاضرته لم تلعب دوراً في تخفيف الحكم ولا في تشديده، فلا بد وأن هيئة المحكمة تعرفت الخطل المتدفق، المحكم بذاته، مع كلمات كوني والهلوسات التي أكدتها ايضاً تحليلات الخبراء واقتنعت بها هيئة المحكمة قليلاً أو كثيرا.

أنا شخصياً لا أثق كثيراً بأمثال هذه المكتوبات. لكن ربما لم يكن ذلك الطبيب النفسي المتخصص بالثنايا المعتمة للحياة الأسرية، مخطئاً كلياً عندما أسقط «الجريمة الفردية لليائس» على يفاعة المدعى عليه دون وجود أب يرعاه ونتف بَذلك شعر أصولي اليتيمة ونشوئي دون أب. كما سارت تقارير الخبيرين الآخرين على السراط ذاته. مطاردة دؤوب لحكايات فارة في سفوح الحياة الأسرية. بالنتيجة كان الذنب كله ذنب الأب، رغم أن غابي، بصفتها صاحبة الحق الوحيد في الحضانة، كانت من لم تمنع ابنها من الانتقال من مولن إلى شفيرين، حيث وقع أخيراً فريسة فخاخ الأم.

هي وحدها المذنبة في كل هذا. هي الشمطاء بفرو الثعلب حول

عنقها. كانت منذ البدء إشارة مضللة، كما يعلم من يعرفها منذ نشأتها وكان على علاقة بها، أنا و اثق من هذا. فإنه وحالما يتحدث عن تولا ينضح عرقاً. . .يلغط بأحاديث غامضة. . لابد أن عرابها كان روحاً مائية شريرة من أرواح قبائل كاشوب او كوشنيف.

برأس مائل، بحيث تتوافق نظرتها الرمادية بلون الصخر مع عيني الثعلب الزجاجيتين، كانت الأم تشخص ببصرها الخبراء الذين يلقون تقاريرهم. جالسة دون حراك ومتلهفة إلى كل كلمة، كانت تصغي إلى من أدرجوا فشلي الأبوي كضابط للإيقاع في فحيح الورق ومنحوها لحنا تستمتع به. لم تذكرها التقارير إلا في دور ثانوي ورغم ذلك جاء فيها: «لم تتمكن الجدة الرؤوف من تعويض الأب والأم في حياة الشاب. على كل حال يمكن القول أن مصير الجدة ونجاتها من الغرق حاملاً وكذلك ولادتها أثناء غرق السفينة طبعت الحفيد كونراد بطابعها، هذا من جهة ومن جهة أخرى قد تكون شوشت أفكاره بحيث كان كمن عايش تلك الظروف الصعبة في مخيلته. .».

حاول محامي الدفاع أن يعمق هذا الخدش الذي نحته الخبراء وكان هذا رجلاً مجداً من عمري فوضته مطلقتي بالدفاع عن ابنها، لكنه لم يتمكن من كسب ثقة كوني. وكلما تحدث عن «فعل غير محسوب، جريمة عن غير عمد» وحاول تخفيف القتل العمد إلى القتل الخطأ، كان ابني يقضي على جهود محاميه باعترافاته الطوعية قضاءً مبرماً: «تفكرت طويلاً وكنت هادئ البال طوال الوقت. لا لم يلعب الحقد أي دور. كانت أفكاري عملية بحتة. وجهت الطلقات الثلاث إلى أهداف بعينها بعد الطلقة الأولى التي أصابته للأسف في البطن، أعمق قليلاً من هدفي المعين. للأسف بمسدس مختلف. كنت أتمنى

استخدام نفس النوع الذي استخدمه فرانكفورتر». لاح كوني كرجل قادر على تحمل المسؤولية كاملا. كمن نما مبكراً، كان كمن يدعي على نفسه أمام المحكمة بنظارته وشعره الأحعد، بدا وكأنه أكثر يفاعة من أبناء السابعة عشرة، وكان يتحدث بحكمة شيخ وكأنه جمع تجارب حياة طويلة في دورة تدريبية سريعة. فمثلاً، رفض أن يوافق على شراكة أبويه في الذنب. عطوفا ومبتسما قال: «أمي تمام، حتى لو كانت أثارت أعصابي بحكاياتها الدائمة عن اوشفيتز. وعلى هيئة المحكمة ان تنسى والدي بسرعة، كما أفعل أنا منذ سنوات، أن تنساه كليا».

هل كان ابني يكرهني؟ هل كان كوني قادراً أساسا على الكره؟ أنكر مراراً كرهه اليهود. أميل إلى الحديث عن حقد عملي تضمنه كوني. حقد على الفتيل الضعيف. قنديل مضاء دائم الاشتعال. حقد لا شهوانية فيه، حقد خنثى يتكاثر ويتكاثر.

أم أن محامي الدفاع لم يخطئ إذ حور التركيز على فيلهلم غوستلوف عبر الأم إلى البحث عن تعويض للأب؟ فقد طرح أن الزوجين غوستلوف لم ينجبا أطفالاً وبهذا دخل الصياد كونراد بوكريفكه في ثقب بصري يملأ عليه فراغ حياته، ففي النهاية تقدم التقنية الحديثة، خاصة الانترنت، مهربا من عزلة الشباب!

مما يؤكد هذا الحسبان أن كوني، وحالما سمح له القاضي بابداء رأيه في هذه النقطة، تحدث متحمسا وبحرارة عن «الشهيد» وقال: «بعد أن انتهت أبحاثي إلى أن النشاط الاجتماعي لفيلهلم غوستلوف كان واقعاً تحت تأثير غريغور شتراسر أكثر مما هو واقع تحت تأثير الزعيم، صرت لا أجد مثلي الأعلى إلا فيه الأمر الذي عبرت عنه في

موقعي الالكتروني بوضوح مراراً وتكراراً. يعود الفضل في مواقفي الذاتية على الشهيد. وكان الثأر له واجبي المقدس».

وعندما ألح بعدها النائب العام على سؤاله عن أسباب احتقاره لليهود، قال جواباً: «انتم مخطئون في رؤيتكم! مبدئيا ليس لدي شيئ ضد اليهود مطلقاً. إلا أنني، مثل فيلهلم غوستلوف، مقتنع تماما بأن اليهودي جسم غريب بين الشعوب الآرية. فليرحلوا جميعاً نحو اسرائيل، حيث مكانهم. هنا لا يمكن تحملهم، هناك يحتاجون إليهم أشد الحاجة في صراعهم مع المحيط المعادي. كان دافيد فرانكفورتر محقا تماما في قراره بالذهاب إلى فلسطين بعد إطلاق سراحه مباشرة. وله مطلق الحق أن يعمل لدى وزارة الدفاع الاسرائيلية».

شعرت في مسار القضية أن الوحيد، بين جميع الذين تكلموا، الذي ينطق بكلمات واضحة كان ابني. كان يتطرق إلى موضوعه مباشرة، يرتب أفكاره، يجد حلا لكل معضلة ويأتي على الحد الفصل، بينما كان الادعاء والدفاع، الخبراء الثلاثة وحتى رئيس القضاة بمساعديه والمحلفين، يتوهون في البحث عن الدافع على الجريمة وهم يسترشدون بالرب وبفرويد. كانوا يبذلون كل جهودهم ليجعلوا «الشاب المسكين»، كما قال محامي الدفاع، ضحية الزواج الفاشل والأهداف الدراسية الموجهة توجيها خاطئا وضحية عالم كافر، بل وحاولوا أخيرا، كما تجرأت مطلقتي، أن يلقوا بالذنب على «الجينات التي ورثها الابن عن جدته عبر الأب».

لم تذكر الضحية الحقيقية، طالب الثانوية العامة فولفغانغ شتريمبلين الذي رفع نفسه إلى اليهودي دافيد في الاونلاين، إلا نادراً. وفر الجميع وجوده على استحياء، ولم يطرأ في الجدال إلا كهدف. هكذا

حسب الدفاع أن من حقه أن يعيره بالتمثيل المحرض لوقائع مزورة. ورغم أن أحداً لم ينطق بعبارة «ذنبه على جنبه»، إلا أنها كانت تعشش في جمل ثانوية مثل هذه: «قدمت الضحية نفسها بنفسها» أو «لم يكن تحوير النزاع في الانترنت إلى الواقع مجرد خطأ متعمد».

على كل حال فقد نال القاتل النصيب الأعظم من جرعات التعاطف. لابد أن الزوجين شتريمبلين سافرا قبل النطق بالحكم لتلك الأسباب. نعم هما فعلاها. لكن ليس قبل أن يؤكدا لي ولغابي في مقهى قبالة مبنى المحكمة، أن حكماً قاسياً ليس في مصلحتهما ولا في مصلحة فولفغانغ. «نحن بعيدون جداً عن وساوس الانتقام»، قالت السيدة شتريمبلين.

لو حضرت جلسات المحاكمة لأسباب مهنية محضة، أي كصحفي محايد، لوجدت الحكم المخفف إلى القتل الخطأ «عقاباً خفيفاً جدا»، هذا إن لم اجده «فضيحة قضائية»، إلا إنني، وبعيدا عن عملي الصحفي ومهتما بالدرجة الأولى بابني الذي تقبل الحكم سبع سنوات من السجن دون أن يرف له جفن، ذهلت. سنوات ستضيع من عمره، سيسرح وهو في الرابعة والعشرين من عمره، لو قضى مجموع الحكم في السجن. ورغم أنه سيعيش حياة الحرية بعدها، إلا أن الحياة مع المجرمين واليمينيين المتطرفين الحقيقيين ستكون قد صلبت روحه الطرية وسيرتد اغلب الظن ليرتكب جرائم جديدة و يعود إلى السجن. كلا، لا يمكن تقبل هذا الحكم.

إلا إن كوني امتنع عن استغلال الفرصة التي عرضها محاميه لاستئناف المحاكمة بالطعن في الحكم. لا أستطيع أن أعيد هنا إلا ما قاله لغابي: «ببساطة من الصعب علي القبول بأني أخذت سبع سنين

فقط. حكموا وقتها على اليهودي فرانكفورتر بثمانية عشرة سنة وقضى تسع سنين ونصف في السجن».

لم يرغب في رؤيتي قبل قيادته إلى الزنزانة. وفي قاعة المحكمة لم يعانق أمه، إنما جدته، التي لم تصل رغم أحذيتها العالية إلا إلى صدره. وقبل أن يختفي نهائياً، استدار وأدار نظره في القاعة. ربما كان يبحث عن والدي دافيد، أو فولفغانغ، ويفتقدهما.

أخيراً تمكنت في ساحة دامر أن أدس سيجارة في وجهي وهنا رأينا غضب الأم رؤى العين. نزعت، مع الفرو وزينتها الخاصة بالمناسبات الرسمية، الثعلب وألمانيتها الفصحى المتعاظمة: «هادا مو عدل»، قلعت السيجارة من زاوية فمي، داست عليها كمن ينتقم من شيء مجهول، يريد القضاء عليه، صرخت، ثم هدأت ثائرتها لتقول متدفقة: «هادا أكل خرا. ما عاد في عدالة. كان المفروض يحطوني أنا في بيت خالتي مو الولد. ايه، ايه أنا اللي هديته الكامبيوتر وبعدين هديته الطبنجة في عيد الفصح الأخير، لأنهن هددو صغيري كونراد، هدول الصلعان. مرة اجا عالبيت ووجهه معبا دم. بس ما بكي. ما دمعو عيونه ولا دمعة وحدة. بس الطبنجة كانت عندي في الكومودينا من زمان. كنت اشتريتها بعد الوحدة من سوق الروس. كانت رخيصة كتير. ايه بس ما حدا سألني في المحكمة من وين اجت هالشغلة..». ●

# ٩

منذ البدء وضع لي لوح المحرمات. منع علي محاولة قراءة أفكار كوني، أن أصور ما يمكن قد فكر فيه كمسرح للأفكار أو أحاول كتابة ما يطرأ في رأس ابني واقتباسه.

يقول: «لا يدرك أحد ما الذي فكر فيه أو يفكر. كل جبهة تحفظ ما كتب عليها وليس فقط جبهته. لاجدوى من محاولة رفع قشرة الدماغ. علاوة عليه لا ينطق أحد بما يفكر فيه، ومن حاول هذا، يكذب مع أولى الكلمات. لم تكن الجمل التي تبدأ هكذا: فكر في تلك اللحظة... أو جاء في رأسه... إلا عكازات. لا شيء ينغلق على نفسه كما الرأس. وحتى التعذيب المتصاعد لا يؤدي إلا اعترافات كاملة. بل ويمكن الغش حتى في لحظة الاحتضار. لهذا لن يمكننا أن نعرف ما الذي فكر فيه فولفغانغ شتريمبلين عندما توصل إلى قراره في لعب دور اليهودي دافيد في الانترنت، أو ما هي الكلمات التي دارت في رأسه عندما شاهد، واقفا أمام بيت الشباب *كورت بويرغر*، كيف يستل صديقه اللدود، الذي تسمى في الاونلاين فيلهلم ويعرفه الآن باسم كونراد بوكريفكه، مسدسه من جيب سترته الأيمن وأصاب، بعد الطلقة الأولى في البطن، بثلاث طلقات أخرى رأسه وافكاره المنغلقة على نفسها. إننا لا نرى إلا ما نراه. لايقول السطح كل

شيء، لكنه يعلن ما فيه الكفاية. إذا لا تذكر آفكاراً ولا حتى ملحقات ممكنة. فهكذا، مقتصدين في الكلمات، نأتي إلى النهاية أسرع».

حسن أنه لا يعلم ما هي الأفكار التي تدب في التفافات دماغي اليسرى واليمنى، تأخذ معاني مرعبة وتكشف عن أسرار مخيفة محفوظة وتعريني، بحيث أرتعش جزعاً وأحاول تغيير منحى تفكيري سريعاً. مثلاً فكرت في هدية آخذها إلى (نويشتريلتز) حاولت أن ابتدعها مناسبة للزيارة الأولى.

حيث إني حصلت على جميع التقارير الصحفية المتعلقة بالقضية من قسم التصميم لدينا في الجزيرة، فقد كانت أمامي صورة لفولفغانغ شتريمبلين من (باديشه تسايتونغ). بدا لي جميل القسمات، لكن ليس بشكل استثنائي، له ملامح طالب الثانوية ربما، لكن بالتأكيد ملامح الشاب في سن التجنيد. كانت على فمه ابتسامة وتظهر في عينيه بعض علامات الحزن. شعره الأشقر الداكن دون مفرق. شاب يميل برأسه قليلاً نحو اليسار. له سحنات المثالي الذي يفكر بما لا يعلمه إلا الله.

الجدير بالذكر أن التعليقات الصحفية ضد ابني مخيبة للآمال من حيث الكم والكيف. حدثت الكثير من الجنايات التي ارتكبها اليمينيون المتطرفون في جزأي ألمانيا المتحدة، بينها محاولة قتل بلغاري في بوتسدام بمضارب البيْسبول والاعتداء بالرفس حتى الموت على متقاعد من بوخوم. كان حليقو الرأس يضربون ضرباتهم في كل مكان، وبحرية. خلال ذلك صار العنف بدواع سياسية حقيقة يومية وينطبق هذا على النداءات الموجهة ضد اليمين أيضا، وكذلك تأسف السياسيين، الذين يقدمون الهشيم لنيران الجريمة بتنديدهم الفج. ربما

كانت الواقعة التي لا نزاع فيها، وبموجبها تبين أن فولفغانغ شتريمبلين ليس يهودياً، قد أضعفت الاهتمام بالقضية، فقد نشرت في البداية، بعد ارتكاب الجريمة مباشرة، وفي جميع أنحاء الاتحاد الألماني، عنوانات عريضة على غرار: «إطلاق النار على مواطن يهودي» و«عملية قتل جبانة ترتكب حقداً على اليهود» وهكذا أيضا عنونة الصورة أمامي والتي ألصقتها تحتها: «آخر ضحايا العداء للسامية».

هكذا تواجدت في حقيبتي خلال زيارتي الأولى إلى سجن الأحداث ـ وهو مبنى منهك يصرخ داعياً إلى إزالته من الوجود ـ صورة فولفغانغ شتريمبلين الصحفية كهدية لابني. تكرم علي كوني بكلمة شكر، عندما دفعت إليه الصورة المطوية طوية واحدة فقط. سواها وابتسم. دار حديثنا ثقيلاً، لكنه على كل حال من علي بالحديث. جلسنا في غرفة الزيارات وجهاً لوجه وعلى المناضد الأخرى، كان المجرمون الاحداث يستقبلون زوارهم.

لأنه منع علي قراءة أفكار ابني، فلا ببقى لي إلا القول إنه ظهر قبالة أبيه منغلق على نفسه كعادته، لكنه لم يكن رافضاً له. بل وسألني عن نشاطي الصحفي ولما حكيت له عن تقرير مصور حول النعجة المعجزة دولي المنسوخة في اسكتلندا ومخترعها، لاحظت عليه الابتسام. «هذا الخبر سيهم ماما بالتأكيد، فهي تفهم في مسألة الجينات وخاصة جيناتي أنا».

ثم أعلمني بامكانية لعب كرة الكاولة في السجن في أوقات الفراغ وأنه يتقاسم زنزانته مع ثلاثة أحداث آخرين «حاملين السلم بالعرض، لكن لا خوف منهم» وأن له زاويته الخاصة وفيها طاولة ورف كتب وأنه يتمكن من الدراسة بالمراسلة وهتف: «النقم بشيء جديد. سأقدم

امتحان البكالوريا خلف القضبان، لنقل في خلوة أبدية». امتعضت من محاولات كوني أن يكون فكها. عندما مضيت أخذت مكاني صديقته روزي، التي جاءت في ثياب سوداء، كأنها في حداد، وآثار الدموع بادية في عينيها. هنا تقوم دورة الحياة على المجيء والذهاب: أمهات نائحات وآباء حيارى. سمح مسؤول الرقابة الذي كان يفتش الهدايا بإهمال بمرور صورة فولفغانغ. لابد أن الأم زارته قبلي، ربما مع غابي. أم أنهما تعاقبتا في زيارت كوني؟

مضى الوقت. لم أعد أعلف النعجة المعجزة دولي بورق ذي محتوى خشبي. علاوة على ذلك وصلت إحدى مغامراتي القصيرة مع الإناث إلى نهايتها ـ كانت هذه المرة مصورة اختصت بتشكيلات الغيوم ـ كمشهد ثانوي بصمت مبستر. ثم جاء الدور على الزيارة التالية. بالكاد جلسنا قبالة بعضنا البعض حتى روى لي ابني أنه وضع بعض الصور في إطارات وزججها في مشغل السجن وعلقها تحت رف الكتب: «طبعا بينها صورة دافيد». ثم أنه زجج صورتين كانت بين مواده صفحته الالكترونية وجلبتها له الأم نزولا عند رغبته. وهذه كانت صورتان يظهر عليهما القبطان من الدرجة الثالثة الكسندر مارينسكو إلا أنهما، كما قال ابني، مختلفتان كما لا يمكن الاختلاف بعدها. قال إنه اصطاد النسخ من الشبكة الانترنت. ادعى اثنان من المعجبين بمارينسكو،» كل على حدى، أنهما ينشران الصورة الحقيقية. «هزل مسل» قال لي كوني وأخرج الصور المؤطرة كصور عائلية من تحت كنزته النرويجية التي لا تهترأ أبدا. بأسلوب عملي قال لي: «ذو الوجه الدائري مع المنظار معلق في المتحف البحري في بترسبورغ وهذا هنا، ذي الوجه المثلث على برج احد القوارب، يفترض أنه

الحقيقي. على أية حال، هناك وثائق تؤكد أنه أهدى النسخة الأصلية لهذه الصورة إلى قحبة فنلندية، قدمت خدماتها لمارينسكو أكثر من مرة. كان قبطان S13 ينشغل كثيراً بالنساء. هكذا ناس يتركون خلفهم كثيراً من الحكايات».

تحدث ابني مطولاً عن معرض صوره الذي يحتوي أيضاً صورة مبكرة وأخرى متأخرة لدافيد فرانكفورتر. يظهر في المتأخرة عجوزاً ومرتداً إلى التدخين. لم تبق إلا صورة واحدة لم يعلقها وإذ أردت أن أصنع لنفسي بعض الآمال، بترها كوني وكأنها يستطيع قراءة أفكار أبيه وأعلمني أن إدارة السجن منعت عليه للأسف ان يزين زنزانته «بلقطة واضحة للشهيد في زيه العسكري».

الأم هي أكثر من زارته، وعلى كل حال فقد تواجدت هناك أكثر مني. احتجت غابي لتقصيرها بـ«مشاغل النقابة»، فهي تعمل في وظيفة فخرية في فرع «التربية والعلم». وحتى لا أنسى روزي أقول: كانت تذهب في زيارات دورية وكفت علامات البكاء من الظهور عليها حالا.

انشغلت طوال العام بصريخ الحملات الانتخابية المبكرة في جميع الأنحاء الألمانية، هذا يعنيَ حاولت مثلي مثل جميع المتصحفين أن أقرأ في فنجان استطلاعات الرأي الدائمة. لم يعط هذا النواح من ناحية المحتوى إلا القليل. على كل حال فقد كان من المنتظر أن يعلف القسيس (هينتزه) حزب الديمقراطيين الاشتراكيين حتى التخمة، وتبين فيما بعد أنه لم يعد للسمين الذي عزل من منصبه ما ينقذه. كنت كثير التجوال، استجوب نواب البرلمان، رؤوس الاقتصاد من الدرجة المتوسطة، بل وحتى بعض الجمهوريين فقد توقعت

الاستطلاعات لليمين المتطرف نسبة تتجاوز الخمسة بالمائة. كانت نشاطاتهم ملحوظة خاصة في مقاطعة مكلنبورغ فوربومرن ولو أن نجاحهم لم يكن بالغا.

لم أذهب إلى نويشتريليتز إلا انني علمت من الأم تلفونياً أن حال «صغيري كونراد» جيدة وأن وزنه زاد قليلاً. علاوة عليه فقد أصبح مشرفا على دورة كمبيوتر للمجرمين الأحداث و«تمت ترقيته» كما قالت. «ايه بتعرف هو كان ورقة آس في هالمجال». هكذا تخيلت ابني وهو، منتفخ الوجنتين، يعلم زملاءه في السجن الالفباء حسب أحدث طرق الاستخدام، إلا أني تصورت أنه يمنع على نزيلي سجن الأحداث الدخول في الانترنت وإلا لتمكن بعض الجناة من إيجاد طريق للهرب البصري بزعامة أستاذ الشبكة كونراد بوكريفكه، من الانطلاق الجمعي في cyberspace.

علاوة عليه أعلمت أن فريقاً لكرة الطاولة من سجن نويشتريلينتز، وفيه ابني، لعب ضد مجموعة مختارة من سجن بلوتسنزه للأحداث وكسب المباريات. خلاصة، كان ابن الصحفي كثير الانشغال، الذي أدانته المحكمة بالقتل الخطأ والبالغ في هذه الأثناء، مجداً نشطاً على مدار الساعة. إبان بداية الصيف نال الثانوية العامة بدرجة جيد جداً وأرسلت له برقية: «مرحى كوني».

ثم جاءتني الأخبار من الأم. أمضت أكثر من أسبوع في غدانسك البولونية وسمعت منها لما زرتها بعد عوتها في شفيرين: «طبعاً تمشيت كمان في دانتسيغ، بس كنت أكثر الوقت في لانغفور. كل شي هنيك تغير. بس بيتنا في شارع الزن باقي على حاله وحتى صناديق الورد في البلكون بعدها على حالها...». قامت برحلتها في حافلة سياحية:

«كان النا كتير رخيص». مجموعة من المهجرين، نساء ورجال في سن الأم وأكبر، التحقت برحلة عرضتها شركة سياحية باسم (رحلات الحنين إلى الوطن). قالت الأم: «كان حلو هنيك. لازم نخليها للبولون لأنهن عمّرو كل شي من جديد. الكنايس وغيرها. الشغلة الوحيدة اللي ما عادت موجودة هو تمثال غوتنبرغ اللي كان في غابة (يشكنتال) مباشرة ورا (اربسبرغ). بس الجو كان حلو كتير كتير في (برنسن) اللي عملو فيها مسبح جديد متل ما كان قبل. . .».

ثم جاءت بعدها سحنة «ماني هون». إلا أن الاسطوانة عادت لتتكرر من جديد: كيف كانت الأحوال قبلا، قبل كثير من الزمن في فناء النجار أو ما الذي كان يحدث على ساحل بحر الشرق في العطلة الصيفية «لما كنت بعدني بقد العودة». وروت أنها سبحت مرة مع ثلة من الأولاد إلى حطام سفينة كان هيكلها يلوح سامقا في البحر منذ انطلاقة الحرب العالمية الأولى. «كنا نسبح عميق كتير في العلبة المصدية. وواحد من الاولاد كان يغوص أعمق من الكل، كان اسمه يوخن. .».

نسيت أن أسأل الأم إن كانت دست فرو الثعلب اللعين في متاع رحلة الحنين إلى الوطن رغم حرارة الصيف العالية، لكني سألت إن كانت الخالة جيني رافقتها إلى دانتسيغ لانغفور أو مكان آخر. «لاء» قالت الأم «ما كان بدها تجي معنا مشان رجليها، مو مشان شي تاني. قالت انهن يوجعوها كتير. بس أنا رحت في طريق المدرسة اللي كنا نروح فيه انا ورفيقتي جيني اكتر من مرة طلوع ونزول. بس بدا لي أقصر بكتير من هديك الأيام. .». لابد وأن الأم قدمت لابني بعد عوتها أكثر بكثير من انطباعات رحلتها، جميع تفاصيل الاعتراف الذي

همست لي به همسا: «رحت كمان لـ(غوتنهافن) بس لحالي. هنيك في المحل اللي ركبونا فيه في السفينة. تخيلت كل شي في راسي، كمان هدوك الصغار المشقلبين على راسهن. كان لازم ابكي، بس ما قدرت..». مرة أخرى «ماني هون». ثم لم يدر الكلام إلا عن «قي.م.م»: «في الحقيقة كانت سفينة حلوة..».

لهذا لم أدهش عندما ووجهت أثناء زيارتي التالية بعد الانتخابات العامة إلى نويشتريليتز بصنيعة الهواية الجنونية في تركيب الأجسام. كان صندوق القطع الذي استغله ابني هدية، لا بد أن ثمنها دفع من محفظة الأم - أمثالها يجد المرء في قسم الألعاب في المحلات التجارية هناك، حيث تتواجد علب تحتوي قطعا لنماذج مشهورة، تطير، تسير وتسبح، مرتبة فوق بعضها البعض. لا أعتقد أنها اشترتها في شفيرين، لا بد انها عثرت عليها، إما في محلات (الستر هاوس) في هامبورغ أو (ق.م.ب) في برلين. كانت تقضي الكثير من الوقت في برلين. في الفترة الأخيرة كانت تقود سيارة ماركة غولف وكانت، فيما يتعلق بأسلوبها في قيادة السيارة، جريئة. الأم تتجاوز عن مبدأ.

كانت تأتي إلى برلين، لا لكي تزورني في فوضى شقة العزاب في كرويتزبرغ إنما كي تتبادل مع صديقتها جيني في شمارغندورف الحديث «عن بكير كتير كتير» وهي تشرب شامبانيا (روتكوبشين) مع كعكة طرية. كانتا تتلاقيان منذ الوحدة كثيراً وكأنما تريدان تعويض شيء فوتتاه، كأنما تريدان موازنة السنين الضائعة لزمن السور. كانتا زوجاً استثنائيا.

عندما كانت الأم تزور الخالة جيني، وإذا سمحت لي بحضور هذه اللقاءات، كان الخجل يبدو عليها وتتصابى كفتاة خرجت للتو من

مغامرة صغيرة وتريد الآن أن تعيد الأمور إلى نصابها. والخالة جيني كانت تبدو بخلاف هذا كمن غفرت الهفوات التي حدثت قبل سنوات وسنوات. أراها تمسد شعر الأم وتلثغ: «طيب تولا، انسي كل اللي راح»، ثم تصمتان وتكتفي الخالة بشرب عصير الليمون الساخن. إذا كانت الام أحبت أحداً عدا كونراد الذي غرق في البحر أثناء السباحة وكونراد الصغير الذي انتهى به الأمر ليصبح جانياً، فقد كان هذا الخالة جيني.

لم تبدل قطعة اثاث واحدة في شقة الخالة جيني مكانها، منذ أن غيرت مسكني في مطلع الستينات من بيتها إلى غرفتي الوحيدة في شمارغندورف. يبدو كل ما يقوم هناك من التحفيات كأنه من بنات أفكار أول أمس، لكنها ليست مغبرة. وكما تلتصق على جدران الخالة ـ التي اشتهرت بالاسم الفني (آنغوستري) ولعبت دور (جيزيل) وفي بحيرة البجع و(كوبيليا)، نحيلة منفردة أو رقيقة جانب استاذ الباليه ـ صور الباليه، كذلك تلتصق الذكريات داخل الأم وخارجها. وإذا كان بالإمكان تبديل الذكريات، فإن شارع كارلباد كان وسيبقى أفضل الأسواق للعثور على هذه البضاعة.

هكذا ستكون بحثت أثناء إحدى رحلاتها البرلينية ـ قبل زيارتها الخالة جيني او بعدها ـ بين معروضات (ق.م.ب) لصناديق قطع التركيب للهواة عن نموذج بعينها. ليس عن الطائرة المائية (دورينز) Do X، ليس عن نموذج مدرعة (كونيغستيغر). لا السفينة الحربية بيسمارك، التي اغرقت سنة واحد واربعين، ولا الطرادة (أدميرال هيبر)، التي فككت إبان نهاية الحرب، كانتا جديريتين بالإهداء. لم تختر شيئاً حربياً، فقد كان معشوقها سفينة الركاب فيلهلم غوستلوف.

اغلب الظن انها لم تستشر أحدا في ذلك، فقد كانت الام تعرف دائماً ما تريد.

سمح لابني بناء على طلبه باصطحاب عمله الاستثنائي الخاص إلى غرفة الزيارة. وعلى كل حال فقد أومأ رئيس الحراس موافقا عندما جاء جاء السجين كونراد بوكريفكه حاملاً نموذج السفينة. دفع ما شاهدته على انسلال خيوط من الأفكار انعقدت في كبة. ألن يكف هذا؟ هل تتكرر الحكاية من جديد؟ ألن تجد لها الأم نهاية؟ ما الذي فكرت فيه عندما اشترت الهدية؟

قلت لكوني، الذي بلغ هذه الأثناء سن البلوغ: «جميل جدا. لكني فكرت أنك كبرت على هذه الأشياء وإلا ماذا؟». وأعطاني الحق: «أعرف، لكن لو أنك أهديتني عندما كنت ثلاثة عشر أو أربعة عشر السفينة غوستلوف في عيد ميلادي، ما كان يلزمني الآن أن أعوض ألعاب الطفولة. لكنها كانت مسلية جداً، عندي كثير من الوقت في السجن، وإلا ماذا؟».

كانت الإصابة بليغة وبينما أنا اجترها وأتساءل هل كان الانشغال بالسفينة اللعينة كلعبة في الوقت المناسب وتحت رعاية الأب سيمنع على ابني الانجرار إلى الجريمة، قال: «أنا طلبتها من الجدة تولا. أردت أن أرى مرة واحدة كيف كان منظرها. فعلا جميلة وإلا ماذا؟».

تمثلت سفينة القوة* من المسرة أمام عيني بكامل زينتها من المقدم حتى المؤخرة. ركّب ابني حلم الاصطياف اللاطبقي من جزيئات كثيرة. كم كان سطح التشمس فسيحاً وكم كان طلقا! كم كانت المدخنة الوحيدة وسط السفينة بميلان قليل نحو المؤخرة رائعة! يمكن رؤية طابق التنزه المزجج بجلاء، حديقة الشتاء، العريش، تحت قمرة

القيادة. تفكرت أين يمكن أن يتواجد في باطن السفينة الطابق الأرضي بحوض السباحة وأحصيت قوارب النجاة. لم يكن ينقصها شيء.

صمم كوني نموذج السفينة البيضاء اللألاءة على هيكل من الأسلاك صنعه بنفسه. اكتفيت بابداء اعجابي بالعمل الموهوب ولو هزءا. وعلى مديحي رد كوني بضحكة مخنوقة. أخرج كالساحر علبة صغيرة من جيبه، خبأ فيها ثلاثة أزرار حمراء صغيرة وبها حدد مكان الإصابات الثلاثة: وضع زرا على يسار مقدم السفينة، الثاني على المكان الذي توقعت أن يكون حوض السباحة فيه والثالث كان لغرفة الآليات. قام كونراد بكل ذلك بطريقة احتفالية. مسد جسد السفينة. تأمل عمله. بدا عليه الرضا وقال: «بالميليمتر» ثم بدل الموضوع بغتة.

أراد ابني أن بعلم مني اسم الحزب الذي انتخبته في الانتخابات الاتحادية، فقلت: «بالتأكيد ليس الجمهوريين» وأضفت أني لم أعد معنيا بالانتخابات المحلية منذ زمن بعيد. «هذا دليل آخر على حقيقتك. ألا تكون لك قناعات حقيقية مطلقا» قال إلا أنه لم يرد أن يكاشفني باسم مرشحه بالبريد. راهنت على الحزب الديمقراطي الاشتراكي بايحاء من الأم، إلا أنه اكتفى بالابتسام وبدأ يدس أعلاما صغيرة، أعدها بنفسه أغلب الظن وكانت تنتظر في علبة أخرى، في مقدم ومؤخرة السفينة، في رأس الساريتين. بل إنه أعد رمز قمم وراية جبهة العمل الألمانية كمنمنمات وكذلك راية الصليب المعقوف. السفينة ذات السواري! كان كل شيء عليها في مكانه الصحيح، إلا أن شيئاً ما كان ينقصه هو!

ما العمل إذا قرأ الابن أفكار أبيه الحرام، التي تعاني منذ سنوات

تحت الحجر، يغزوها غزواً ويطبقها؟ كنت أبذل جهدي على الدوام كي أكون نزيها، على الأقل سياسيا، ألا أقدم على خطأ، أن أبدو للآخرين سليما مائة بالمائة. سواء لدى جرائد شبرينغر أو لدى تاتز كنت أغني حسب اللحن المحدد لي، بل وكنت مقتنعاً نوعاً ما بما تكتبه يداي. لم يكن صعباً علي أن أخفق الحقد كي يصبح زبدا أو أن أتجاوزه على الأقل هادئا. إلا إني لم أكن قط رأس الحربة، لم أتمكن قط من تحديد مسار المقالات الرئيسية. كان الآخرون يقترحون الموضوع. هكذا تمكنت من البقاء في الوسط، لم أتزحلق نحو اليمين ولا نحو اليسار، لم يكن لي ركن، كنت أسبح دائماً مع التيار، اندفع، أبقى على سطح الماء. ربما يعود كل هذا على ظروف ولادتي، بهذا كنت أفسر كل شيء تقريبا.

ثم أشعل ابني الفتيل. لم يفاجئ الأمر أحداً. لا بد أن تصل الأمور إلى هذا الحد يوماً ما. فبنهاية كل ما لقمه كوني في الانترنت، ثرثر به في المنتدى الالكتروني، دعا إليه في موقعه، كانت للطلقات التي سددها على الضفة الجنوبية لبحيرة شفيرين أوخم النتائج. ها هو جليس سجن الأحداث، اكتسب صيتا طيبا في مباريات كرة الطاولة ودورة الكمبيوتر، يفخر بشهادة الثانوية العامة، بل وإنه، كما روت لي الأم، يحصل منذ الآن على عروض للعمل في مؤسسات اقتصادية بعد إطلاق سراحه. يا للتكنولوجيا الحديثة! هل سيكون له دور في القرن القادم؟ بدا نقي السريرة، لاح صحيح البنيان، يتحدث حكيماً إلا أنه لم يتوقف عن التفكير بالكبائر على أنها صغائر. لن ينتهي هذا الأمر إلا نهاية سيئة، فكرت تفكيراً غير دقيق وبدأت أبحث عن النصح

بداية لأني لم أكن أدرك شيئاً بعد، بحثت عنه حتى لدى الخالة

جيني. أنصتت السيدة في بيت العرائس إلى كل ما سردته لها من سريرتي ورأسها يرتعش ارتعاشة خفيفة. كان للجميع أن يفرغ شحنته لدى الخالة جيني، فقد كانت معتادة على ذلك، منذ شبابها أغلب الظن. بعد أن كادت الاسطوانة تأتي على نهايتها عرضت علي ابتسامتها المتجمدة وقالت: «هذا ليس إلا الشر يريد أن يخرج من النفس. تعرف صديقة طفولتي تولا، أمك العزيزة، هذه المشكلة حق المعرفة. هوهو كم عانيت من في طفولتي من نزواتها. وأيضاً أبي بالتبني ـ يقال أن أصلي من عائلة غجر حقيقية، الأمر الذي كان يجب التستر عليه ذلك الوقت ـ، هه هذا المدرس الذي أحمل اسمه عرف تولا من أسوأ نواحيها. كانت تعتبر الحكاية مجرد مجون. لكنها أخذت مساراً سيئاً. بعد الوشاية أخذو البابا (برونيس).. أخذوه إلى (شتوتهوف).. لكن النهاية جاءت سليمة. لازم تتحدث معها عن همومك. تولا جربت بنفسها كيف يمكن أن يتغير الإنسان كليا».

هكذا جذفت بعيدا عن برلين على الطريق السريع ٢٤ وأخذت الطريق المتفرع إلى شفيرين. نعم تحدثت مع الأم، كما يمكن لأحدهم أن يتحدث معها عن أفكاري السائرة بالعرض. جلسنا في الطابق العاشر في المجمع السكني المرمم في شارع غاغارين على البلكون باطلالة على برج التلفزيون. في الأسفل كان لينين مايزال موجهاً أنظاره نحو الغرب. بدا وكأن شقتها لم تتغير، إلا أن الأم اكتشفت في الفترة الأخيرة دين طفولتها، تظاهرت بالكاثوليكية وأثثت في ركن من شقتها مايشبه مذبحاً منزلياً وضعت عليه، بين الشموع والأزهار البلاستيكية ـ زنبق أبيض ـ صورة العذراء، لكن صورة الرفيق ستالين بزيه الأبيض مدخناً غليونه كانت غريبة هناك. كان من الصعوبة أن أحدق في ذلك الهيكل ولا أقول شيئا.

اصطحبت معي فطائر تحبها. لم أكن أنهيت تفريغ الأكياس وجلست حتى قالت: «ما لازم تشغل بالك بالرايحة والجاية على صغيري كونراد. هو عم يقضي هنيك فترته عوض الورطة اللي ورط حاله فيها وإذا أخذ حريته من جديد راح يصير متطرف حقيقي، متل ما كنت أنا من قبل لما سبوني رفقاتي بأني آخر وحدة وفية لستالين. لا تخاف ما راح يصير فيه شي مو كويس. ملاك الرحمة قاعد على كتف صغيرنا كونراد..».

تفكرت قليلاً ثم عادت لطبيعتها وأعطت الحق لصديقتها جيني، التي كانت دائما تستشعر الطريق الصحيح: «كل هالاشياء اللي تتخبى جواتنا وفي كل مكان، لازم الشر يطلع برا..». لا، لا يمكن انتظار النصيحة من الأم، فقد كانت أفكارها الشائبة قصيرة كشعرها وستبقى. باب من أطرق إذا؟ باب غابي مثلا؟

مرة أخرى قدت عربتي على الطريق المستهلكة من شفيرين إلى مولن واندهشت، كما في كل مرة، من جمال هذه البلدة المتواضع، التي تعيد نفسها تاريخياً على (تيل اويلنشبيغل)، لكنها لا تحتمل طرفه. ولأن مطلقتي مرتبطة في الفترة الأخيرة بصديق يقطن عندها، «إنسان لطيف جدا، رقيق وموثوق به» كما قالت، فقد التقينا في البلدة المجاورة (راتزبورغ) وأكلنا - هي أكلا نباتيا وأنا شريحة لحم محمر - في مطعم زيهوف بالطلالة على البجع، على الإوز والبط. وبعد أن حملتني مسؤولية ما جرى لابننا بملاحظتها الأولية «الله عليم أني لا أريد ان أجرحك» قالت: «تعرف إني لا أستطيع التواصل مع الولد منذ زمن بعيد. هو ينغلق على نفسه، لا يستطيع تقبل مشاعر الحب وأمثالها من العواطف. خلال هذا توصلت إلى أن كل شيء في أعماقه

فاسد من الأساس حتى آخر افكاره. لكني إذا تأملت السيدة أمك أحس بما ورثته عبر السيد ابنها إلى كونراد. وهنا لا يمكن تغيير أي شيء. الجدير بالذكر أن ابنك تبرأ مني نهائيا في آخر زيارة». ثم أفهمتني أنها تريد أن تبدأ حياة جديدة مع شريك حياتها «الحنون والذكي والمطلع على الدنيا» وأن من حقها أن تستغل «القسمة والنصيب» بعد كل ما مرت به من عذابات. «وتصور باول، أخيراً وجدت القوة كي أتخلى عن التدخين». لم نتناول الحلوى ومراعاة لها امتنعت عن تدخين سيجارة ثانية. أصرت مطلقتي على أن تدفع حسابها بنفسها.

تبدو لي محاولة البحث عن نصيحة لدى صديقة ابني المنتصرة له مضحكة الآن، إلا أنها فتحت عيني على الكثير وأوحت لي بإشارة إلى المستقبل. في اليوم التالي، وكان هذا يوم زيارة، التقينا في مقهى في نوشتريليتز بعد أن زرات كوني. لم تعد عيناها دامعتان. شعرها المنسدل عادة باهمال، كان مشدودا في عقدة. جسدها المستعد دائماً للتضحية كان اكثر انتصابا. وجتى يداها القلقتان الباحثتان أبدا عن سند، كانتا منقبضتين هذه المرة على المنضدة. أكدت لي: «كيف تتصرفون كأب، هذا من شأنكم. أنا أؤمن دائما بالخير في كوني وليحدث ما يحدث. هو قوي، قوي بشكل مثالي. وأنا لست الوحيد التي تؤمن به، تؤمن به بقوة وطبعاً ليس فقط بالكلمات».

قلت إني أوافقها على نواته الطيبة وإن هذا رأيي أنا أيضاً من حيث المبدأ. أردت أن أقول المزيد، إلا أني فهمت منها وكأنها تريد إنهاء الحوار: «ليس هو الشرير، بل العالم من حوله». جاء وقت النهوض والإعلان عن تسجيل زيارتي في سجن الأحداث.

للمرة الأولى يسمح لي بزيارته في الزنزانة. أعلمت أن كونراد بوكريفكه حصل على هذه الإجازة الاستثنائية بناء على مواقفه الجيدة وسلوكه الاجتماعي المثالي. كان رفاق الزنزانة في الخارج يعملون في الحديقة، كما سمعت وكوني ينتظر في الركن المخصص له. علبة صدئة هذا السجن، إلا أنه تقرر بناء مبنى جديد كما قيل. كنت أظن أني آمن من المفاجآت من ناحية، ومن ناحية أخرى خشيت الوحي المباغت على ابني.

عندما دخلت ولم ألحظ في البداية إلا الجدران المبقعة، كان يجلس في كنزته النرويجية إلى طاولته المسنودة إلى الجدار وقال دون أن يرفع عينيه: «كيف حالك بابا». بعلامة لا توحي بالكثير أشار ابني الذي يقول لي لأول مرة «بابا» إلى رف الكتب الذي أزيلت من تحته جميع الصور، الأمر الذي لم أفهمه ـ صورة فولفغانغ، صور فرانكفورتر في الشباب والكهولة وصورتي قائد الغواصة مارينسكو ـ ولم يعلق مكانها صوراً اخرى. مررت بنظري سراعاً على عناوين الكتب على الرف، كانت كما هو المتوقع كتب في التاريخ، كتب في التكنولوجيا الحديثة وبينها مجموعتان لكافكا.

لم آت على ذكر الصور في شيء، ويبدو أنه لم يتوقع مني أن أتي على ذكرها. أما ما جرى بعد ذلك فقد جرى سريعا. قام كونراد، رفع نموذج السفينة المعمدة باسم فيلهلم غوستلوف المعلمة بثلاث علامات حمراء، من هيكله السلكي الذي كان في مركز الطاولة، وضع بدن السفينة أمام الهيكل وبدأ بتحطيم صنيعته. ليس في حنق، بل في هدوء وتأمل.

لابد أن ذلك آلمه شديد الألم، فبعد اللكمة الرابعة أو الخامسة أدمت يده اليمنى، لابد أنه جرحها بالمدخنة، بقوارب النجاة

والساريتين، إلا أنه تابع اللكم. وعندما لم يشأ البدن ان يستسلم لقبضته، رفع الحطام بكلتا يديه ورماه على أرضية الزنزانة المكونة من الألواح الخشبية المزيتة، وداس البقية الباقية من نموذج فيلهلم غوستلوف وفي النهاية قوارب النجاة الناجية من الحطام.

«هل أنت راض الآن يا بابا؟» ولم ينطق بعدها بكلمة. بحثت عيناه عن قضبان النافذة واستقرت عليها. ثرثرت بما لا أعلم. شيئاً إيجابياً. «يجب أن لا نستسلم أبدا» أو «لنبدأ من جديد» أو أي سماجة من كلام الأفلام الأمريكية: «أنا فخور بك». وحتى عندما خرجت، لم يكن لدى ابني ما يقوله لي.

بعد أيام، لا في اليوم التالي، نصحني أحدهم ـ هو الذي تقدمت باسمه بمشية السرطان ـ بضرورة الاطلاع على الانترنت. قال ربما أجد بضربة من الفأرة خاتمة للحكاية. حتى ذلك الوقت كنت أعيش عفيفا من الانترنت، أبحث فقط عما يهمني مهنيا، بين الحين والآخر صفحة للبورنوغرافيا وليس أكثر. فمنذ دخل كوني السجن، لم يكن هناك اتصال. كما لم يعد دافيد موجودا.

كان علي الابحار طويلاً في هذا العالم. أدخلت اسم السفينة اللعينة أكثر من مرة في ويندوس، لكني لم أعثر على جديد ونهائي. إلا أني اصطدمت فجأة بأكثر مما توقعت. فقد قدم موقع الكتروني باللغتين الألمانية والانكليزية نفسه تحت عنوان استثنائي يقوم بالدعاية لمناضل مثال في موقفه وأفكاره، ما دفع النظام ليرميه في المعتقل، كان العنوان www.kameradschaft - konrad - pokriefke - de. «نؤمن بك، ننتظرك، نتبعك. .» الخ، الخ.

لن يتوقف هذا. هذا لن يتوقف أبدا.

## هذا الكتاب

كان عليّ الابحار طويلاً في هذا العالم. أدخلت اسم السفينة اللعينة أكثر من مرة في ويندوس، لكني لم أعثر على جديد ونهائي. إلا أني اصطدمت فجأة بأكثر مما توقعت. فقد قدم موقع الكتروني باللغتين الألمانية والانكليزية نفسه تحت عنوان استثنائي يقوم بالدعاية لمناضل مثال في موقفه وأفكاره، ما دفع النظام ليرميه في المعتقل، كان العنوان: www.kameradschaft-konrad-pokriefke-de

«نؤمن بك، ننتظرك، نتبعك ..» الخ، الخ.
لن يتوقف هذا. هذا لن يتوقف أبدا.